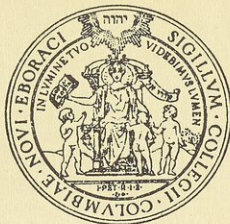


Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES



فوق جواد أغبر
أبناء الفناء - حمزة الظهير



فوق جواد العجبر

للكاتبة الأمريكية المعاصرة

كاتراين آن بورتر

نقلت إلى العربية

الكاتبة الكبيرة

السيدة هوني عبد الله

893.785
P83

نشر بالاشتراك
مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر
بالقاهرة ونيويورك

هذه الترجمة مرخص بها
وقد قامت مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر
بشراء حقوق الترجمة من أصحاب هذه الحقوق
ونزلت عنها لدار « أخبار اليوم »

This is a translation of "Pale Horse, Pale Rider" by
Katherine Anne Porter. Published by Harcourt, Brace
& Company. Copyright 1936, 1937, 1939, by the
Author.

Publisher's Gift

NOV 3 1955

فوق جواد أغبر

درت وهى نائمة أنها فى فراشها ، ولكن لا الفراش فراشها
الذى توسدته منذ سويغات ، ولا الحجرة حجرتها ، ولكنها
حجرة سلفت لها بها صلة على وجه من الوجوه . وكان قلبها
كأنه صخرة رسخت فوق صدرها من خارج ، وقد أبطأ وجيب
قلبها ثم كف عن الحفقان ، فعلمت أن أمرا خارقا قد أوشك أن
يقع . ولريح النهار الباكر من وصاوص النافذة نسمة رطبة ،
وسلسال الضوء أزرق أدكن ، وكل من فى الدار يغط فى نومه .

الآن يجب أن أنهض فأمضى وهم رقود . وأين حوائجى ؟ إن
للأشياء فى هذا المكان إرادة ، فهى تختفى حيثما تشتهى .
وسوف يبدق ضوء النهار سقف الدار دقة فاجئة ، فإذا هم على
أقدامهم وقوف ، وقد فاضت على وجوعهم أسئلتهم : إلى أين أنت
ذاهبة ؟ وماذا أنت صانعة ؟ وفيم تفكرين ؟ وبماذا تشعرين ؟
ولماذا تقولين هذا الذى تقولين ؟ وماذا تعنين ؟

نضب النوم . فأين حذاء ركوبى . وأى جواد أركب ؟
أأركب « فيدلر » ، أم « جرايل » ، أم « الانسة لوسى » ذات الأنف
الطويل والنظرة الخبيثة ؟

لكن أحببت هذه الدار فى الصباح قبل أن نهب جميعا من
رقادنا فنتخالط تخالط خيوط صيد أسى مرماها .

فى هذا المكان ولد كثيرون ، وبكوا فأكثروا البكاء ، وضحكوا
فأكثروا الضحك ، وتغاضبوا وتناحروا فأسرفوا . وما أكثر من
ماتوا من قبل فى هذا الفراش ، ومن قبلهم اندثرت عظام آباء
وجودود حول مدافنه .

وعلا صوتها وهى تقول : ما أكثر ما بلى فى هذا البيت من

أكسية المقاعد والارائك اجيالابعد اجيال ، وما أكثر ما كان
حريرا أن يتراكم فيه من الغبار طبقة فوق طبقة ، لولا أيدلم تدع
له مستقرا .

والغريب ؟ أين هذا الغريب الهزيل الضارب لونه الى الحضرة
... الذى أذكر حومانه حول الدار ، وما كان يلقاه به جدى
وتلقاه به عمتى الكبيرة من ترحيب ، يتلقاه بمنله أبناء
عمومتى الابدون ، وكلب صيدى المقعد وهريرتى الفضية اللون ؟
وانى لأعجب ماذا كان يحبهم فيه ؟ وأين هم الآن ؟ فانى قد
بصرت به يمر بالنافذة عند الاصيل .

ومن لى فى الدنيا عدا هؤلاء ؟ لا شىء . ما لى شىء ، ولكن ذلك
اللاشئ الذى لى ، فيه كفاية ، فهو جميل ، وهو كله لى ، فهل ترانى
أمشى الآن فى جلدى ، أم عساه جلدا استعترته لأستتر به من
حياء ؟

والآن ، أى جواد أستعير لتلك السفرة التى لا أنتويها ؟
أستعير جرايل ، أم الآنسة لوسى ، أم فيدلر الذى يقفز فوق
الحنادق فى الظلام ، ويحسن التقام اللجام !!

أوفق أوان لرحيلى بكرة الصباح ، فالشجر حينئذ هو
الشجر ولا خفاء ، والصخر هو الصخر فى ظلال نعرف أنها
أعشاب ، فلا مجال للتخبط أو الحذر ، والطريق بعد وسمان
لم تنحسر عنه طلاوة الندى ، وسأركب جرايل لانه لا يجفل
أمام القناطر والمعابر ..

وقالت بعد ذلك وقد أخذت بعنانه : هيا الآن
يا جرايل ، فلا بد لنا أن نستبق الموت والشيطان فنسبقهما .

وقالت للجوادين الباقين : لستما أهلا لذلك .

وكانا مسرجين أمام باب الاسطبل ، ومعهما جواد الغريب ،
وكان أغبر اللون مرقش الانف والاذنين .

وتأرجح الغريب فوق سرج جواده الى جوارها ، ثم انحنى
بقاعته نحوها انحناء شديدا ، ونظر اليها نظرة خلوا من

المعنى ، نظرة فارغة ساكنة تنبى عن خباثة غير مقصودة ، لا تحمل
وعيدا ولا تستعجل أمرا • فجذبت عنان جرايل جذبة شديدة ،
واستحثته على الانطلاق ، فوثب فوق السور المنخفض الوردى
وما وراءه من خندق ضيق ، ثم ارتفع فى الشارع بعد ذلك تحت
سنايبكه سحب الغبار الثقيل •

وأطلق الغريب الى جوارها فى يسر وخفة ، وقد انفرجت
أصابعه عن العنان المرخى فى كفه ، وقد انتصبت قامته أنيقة
فى أثوابه القاتمة البالية ، التى كانت تخفق فوق عظامه ، وقد
افتتر وجهه الاغبر عن ابتسامة تنبى عن شرود خبيث • ولم يكن
نظره اليها •

آه • لقد رأيت هذا المخلوق من قبل ، ولو أسعفتنى الذاكرة
بموضعه منها لعرفته • فما هو بالغريب عنى !

وجذبت عنان جرايل ، وهمت قائمة فى ركاها ، وصاحت :

لست على طريقك هذه المرة ، فأنطلق أنت !

وأطلق الغريب غير متلبث أو ملتفت ضوبها • وكانت
أضلاع جرايل تعلو من تحتها وتهبط ، وكذلك أضلاعها كانت
فى ارتفاع وهبوط • وى ! كيف أصابنى كل هذا الكلال • ينبغى
الآن أن أصحو •

وقالت وهى تفتح عينيها وتتمطى :

- ولكن ينبغى أن أتناهب وسع فمى أولا • من أين لى ضربة ماء
بارد تصافح وجهى ، فأحسبني عدت الى الكلام فى منامى ، وقد
سمعت صوتى •• ! ولكن ترى ماذا كنت أقول ؟

وفى ابطاء ، وعلى غير هواها ، راحت ميراندا ترفع نفسها من
وهدة النعاس اصبعا اصبعا ، ثم لبثت وهى فى بهرة الوسن
تستأدى الحياة مأثور سيرتها •

وأفزع خاطرها لفظ واحد ، كأنه صوت النذير ، يذكرها
طيلة يومها ما أسعدها نسيانها فى نومها ، وما كان لها فى غير
نومها أن تنساه • وكانت صيحة ذلك النذير كلمة « الحرب » •••
وهزت رأسها ، فقد تذكرت وهى تهز قدميها ، وقد علق بهما

خفاها : كيف يجلس شتى صنوف الناس فوق مكتبها بادارة
الجريدة ! ففي كل يوم تجد من يجلس فوق مكتبها لا يحول عنه
الى المقعد المبذول هناك ، ويطوح فى جلسته ساقيه ، ويحوم فيما
حوله بناظرية ، وقد شغله مهم أمره ، وراح يترقب سانحة
للكلام فيه !! فلماذا لا يجلسون على الكرسي ؟ هل ينبغي أن أعلق
عليه لافتة مكتوبا فيها : (نشدتك الله أن تقعد هنا !)

وما عقلت لافتة ، بل انها ما كانت لتقطب فى وجوه زائريها ،
ويغلب عليها ألا تلقى اليهم بالا على الاطلاق الا اذا رجحت كفة
اصرارهم على استلقاتها اليهم كفة اصرارها الا تلتفت الى وجودهم .
وجال بفكرها وهى تستلقى على راحتها فى ماء ماعون
استحمامها الساخن « أن يوم السبت هو يوم صرف الاجور
كالعتاد ، أو هو على الاقل ما نرجو أن يدوم عليه الحال . » ثم راحت
خواطرها تحوم متخبطة فى دأب متصل لتجمع أطراف النقائص
فى حياتها اليومية وتسلكها فى نظام واحد متين ، وانها لحياة
يتراعى لها كفاح البقاء فيها وقد أضحت سلسلة متصلة من ضروب
الشعوذة والاحتيال .

اننى مدينة ٠٠ بماذا على وجه التحديد ؟ ليت فى يدي الساعة
قلما وقرطاسا ٠٠ لا بأس ، لنفرض أننى دفعت فعلا خمسة
دولارات فورا من ثمن « سند الحرية » ، فما أظننى مستطاعة
أن أثابر على الوفاء بتلك الدفعات ، أو لعلى أقدر ! ان أجرى ثمانية
عشر دولارا فى الاسبوع . منها « كذا » لأجرة السكن ، وكذا
للطعام ، ولا بد لي أيضا من بضعة أشياء أخرى ، يقرب ثمنها من
خمسة دولارات . فتتبقى لي سبعة وعشرون سنتا ، على ما أظن .
وأحسب هذا مما يقلق البال . بل لقد أقلق بالي فعلا . وماذا
وراء ذلك ؟ الباقي سبعة وعشرون سنتا ، كلها كسب خالص ، أو
« صافى أرباح » . ولو أنهم رفعوا مرتبى الى عشرين دولارا
لكان ما يتبقى معي ريالين وسبعة وعشرين سنتا . ولكنهم لن
يرفعوا مرتبى الى عشرين دولارا ، بل انهم سيعلقون بى الى عرض
الطريق ان لم أشتر « سند الحرية » . وأكاد لا أصدق
هذا ، وسوف أسأل « بيل » فى ذلك ، (بيل هو محرر شئون

المال) فانه يخيل الى أن وعيدا من هذا القبيل انما هو ابتزاز للمال بالتهديد . وما أظن من يقدم عليه ينجو من وزره ، مهما كان مركزه أو نفوذه .

وبالامس كانت تتدلى من فوق مائدة ألتها الكاتبة أربع أرجل ، كل رجلين منها فى ناحية ، وقد التفت تلك الأرجل فى أردية كأنها المداخن ، قاتمة اللون ، يبدو أنها غالية الثمن . وأدركت عن بعد أن أحد الجالسين أقرب الى الكهولة ، والآخر أقرب الى الصبا . وفى كليهما عنجهية مبتذلة منحولة ، يبدو أنهما أستقيها من معين واحد ، وعليهما معا أمارات تغذية موفورة . وكان لأصغرهما شارب مقطوط مربع . ودلها مرأهما على أن مرادهما - كائنا ما كان - لا بد أن يكون غير جميل .

وأومات ميرندا اليهما برأسها محيية ، ثم جذبت مقعدها ومدت يدها ، قبل أن تخلع قفازها وقبعتها ، الى كومة من الخطابات ، ثم أخرجت ورق النسخ من درجه ، كمن لا يتسع وقتها لضياغ لحظة ، فلم يتحرك الرجلان ، ولم يخلعا قبعتيهما !! فقالت لهما : « طاب يومكما » ، ثم سألتها : أألهما كانا فى انتظار مقدمها ؟

وانحدر الرجلان عن موضعهما فوق المكتب ، وقد خلفا فيه أوراقا لها كسرهما جلوسهما فوقها ، ثم سألتها الرجل المسن منهما : لم لم تشتر سندا من سندات الحرية ؟ فنظرت اليه ميرندا عندئذ ، فلم يحسن وقعه لديها ، فقد كان ذا وجه أشبه بصرة النقود ، ضخام ، ذا عينين صغيرتين خابيتين ! وعجبت ميرندا فى سريرتها : لماذا يكاد جميع من يختارون لأعمال الحرب فى أرض الوطن أن يكونوا على غرارهِ . فانه يحتمل أن يكون أيما شئ على الاطلاق : رائد الطليعة لمسرح متنقل ، أو مروج بضاعة لشركة مفلسة من شركات الزيت ، أو مديرا سابقا لأحد الملاهى الرخيصة يدعو للمهى جديد اعززم أن يفتتحه قريبا ، أو بائع سيارات ، أو مرتزقا بأى مهنة كانت حيثما اتفقت له اللقمة ! بيد أنه الآن رجل الوطنية المتأصلة ، الذى يعمل للدولة .

وسألتها الرجل قائلا : اسمعى ! أتعلمين أننا فى وقت حرب أو لا تعلمين ؟

• • أترأه ينتظر حقا جوابا عن هذا السؤال ؟ ولكن صبرا يا ميراندا ،
فذلك أمر لم يكن منه بد ، ان عاجلا أو آجلا • فتماسكي •
وهز الرجل اصبعه في وجهها ، ملحا عليها في سؤاله ذاك ، كأنه
يستحث طفلا عنيدا • فقالت ميراندا كأنها تردد صدى كلامه :
« أجل ، انها الحرب ! » وارتفع صوتها طبقة وهي تقولها ،
وأوشكت أن تبسّم له • فقد أصبح الابتسام بتلك الصورة
الغامضة الجامدة لازمة آلية حينما يسمع الانسان كلمة الحرب ، أو
حين يتفوه بها •

فقال أصغر الرجلين سنا بلهجة مستهجنة : « أجل ، انها
الحرب • » فأجفلت ميراندا الصوت ، والتقت بعينه عيناها ،
فاذا نظرته جامدة جمود الصخر ، باردة في خبائة ولؤم ، فهي من
قبيل تلك النظرة التي تتوقع أن ترتطم بها من وراء فوهة مسدس
مصوب عند منعطف منعزل • • • وقد ألقت نظرتة ضوئا موقوتا على
معارف وجهه التي تبدو غفلا لولا هذه النظرة ! شأن وجوه هؤلاء
الذين لم يخلقوا لأمر من الامور أو مشغلة خاصة بهم •

واستطرد الرجل قائلا : « اننا في حالة حرب • ومن الناس من
يقبلون على شراء سندات الحرية ، ولكن فريقا منهم لا يبدو أنهم
يهفون اليها • وذلك هو ما نريد أن نقول • »

وقطبت ميراندا جبينها في عصبية هي بداية أمارات الخوف ،
وسألتها وهي ترفع عن آلتها الكاتبة غطاءها ثم ترده الى
موضعه : « وهل تبيعان هذه السندات ؟ »

فقال أسن الرجلين ، وفي صوته وعد ووعيد : « كلا ، نحن
لا نبيعها ، ولكننا نسألك لماذا لم تشتري سندا منها ؟ »

وشرعت ميراندا تبين لهما أنها لا تملك مالا ، ولا تدري أين تجد
المال ، واذا بالرجل المسن يقاطعها قائلا : « ليس هذا عذرا ناهضا
على الاطلاق ، وقد علمت هذا ، وهذه جيوش الهون تجتاح بلجيكا
الشهيدة »

وقال أصغر الرجلين : « هؤلاء شباب أمريكا يقاتلون ويقتلون

في غابة بللو ، وانه لما يسع أى انسان أن يدبر خمسين دولارا
يعين بها على هزيمة الالمان »

فبادرت ميراندا تحيب قائلة : « كل ما لى فى الحياة ثمانية عشر
دولارا فى الأسبوع ، لا تزيد سنتا واحدا ، فليس فى مقدورى
قطعا أن أشتري شيئا !

فقال أسن الرجلين ، وكانا قد وقفا فوق رأسها عن يمين وعن
شمال ، يتبادلان النعيب جيئة وذهابا : « بل تستطيعين شراء
السند مقسطا ، خمسة دولارات كل أسبوع ، كما فعل كثيرون
غيرك فى هذه الادارة وفى ادارات أخرى كثيرة !

وأخرست ميراندا خرس القنوط ، وان جال فى سريرتها :
ماذا لو لم أكن جبانة ، فصار رحتهما بحقيقة اعتقادي ورأى ؟
ماذا لو قلت لهما : الى سقر بهذه الحرب النكراء ؟ ماذا لو قلت
لهذا الصعلوك الصغير : وما خطبك أنت حتى لا تمضى الى القتال
ويأكلك الدود فى غابة بللو ؟ لوددت لو أكلتك !

وراحت ترتب خطاباتها ومذكراتها بأنامل مستعصية ، لاتكاد
تمسك شيئا حتى تفلته ، واندفع الرجل المسن يلقي خطبته المحفوظة :
« ان الوقت عصيب طبعاً ، وكل امرئ يعانى من غير شك ، ولكن
ينبغى أن ينهض كل بنصيبه من الاعباء . وأما سندات الحرية فهى
أضمن وسيلة من وسائل استغلال الاموال ، والمال مضمون كأنه فى
المصرف . فالحكومة ضامنة بطبيعة الحال هذه السندات . وأين عساك
أن تجدى غلة خيرا من هذه ؟ »

فقالت ميراندا : انى أوافقك فى هذا ، ولكن ليس لى مال اطلاقا
حتى أستثمره »

فانطلق الرجل يقول ان دولاراتها الخمسين ليست هى التى
ستقيم الميزان بطبيعة الحال ، وانما هى آية تبديها على حسن
نيتها وصدق سريرتها ، بوصفها امريكية صادقة الولاء قائمة بواجبها
والضمانات بعد لا زيادة فوقها المستزيد . ولو كان عنده مليون
دولار لسره أن يستثمر آخر سنت منها فى هذه السندات

وأوشك أن يهش لها وهو يقول : « لا محل للخسارة ، بل
انك لخاسرة ان لم تفعل ، ففكرى فى الامر مليا ، فانت وحدك

فى ادارة هذه الصحيفه كلها التى تفردت بالنكوص عن الشراء ، مع أن كل مؤسسة فى هذه المدينة قد أسهمت اسهاما كاملا لم يتخلف فيه أحد من موظفيها ، ولم نحتاج الى تكرار الطلب على أحد فى صحيفه الديلى كلاريون »

فقلت ميراندا : « المرتبات هناك أحسن ، ولكنى سأدفع فى الاسبوع القادم ، ان استطعت ، أما الآن فلا أستطيع »

فقال أصغر الرجلين : « احرصى أن تفعلى ، فليس هذا الامر هزلا ! »

وتبخر الرجلان منصرفين ، فمرا بمكتب محررة المجتمع ، ثم بمكتب بيل محرر شئون المال ، ثم بمكتب النسخ المستطيل الذى يجلس اليه الشيخ جيونز صائحا طوال الليل بين الفينة والفينة : يا جورج ! فيسرع اليه كاتب النسخ ليسمعه يصيح به مضححا له نمطا من الاخطاء طالما نبه اليه ميراندا من قبل .

وعند رأس الدرج الهابط ، وقف الرجلان في زهوهما وخيلاهما فأشعلا سيجارتين ، ثم ثبتا قبعتيهما فوق عيونهما .



وتقلبت ميراندا فى المياه المرفهة ، وودت لو استطاعت نوما حيث هى ، فلا تصحو الا وقد آن لها أن تستأنف الرقاد . وكانت تحس صداعا بطيئا حارقا ، لم تنتبه اليه الا حينئذ ، ذاكرة أنها استيقظت به ، بل انه بدأ لديها الليلة البارحة

واجتهدت وهى ترتدى ثيابها أن تقتفى أثر صداعها هذا المخاتل ، فعن لها أن الاحجى أن تقول انه بدأ مع الحرب ، ولكنه لم يكن على صورته الراهنة ، فبعد أن انصرف مندوبا اللجنة بالأمس ، نزلت الى قاعة الملابس حيث ألفت مارى تاوونزند ، محررة المجتمع ، ثائرة الاعصاب لسبب من الاسباب . وكانت جاثمة على طرف أريكة عتيقة من الخيزران المجدول تهدل أوسطها ، وفى يدها صوف وردى اللون تشتغل بحبكه . فكانت تلقيه من يدها بين الحين والحين لتمسك رأسها بيديها ، وتتأرجح قائلة فى دهشة وتساؤل : « سبحان الله ! » ، وكان العمود الذى تكتبه عنوانه « أخبار المدينة » ،

ولهذا أطلق عليها الجميع اسم «مدن» وكانت بينها وبين ميراندا سمات كثيرة مشتركة ، وبينهما مودة . فقد سلف لهما حين من الدهر كانتا فيه مخبرتين بمعنى الكلمة ، ثم أوفدتا معا لاستقصاء حادث هرب فاضح ، أقدم عليه فتى وفتاة ، ولم يسفر الهرب عن زواج ، فقررت الفتاة المرتدة وارمة المحيا بجانب أمها التي كانت تعول متأوهة تأوها رتيبا تحت تل من الأغطية . وبكت الفتاة ووالدتها بكاء أليما وهما تتوسلان الى المخبرتين الشابتين أن تكتما أسوأ ما فى القصة . وقد تكتماه وخرجت الصحيفة المنافسة على الناس فى اليوم التالى بالقصة كاملة غير منقوصة ، فعوقبت ميراندا « ومدن » معا ، وأنزلتا جهرة الى درك الاعمال النسوية المألوفة . فتولت احدهما المسارح وتولت الاخرى حديث المجتمع . وكانت السعة المشتركة بينهما أن كليهما لم تريا فيما فعلتا حرجا ولا منه مناصا ، فما كان يوسعهما أن تفعلنا غيره . وكانتا تعلمان أن سائر زملائهما يرون فيهما غفلة على ما فيهما من رقة ولطافة . فما أن رأته « مدن » ميراندا حتى انفجرت قائلة :

« لا أستطيع ، ولن يتسنى لى تدير المبلغ ، وقد قلت لهما وأعدت عليهما أننى لا أستطيع ، ولكن ما من سميع » !!

فقالت ميراندا : « كنت واثقة اننى لست وحدى المتفردة فى هذه الادارة بالعجز عن تدير خمسة دولارات . وقد قلت لهما أيضا اننى لم أستطع ، ولا أستطيع » !!

فقالت : مدن « سبحان الله ! لقد قالالى اننى قد أفقد عملى » !
فقالت ميراندا : « سأسأل فى ذلك بيل . فلست أعتقد أنه يقدم على هذا الصنيع » !

فقالت مدن : « ليس الامر بيده ، فسيكره عليه اذا ألحوا عليه ، أوترينهم مستطيعين أن يزجوا بنا فى السجن ؟ »

فقالت ميراندا وهى تجلس الى جوار مدن ، ثم تمسك رأسها بيديها : « لست أدرى . ولكن فعلوا فلن نستوحش هناك ! ولائى قبيل من الجند تحبكين هذا الصوف ؟ انه للون بهيج ما أحراره ان يعيش روحه » !

فقال مدن ، وهى تحرك ابرتيها بعد سكون : « أيا انعاش !
انى أحبك لنفسى »

فأجابتها ميراندا : « أجل سوف لا نستوحش ، وسننام
متعائنين » .

وغسلت وجهها ، ثم أعادت زينته ، وأخرجت من جيبها قفازا
رماديا نظيفا ، ثم خرجت لتنضم الى مجموعة من الشابات المتقلبات
فى أندية الرقص الخلوية ، أو فى لعب البريدج فترة الصبح ، أو
فى السوق الخيرية ، ومشاكل الصليب الأحمر ، فكلهن من
المنغمسات فى أعمال البر ، ومن دأبهن إقامة حفلات الشاي الراقصة
وجمع الاموال ليشترين بها أكاداسا من الحلوى والفاكهة والسجائر
والمجلات يوزعنها على المرضى فى مستشفيات الاقليم ، وهن الآن
فى طريقهن حاملات هذه الغنيمة فى موكب صاخب ، قوامه
السيارات الفارحة ، والوجوه المتوهجة ، كى ينعشن قلوب هؤلاء
الفتيان الشجعان الذين يجوزلك جدا أن تقول انهم قد سقطوا
دفاعا عن وطنهم ...

ولاشك أنه عزيز على هؤلاء الأعزاء أن ينطرحوا على هذا النحو
وهم أحرق ما يكونون شوقا الى عبور البحار وخوض غمار الحنادق !
أجل ، ومنهم نفر من أبهى من وقعت عليهم العين حسنا وجمالا !
وما كنت أدري أن فى هذا البلد كل هذا العدد من الرجال ذوى
الملاحظة . ولكم عجبت من أين طلّعوا علينا بحق السماء ؟! ولك
يا عزيزتى أن تتساءلى هذا التساؤل ، فمنذا الذى يدرى من أين
أتوا ؟ وانك فى هذا على حق ولا مرأى ، فانه يخيل الى أننا ينبغي
أن نبذل كل ما فى وسعنا لارضائهم ، ولكننى أبى كل الاباء
أن يكون بينى وبينهم حديث أو كلام . وقد أذرت المشرفات على
حفلات الرقص التى تقام للمجندين أننى مراقصة كل من يطلب منهم
مراقصتى أيا كان خبره ، ولكننى لن أكلّم منهم أحدا وان تذرعو
بالحرب سببا . وكذلك رقصت مئات من الاميال طولا ، دون أن
أفتح فمى الا لأقول : « نح ركبتيك » ! وانى لسعيدة بالكف
عن إقامة هذه المراقص ، وان كان الجنود قد امتنعوا عن حضورها
من تلقاء أنفسهم . ولكننى سمعت أن كثيرين جدا من هؤلاء المجندين
ينتمون الى كرائم الأسر ، وأنا لا أحقّ حفظ الاسماء ، ومن

وعيت أسماهم لم أكن قد سمعت بها من قبل ، ولهذا لست أدري
... وان كان يخيل الى أنه لو كان منهم ربيب أسرة طيبة لبدا
عليه ما ينم عنه . أليس كذلك ؟ فالرجل الطيب النشأة لا يطا
قدميك . أليس كذلك ؟ فذلك ما لا يبدر منه على كل حال ،
وقد كنت ألتف نعلا جديدا في كل مرقص يقام من هذه المراقص !
وعلى كل حال ، مبلغ اعتقادي أنه من فساد الذوق ، في الوقت
الحاضر قيامنا بأي نشاط اجتماعي ! فأولى بنا أن نرتدى جميعا عصابات
الصليب الأحمر ما بقيت هذه الحرب ...

ودرجت ميراندا حاملة سلتها وأزهارها ، متنقلة بين هاتيك
الشابات اللواتي تقاطرن مقتحمات العنبر ، مطلقات ضحكات صبيانية ،
أردن بها أن تكون آيات مرح منعش ، لولا صليل صارم يرن
في نبراتنا فتوشك أن تجمد له الدماء .

واستشعرت الحرج المبرح لبلاهة مهمتها ، فأنشأت تسير عجلي
بين صفوف الأسرة العالية ، تلك الصفوف الطويلة التي تتداني
فيها الأسرة فلا تدع فيما بينها سوى ممرات بالغة الضيق .

وكان الرجال في ذلك العنبر صفوة حسنى المظهر ، بسطت
الغطية عليهم الى الاذقان ، وما فيهم من علتة ذات خطر ، وقد
استولى عليهم القلق والملل ، حتى بات أكثرهم متعطشا الى السلوى
والتلهية بأي سبب ، ومعظمهم قد نسقت الضمادات في أناقة
فوق رأسه أو ذراعه . أما من لا يظهر عليه أثر جرح ، فاذا
سألته فتاة ذات فضول ، مخالفة بسؤالها عن مرضه ما حذرت منه
قبل حضورها تحذيرا حاسما ، كان جوابه بغير اختلاف : روماتزم !
• واذا ما ضحك بعضهم عن طيبة قلب ولهفة على التسلية ، وصاحوا
مبتهجين في أسرتهم الصلبة الضيقة تكاثرت الفتيات محدقات بهم .

وفيما كانت ميراندا تتطلع ، وهي تمر بباقة الزهر وسلة الحلوى
والسجائر بين السرر ، التقت عينها بعينين حاقدين لفتي مستلق
على ظهره ، وقد شدت ساقه اليمنى الى جبيرة مرفوعة ، فوقفت عنه
مؤخرة سريره ، ولبثت تنظر اليه فبادلها النظر بوجه لم يزايله
الحرد . وكانت عيناه تنطلقان بأجلى بيان قائلتين لها : « ما أنا
بمصيب مما تحملين شيئا ، فلك الشكر ، وانفضى عن فراشي هذه

الاقذار » • ذلك أن ميراندا كانت قد وضعت حملها وانحنت كي تجعله في متناول يده أن شاء ، ولم تستطع استرداد ما وضعت ، فأسرعت مبتعدة وقد تلهب وجهها فعبرت الممر الطويل الى ان خرجت الى شمس اكتوبر الهادئة حيث كانت الثكنات الكثيفة زاخرة بالحشرات الهائلة الشهباء ، وتوجهت الى أقرب نافذة الى سريره فأطلت تتجسس عليه • فإذا به راقد وقد أغمض عينيه ، وزوى ما بين حاجبيه في صرامة حزينة ولم تستطع أن تحسس هويته • ولم يتسن لها أن تتصور من أين أتى ، ولا الى أى طراز من الناس كان ينتمى في الحياة المدنية • فقد كان وجهه يافعا ، وملامحه حادة واضحة ، ويده لم تكونا يدى عامل ولا هما تحملان آثار عناية ورعاية • وانما هما بحيث تدلان على النفع وحسن التكوين ، وهما في موضعهما ذاك حيث استقرتا على الغطاء •

وخطر لها أنها وفقت اذ عثرت به ، فذلك خير من العثور بجرو لطيف جائع يسعده أن يجد لقمة يتبلغ بها ، وطرف حديثه يتجاذبه واياها • فما أشبه ذلك بالتقائك عند منعطف الطريق ، وأنت غارق فى خواطرك الاليمة ، بصورة مجسمة لافكارك وجها لوجه •

وقالت تصارح نفسها : « انه صورة مجسمة لاحساسى نحو هذا الامر كله • ولن أعود الى هذا المكان أبدا • فذلك مسعى لا خير فيه • وانى لا أشعر بالتقزز » •

حتى اذا عادت الى السيارة التى جاءت فيها ، واستقرت في مجلسها بالمقعد الخلفى ، حدثت نفسها قائلة : « سأصطفيه ولا شك ، وليكون لى من ذلك درس أعيه • »

وخرجت فتاة أخرى عليها متعبة غاية التعب ، فجلست الى جوارها ، ثم حدثتها قائلة بعد صمت يسير : « لست أدري ما جدوى كل هذا العناء • أن بعضهم لا يتقبل منا شيئا على الاطلاق • ولست أحب ذلك • وأنت ؟ »

فقالت ميراندا : « أكرهه » •

فقالت الفتاة فى تحوط : « وانى مع هذا أرى أنه ربما لم يخل من خير » •

فأجابتها ميراندا وقد لجأت الى التحوط كذلك : « ربما » •

كان هذا بالامس . فلما بلغت من تذكره هذا المبلغ . بدأ
ميراندا أنه لا خير فى تعلق ذهنها بالامس ، اللهم الا تلك الساعة
التي أعقبت منتصف الليل ، فقد سلختها راقصة مع آدم . وكان
آدم كثير الحذور ببالتها ، حتى ما كانت لتدرى متى كانت تفكر
فيه تفكيراً سافراً ، ومتى لا تفكر فيه الا من وراء حجاب . وكانت
صورته حاضرة على الدوام فى مخيلتها بوجه من الوجوه ، فتطفو
أحياناً على سطح ذهنها ، حين تحتله الخواطر المستعذبة ، بل
ان صورته هى كل ما رزقت فى دنياها من خاطر مستعذب .
وتفحصت وجهها فى المرأة التى بين النافذتين ، فتبين لها أن
احساسها بالوعكة لم يكن محض خيال . فقد غبرت عليها ثلاثة
أيام على الأقل وهى تشـعـربالاعتلال ، وكان محياها على غير
ما ألفت .

ان عليها أن تدبر هذه الدورات الحمسين بوجه من الوجوه ، أو
فمن يدرى أى شئ عساه أن يحدث ؟ لقد تمرست بالكوارث
الشخصية والتهم المتجنبة والعقوبات الشاذة الصارمة التى
ترتبت على أمور لا تعدو أهميتها كثيراً مالفشلها أو ابائها شئ
سند الحرية من أهمية .

كلا . انها لا ترى محياها اليوم يروق الناظرين : فهو متوهج
لامع ، وشعرها عصى المنحى فقالت تحدث نفسها : «ينبغى أن
أصنع شيئاً ، فما كنت لادع آدم يرانى على هذا النحو .» وكانت
تعلم انه الآن فى الردهة ، يتسقط صوت دوران مقبض بابها
كما أنه يكون دائماً عند الباب حين تعود : وكان وجوده هنا أو
هناك من قبيل المصادفة الحالصة .

وكانت أضواء الظهر تلقى فى حجرتها ظلالاً باهتة مائلة ،
فحدتتها نفسها أن يومها قد ساءت فاتحته ولكن هذا
شأن سائر الايام فى هذه الفترة لسبب ما .

وفيما يشبه الوسن ألفت فى شعرها شيئاً من العطر ، ثم
ارتدت قبعتها وسترتها المصنوعتين من الجلد المرقط . . . وكان
هذا ثانى شتاء لهما ، ولكن فيهما جدة ورونق . وسرها انها دفعت
فيهما ثمناً باعظا ، فقد تمتعت بهما هذا الزمن الطويل . ولو

أنها لم تشتريهما لما بقي معها اليوم ثمنهما ، ولكن ربما تيسر لها
تدبير ثمن هذا السند .

ولم تعثر بفعل الباب الا باخناء هامتها كي تلتصقه ، ثم انتصبت
مترددة برهة ، وقد وقع في روعها أنها نسيت شيئا توشك أن
تفقدته بعد حين أيما افتقاد .

وكان آدم في الردهة ، على قيد خطوة من باب حجرته ، فدار على
عقبه كمن فوجيء ، وقال : « مرحى ! فلست مقيدا بالابوة الى
المعسكر اليوم . أليس هذا من سوانح الخط ؟ »

وبشت له ميراندا باسمه ، فقد كان يسعد بها دوما أن تراه .
وكان مرتديا حلتة العسكرية الجديدة ، فبدأ كل شيء فيه زيتونيا
وزاهيا ، ونحاسيا ، فهو من قمة رأسه الى أخمص قدميه حنطى
اللون أورمليه . ولاحظت أنه كان يبدأ دوما بالابتسام لمرآها ، ثم تفيض
ابتسامته رويدا ، ويشخص بصره وكأنه يقرأ في نور خافت .

وخرجا معا الى ضوء النهار البديع ، وأوراق الاشجار
المنساقطة تنحطم تحت أقدامهما ، فرفعا ناظرينهما الى سماء صادقة
الزرق لا تشوبها شائبة . ووقفاعند أول منعطف ريشما يمر موكب
جنازة ، وكان أهل الميت يجلسون في عرباتهم وكانهم يستشعرون
الزهو بهذا الحداد !!

وقالت ميراندا : « أحسبني قد تأخرت كعادتي . كم الساعة ؟ »
فأجابها بعد أن شمر عن معصمه بحركة من ذراعه أوسع
مدى مما يلزم لذلك : « منتصف الثانية تقريبا » .

ولم يكن الجنود الجدد قد ألفوا بعد ساعات المعاصم ، فمعظمهم ممن
تعرف ميراندا أنهم من أبناء الجنوب والجنوب الغربي ، وما أبعد ذلك
عن ساحل الاطنتيق . فقد نشأوا على أن ساعات المعاصم
لا يلبسها الا المختنون .

وقالت ميراندا : « فيم تضرجت وجنتاك ؟ ليس في حمل الساعات
ما يعاب ، وانه لشيء جميل » .

وكان آدم من تكساس ، فأجابها قائلا : « لقد أوشكت أن ألفها ،

وطالما كرروا على أسماعنا أن أهل الرجولة فى الجيش النظامى
يحملونها • وذلك من فظاعات الحروب •»

وكان آدم طويل القامة ، متين عضلات الكتفين ، نحيف الخصرة
والفخذين • وكانت أزرار حلتة العسكرية كلها مجبوكة ، فبدأ
فى هذه الحلة الحشنة العصية التفصيل وكأنه فى قميص الكثاف
مع أن نسيجها جيد • وقد أفضى الى ميراندا أنه يعهد فى تفصيل حله
العسكرية لخير من يتيسر له من الحياطين • وذلك ردا عليها حين
لفتت نظره الى سوء مظهره فى حلتة العسكرية الجديدة ، «وماذا
نصنع فيما لاصلاح له ؟ »

ويبلغ آدم من العمر أربعة وعشرين سنة ، وهو ملازم ثان فى
سلاح من أسلحة المهندسين • وقد منح أجازة فى الوقت الحاضر لان
كتيبته على وشك الرحيل الى الميدان ، فهو - كما قال لميراندا -
قد جاء لكتابة وصيته ، والتزود بفرش الاسنان وأمواس الحلاقة :
« فما أضخم حظى بلقائك اذا كترت فى هذا البيت حجرة ••
فكيف بالله عرفت سلفاً أنك هناك ؟ »

وكانا يسيران جنباً الى جنب وقد انتظمت خطوات حذاءه الكبير
اللامع بوقعها الحازم مع خطوات حذاءها الاسود الرقيق النعل ،
وكان مشيهما الهوينى ، فأجلا بذلك نهاية نزعتهما معا جهد
التأجيل ، وأبقيا ما وسعهما الإبقاء على ما كان بينهما من حديث هين
كان يتراوح قافزا فوق الاخاديد الصغيرة العتيقة التى تنتشر فوق
الاديم الهزيل الذى يحيط بتلافيف المنح ، فقد كان حديثهما مما يقال
أو يسمع بغير استغراق يشيع الاضطراب فى ذلك الاشرار الذى
غمرهما بفضل تلك المعجزة المحببة ، معجزة كونهما انسابين يقال
لهما آدم وميراندا ، ولكليهما من العمر أربع وعشرون سنة ،
وانهما يعيشان على وجه البسيطة فى أوان واحد •

- ألك فى الرقص رغبة يا ميراندا ؟

- اننى دائماً ولى فى الرقص رغبة يا آدم •

ولكن ما أبعد ما بينهما وبين الرقص الآن ، فدون ذلك نهار
طويل لم ينقض منه الا القليل •

وقالت ميراندا فى ذات نفسها: انه ل يبدو هذا الصباح كالتفاح،
 نضرة وعافية . ولكم تفاخر فى ثنايا الحديث بأنه لم يعرف فى
 حياته معنى المرض ، ولم يذق فيما يذكر طعم الألم . فلم ترعها
 منه تلك الصورة الوحشية ، وانما لقى تفرد وامتياز ذاك قبولا
 لديها ، فى حين أنها عرفت فى حياتها من الآلام والأوصاب ما لم
 تجد معه حاجة الى ذكره وتعداده ، ولقد وهمت بعد عمل فى
 صحيفة صباحية دام ثلاث سنوات انها بلغت مبلغ الخبرة والنضوج ،
 ولكنها تبينت بعد أنه التعب المحض الذى أورثتها ايام معيشة
 درجت على اعتقاد شذوذها فى الصحو والمنام ، واصابة الطعام
 لما فى مطاعم صغيرة حقيرة ، واحتساء القهوة الغثة طول الليل ،
 والانهماك فى تدخين السجائر . فلما روت لآدم طرفا من نمط
 حياتها ، تفحص وجهها برهة كمن لم يرها من قبل ، ثم قال فى غير
 موارد : « ان هذه الحياة لا أراها قد مستك بسوء ، فانى أراك
 جميلة » . ثم تركها عند هذا الحد وهى تعجب بينها وبين نفسها :
 هل ترأه حسبها تستدرجه الى اطرائها .

وكان آدم أيضا يعيش على نمط غير سوى ، أو هكذا على الأقل
 كان يعيش فى الايام العشرة التى نشبت بينهما فيها المعرفة ، فكان
 يسهر حتى الواحدة صباحا كى يصحبها الى حيث يتناولان العشاء ،
 وكان يدخل كذلك بغير انقطاع ، مع انه ، لولا انها كفته عن
 الاسترسال ، كان حرياً أن يفيض فى شرح مساوىء التدخين وما يلحقه
 بالرتتين من أضرار ، ثم يعقب على ذلك بقوله : « ولكن أى بأس
 فى هذا مادام المرء ذاهباً الى حومة القتال ؟ » فكانت ميراندا تجيبه
 قائلة ! « لا بأس ، وان كان البأس أقل من هذا أيضا وأهون ما بقيت
 المرأة فى أرض الوطن تحبك جوارب الصوف للجنود ! ! هات
 سيجارة هات ! »

ووقفاً عند منعطف آخر ، تحت دوحة لم يبق لها من أوراقها الا
 زهاء النصف ، ولم يعيرا موكب الجنائز الذى كان يقترب منهما
 كبير التفات . وكان لون عينيها شاحبا ترصعها شذرات برتقالية ،
 أما شعره فكان حنطيا أو هو بلون العشب الجاف . واستخرج
 صندوق سجائره ثم أشعل سيجارتها وسيجارته بمشعله الفضى ،
 ثم استأنفا سيرهما ينفثان الدخان .

وقال لها : « كأنى أراك وأنت تحبكين جوارب الصوف، فما
تقدرين على ما هو أكبر وأحوج للسرعة . وقد علمت علم اليقين
انك لست فى هذه الصناعة من أهل البراعة ! »

فأجابته جادة : « بل أفعل ما هو أسوأ من هذا ، أكتب ناصحة
للشابات أن يحبكن الصوف ويطوين الضمادات ويستغنين عن
السكر معاونة منهن على كسب الحرب » .

فقال آدم فى استخفاف نعهده فى الرجال فى هذا الصدد :
« ولكن هذه مهنتك ، وعملك فيها لا يدخل فى الحساب » .

فقالت ميراندا : « انى لا أعجب كيف تمكنت من مد أجازتك ؟ »
فقال آدم : « لقد منحونى الامتداد بغير أسباب ، فالناس
يموتون كالذباب فيما يلوح بهذا المرض الجديد الذى يحطم
الكيان » !

فقالت ميراندا : « يبدو أنه وباء ، كذلك الأوبئة التى كانت
تحتاج القرون الوسطى ، والا فهل رأيت فى حياتك كل هذا
القدر من الجنازات ؟ »

- مطلقا . ولكن دعينا الآن من هذا الموضوع . فقط هبطت
على أربعة أيام أخرى من حيث لا أحتسب ، ولا ينبغى أن نضيع
شيئا منها هباء بالابطاء والتراخي . فماذا عن الليلة ؟ »

فقالت له : « ككل ليلة . ولكن لنجعل موعدنا منتصف الثانية
فقد جد الليلة أمر اضافى فوق عملى اليومى المعتاد » .

فقال آدم : « زأى عمل لك ؟ ان هو الا التنقل من ملهى مغث
الى ملهى مغث ، ثم تكتبين سطورا عن كل ذلك » !

فقالت ميراندا : « نعم وانه لعمل مغث فوق ما تستطيعه
الكلمات من بيان الغشيان » !

ووقفا برهة ريثما تمر جنازة . ولم يغضبا هذه المرة بل جعلا
يرقبانها فى صمت ، وجذبت ميراندا قبعتها الصغيرة فجعلتها فى
زاوية مائلة فوق رأسها ، ثم اختلجت عيناها فى ضوء الشمس
فقد كان رأسها يدور دورانا بطيئا وصفته لآدم بأنه كتحويم السمكات

الذهبية حين تسبح في آنية البلور : « وأراني نصف نائمة ، فلا بد لي من القهوة فوراً » . . .

واتكأ بمرفقيهما فوق الافريز المستطيل في ذلك المشرب ، وقالت له حين صارت أمامهما القهوة : « ان القابعين في أرض الوطن قد حرمت عليهم القشدة ، ولا يباح لأحدهم الا قطعة واحدة من السكر ، أما أنا فاما أن أصيب قطعتين أو لا أصيب شيئاً على الإطلاق . فهذا هو فني في الاستشهاد . وقد صبح عزمي منذ الآن على التزام سليق الكرب في طعامي ونفاية الصوف في هندامي ، استعداداً ومراناً للجولة القادمة ، فلن أسمح لحرب بعد هذه الحرب أن تغلبني على أمري !! »

فقال آدم :

- ولكن لن تكون بعد هذه الحرب حروب ، أما تقرأين الصحف ؟ فاننا سنسمح بهم الأرض هذه المرة مسحاً لن يفيقوا منه من بعد ، وسيكون ذلك فصل الخطاب .

فاحتست ميراندا رشفة من شرابها المر الدافئ ، وعلت وجهها من ذلك قشعريرة ، ثم قالت : « هكذا قيل لي » . وكانت ابتساماتهما تنم عن رضى متبادل عن رأيهما في الحرب ، فقد كان كلامهما عنها يدور على النحو السليم والنهج القويم ، وكانت ميراندا لا تميل الى اظهار الضجروالمبالغة في السخط والتبرم ، لان ذلك ليس مما يليق ، وليس وراءه طائل .

ودفع آدم بفنجاناه بعيداً ثم قال : « أهذا كل ما تتناولين من افطار ؟ »

فاجابته : « هو فوق الكفاية »

قال : « أما أنا فأكلت كعكاً وسجقاً وعصير فاكهة وموزتين وفنجانين من القهوة في الساعة الثامنة ، وأشعر الآن أنني جائع جوعاً ضارياً . وما أشوقني الى ضلع مشوى وبطاطس مقوية و . . . »

فقاطعته ميراندا قائلة : « حسبك ! فإن هذا لهو عندي أشبه بالهذيان . فأقدم عليه بعد انصرافي . »

ثم انحدرت هابطة من المعقد المرتفع ، وانحنت فوقه قليلا
ريثما نظرت الى وجهها في مرآتها الصغيرة المستديرة ، ومرت
بصباغ الاحمر فوق شفتيها ، وعندئذ تبين لها أن حالها قد
جاوز في السوء المدى ، فقالت لآدم : « ان بنى علة خافية ولا
شك ، فاني أشعر بخور ووهن شديدين . وغير ممكن ان يكون
سبب ذلك كله حالة الجو أو تأثير ظروف الحرب » .

فقال آدم : « الجو رائع ، والحرب خير مما يخطر بالبال ،
ولكن منذ متى انتابك هذا العارض ؟ لقد كنت أمس بخير
حال » !

فقالت في ببطء ، وقد بدا صوتها خافتا ضعيفا : « لست
أدرى » . ووقفا كعادتهما عند الباب المفتوح المفضى الى الدرج
الصاعد الى مكاتب الجريدة . وأنصتت ميراندا لحظة لضجة
الآلات الكاتبة من فوقها ، ولهدير المطبعة الدائرة من تحتها ، ثم
قالت : « كم أتمنى لو قضينا طول ما بعد الظهر في رحاب
حديقة ، أو في نزهة بالسيارة الى الجبال » !

فقالت : « وأنا كذلك . فلنفعل هذا غدا » .

فقالت : « نعم ، نفعله غدا ، اللهم الا اذا جد حائل . كم
أشتهى أن أهرب من هنا . ليتنا نهرب معا ؟ !

فقال آدم : « معي أنا ؟ حيث أنا ذاهب لا سبيل الى الفرار . وليس
أمام المرء سوى الانبطاح على بطنه هنا أو هناك بين الاطلال
والاسلاك الشائكة وما الى ذلك ، وسيكون ذلك أمرا لا يتفق وقوعه
للمرء مرتين في حياته » . وسكت يراجع نفسه لحظة ثم استطرد :
« لست أعرف شيئا على الاطلاق عن تلك الحياة في الواقع ، ولكنهم
يظهرونها لنا في صورة منفردة . وقد سمعت الكثير عنها حتى بت
أشعر كما لو كنت عائدا من هناك فعلا . وأحسبني حين أصل
الى هناك سأكون كمن رأى كثيرا من الصور عن موضع من المواضع
قبل غشيانه ، فلا تكون له عند رؤيته جدة ، ولهذا يخيل الى
أنني قضيت حياتي كلها في الجيش » .

وكان ما قضاه في الجيش ستة أشهر ، كأنها الابدية ، وكان
يبدو رائعا ناضرا ، شأن من لم يعرف في حياته طعم الالم .

وكانت ميراندا قد عرفت من قبل جنودا عائدين من الميدان ، فلم يكن فيهم من يبدو كما يبدو آدم الآن . فقالت له : « انك تشعر كما لو كانت بطلا غائدا فعلا . حبذا لو صحت الاحلام »

وقال آدم : « عندما علموني كيف أستخدم السونكى فى معسكر التدريب الاول ، أخرجت أحشاء عدد من حقائب الرمال وزكائب العشب ، لا يعد ولا يحصى . وكانوا لا يفتأون يصيحون بنبا : « اضرب . اضرب الألمانى ، أقتله قبل أن يقتلك » . فكنا نهجم على تلك الغرائر كالاعصار . ولا أكتمك اننى كنت اشعر أحيانا بالبلاهة والحزى من مراحل حماسى الفائزة حين أرى الرمال وقد تدفقت من مكانها ، وكثيرا ما كنت آرق فى جوف الليل ضيقا ببلاهتى تلك !

فقالت ميراندا : « انى أتصور هذا الذى تقول ، وهو حقا هذر فارغ !

وتلكا يماريان لحظة الفراق . وران الصمت برهة ، ثم قال آدم كمن يستأنف الحديث : « أتدريين مامتوسط حظ الانسان من الحياة اذا أصيب فى التحام بالحراب (السونكى) ؟ »
- « فترة وجيزة فيما أظن !

فقال آدم : تسع دقائق لا تريد . فقد قرأت ذلك فى صحيفتك منذ أقل من أسبوع » .

فقالت ميراندا : اجعلها عشرين معك !

فقال آدم : « لا أزيدها ثانية واحدة ، هى تسع دقائق بالضبط أتقبلين أم تحجمين ؟ »

فقالت ميراندا « كفى هذرا . من الذى ادعى ذلك ؟ »

- غير محارب من هؤلاء المقعدين المصابين بكساح الاطفال !

وبدا لهما ذلك مضحكا ، فتضحكا وتمايلا ، وسمعت ميراندا صوت ضحكها يدوى عاليا صارخا ، فمسحت الدمع الذى تفرق فى عينيها ، ثم قالت : « يالها من حرب مضحكة ،

أليس كذلك ! اننى أضحك كلما فكرت فيها » . . .

فتناول آدم يدها بين يديه ، وأخذ يجذب أطراف قفازها
رويدا ، ثم تنسمها وقال : « ماأطيب ريحك ، وما أكثره ، فانى
أحب الاكثار من العطر فى القفازوالشعر » .

فقالت : « ربما أكون قد أفرطت ، فانى لا طاقة لى اليوم
باحساسات الشم والرؤية والسمع ، ولا بد أن بى بردا
شديدا ؟ » .

فقال آدم : « اياك والبرد ، فقدأوشكت أجازتى على الانقضاء ،
وهى أجازتى الاخيرة التى لا أمل فى اجازة بعدها » .

وحركت أصابعها فى قفازهاوهو يجذب أطرافه ثم يقلب
يديها كأنهما شئ ثمين جدا ولاعهد له به من قبل ، وأخجلها
ذلك فسكنت فقد كان يروق لها . . . كان يروق لها ولا زيادة .
ولكن لم يكن هناك جدوى من تخيل زيادة فوق ذلك ، لانه لم
يكن لها ولا لائى امرأة ، فهو ولامرء منذور للموت لغير ذنب
جناه ، وعى غير علم بماكتب له . . . واستردت يديها ثم قالت
مودعة : « الى اللقاء هذا المساء » .

وأسرعت تصعد الدرج ، ثم التفتت اليه عندما بلغت القمة ،
فاذا به واقف يرقبها ، فرفع يدهدون ابتسام ، ولم تكن ميراندا
ألفت أن ترى أحدا يلتفت وراءه بعد تحية الوداع ، أما هى فلم تكن
تملك نفسها من الالتفات أحياناكى تصيب لمحة أخرى من الانسان
الذى كانت تتحدث اليه ، كأنمايجرى ذلك فى تجنيب ماكان بينهما
من صلة خشونة فراق قاطع . ولكن الناس ماكانوا يسلمون حتى
ينصرفون سراعا وقد تغيرت سحن وجوههم وتشكلت بما يعدون
أنفسهم له من لقاء جديد أو عمل يستغرق تفكيرهم التمهيد له .
أما آدم فهاهو ذا واقف كأنه يتوقع أن تلتفت اليه أو تعود ، وكانت
عيناه من تحت حاجبية المتوترين حالكتى السواد .

وجلست الى مكتبها بغير أن تخلع سترتها أو قبعتها الصغيرة ،
وراحت تفرض الخطابات وتنظاها بقرائها . وكان الجالسان فوق
مكتبها هذه المرة هما تشاك رونسيغال محرر الرياضة ، و«مدن»
وكانت تحب محضرهما وجلوسهما فوق مكتبها ، فهى تجلس فوق

مكتبهما كلما طاب لها ذلك • وكانا يتكلمان عندما دخلت ، واستمرتا
فى حديثهما ، وقالت « مدن » : « يقولون أن الوباء نجم عن جراثيم
حملتها سفينة ألمانية الى بوسطن، وكانت متنكرة طبعاً ، فلم تحضر
رافعة علم دولتها الحقيقى • أليس هذا سخفاً ؟ »

فقال تشاك : « ولعلها كانت غواصة تسللت من قاع اليم فى
جوف الليل • فهذا أقرب للعقل ؟ »

فقلت « مدن » : « فعلاً • ولكن الناس يفضلون دائماً اتقان هذه
التفاصيل • • والمظنون أن الجراثيم انتشرت فى المدينة ، وقد بدأت
كما تعلم فى بوسطن ، وذكر بعضهم انه رأى بعينه سحابة
غريبة غليظة دهنية المنظر تحلق فوق ميناء بوسطن ثم تنتشر ببطء
فوق طرف المدينة ، وأعتقد ان التى رأت هذه السحابة امرأة عجوز »
فقال تشاك : « ذلك ما ينبغي »

فقلت مدن : « لقد قرأت ذلك فى صحيفة نيويورك ، فلا
بد اذن أنه صحيح » •

وعندئذ ضحك تشاك وميراندا بصوت عال جداً ، فوقف بيل
وحقق فيهما ، فقال تشاك موضحاً : « مدن لاتزال تقرأ الصحف حتى
الآن ! »

فسأله بيل وهو يعود الى مقعده مقطباً فى الاوراق المكسدة أمامه :
« وما المضحك فى هذا ؟ »

وقالت ميراندا : « ان الذى رأى هذه السحابة غير محارب »
فقلت مدن : « طبعاً »

فقلت ميراندا : « ولعله أن يكون عضواً فى لجنة المجهود الحربى ! »
وتمنيت ميراندا لو كفت عن السماع والكلام كى تخلص لذات
نفسها خمس دقائق ، فتفكر فى آدم تفكيراً بمعنى الكلمة • ولكن
لم يكن لديها فسحة من الوقت • فقد عرفتة منذ عشرة أيام ، ومنذ
ذلك اليوم وهما يعبران الشوارع معاً ، ويتواثبان مارقين بين سيارات
النقل والركوب وعربات اليد وعربات المزارع ، وكان ينتظرها
عند أبواب الدور ، وفى مطعم صغير تفوح منه رائحة دهن الفلى القديم ،
وأكلوا ورقصا على نغمات الجاز التى تتراوح بين الانين والنهيق ، وجلسا

فى مسارح ثقيلة الظل، لان ميراندا كان عليها أن تكتب شيئا عن الرواية
التي تمثل فيها . وذهبا ذات مرة معا الى الجبال ، وهناك تركا
السيارة وتسلفا طريقا صخريا ، الى بسطة من الارض فوق صخرة
مستوية ، فجلسا هناك وراحا يشاهدان اختلاف الاضواء فى ذلك
الوادى الذى كان على حد قول ميراندا ذا منظر وراء الواقع ،
« ولكن ما حاجتنا الى تصديقه، فحسبنا أنه شعر بديع »

وتساند كتفاهما فى تلك الجلسة الهادئة الساكنة ، وأخلدا الى
انسراح البصر ، وكانا فى يومين من أيام الاحد قد ذهبا الى المتحف
الجيولوجى ، وتقاسما الاستمتاع بروعة ما فيه من النيازك، وتركيبات
الصخور ، والانياب المتحجرة ، وحفريات الاشجار ، والقسي
الهندية ، ونماذج من عروق الذهب والفضة . وكان آدم يقول لها :
« تصورى هؤلاء المعدنين القدامى وقد جلسوا الى جانب المجرى
يستخرجون فى قدور صغيرة أسباب الثراء ، وفى باطن الارض
تكن هذه العروق . » وذكر لها أنه يفضل كثيرا تلك الاشياء التي
يستغرق تكوينها زمنا طويلا . كما كان يحب الطائرات وكل ماهو آلى
ومحفورات الحشب والصخر . ولم يكن يدري الكثير عن هذه الاشياء،
ولكنه يعرفها بالنظر . واعترف لها انه لم يكن يطيق أن يتم كتابا
أيا كان نوعه، اللهم الا ما يختص بصناعة الهندسة . فالقراءة تسئمه
وتتضنيه . وشهد ماندم لانه لم يحضر عربته القوية المكشوفة ذات
المقعد الواحد ، ولكن لم يكن يجول بخاطره أنه سوف يحتاج اليها .
لقد كان يحب قيادة السيارات ، وكان لا يطمع فى أن تصدق كم
من مئات الاميال يقدر على قطعها فى اليوم الواحد . وقد أطلعها على
صور شمسية له أمام عجلة القيادة ، وفى زورقه ، وقد بدافى
جميع الزوايا طلق المحيا متفجرا بالسرور . وكان يزهيه أن ينضم
الى سلاح الطيران ، لولأن والدته كانت تثور وتهتاج كلما أشار الى
هذا الموضوع ، فقد كانت فيما يبدو لا تتصور أن القتال المحتدم
فى الجو أسلم عقبى من الالتحام بالحرب ليلا على وجه الارض .
ولكنه لم يناقشها ، لانها كانت بطبيعة الحال تجهل ماهو الاشتباك
بالحرب فى الخنادق . وهما هو الآن جالس فوق هضبة ارتفاعها
ميل ، ولاماء فيها يمخره الزورق ، وأما سيارته ففى موطنه
البعيد ، ولولا هذا لاستمتع بوقت طيب ، وأدركت ميراندا أنه كان

يحتال بذلك على أن يقول لها أى إنسان هو ووسائله الآلية تحت يده ، وشعرت انها تعرف يقينا أى إنسان هو ، وودت لو تقول له انه اذا كان يظن أنه ترك نفسه فى موطنه فى زورق أو سيارة ، فشد ما أمعن فى الخطأ .

وكانت التليفونات ترن ، وكان بيل يصيح متحدثا الى شخص كان لا يفتأ يقول « اسمع فقط ، فقط اسمع . . » ولكن مامن أحد كان يريد أن يسمع بطبيعة الحال . أما الشيخ جيبونز فكان يخور صائحا فى يأس : « يا جورج . جورج »

وكانت « مدن » تقول بصوت يفيض وطنية ورقة : « ومع ذلك فان مشروع الاكواخ فكرة بدیعة ، وينبغى أن نتطوع فيه جميعا حتى ولولم يكونوا بحاجة إلينا . » فقالت ميراندا فى نفسها ان مدن تحسن التمشية ، وتذكرت ذلك الصدر الوردى ووجهها المحقق الساخط المتمرد فى حجرة الملابس . أما الآن فمدن تفيض طلعتها طيبة وتمجيدا ورغبة فى تضحية نفسها فى سبيل وطنها . وهاهى تقول : « اننى على كل حال أستطيع ان أغنى وأرقص فى مستوى مقبول فى المسرح الصغير ، وأستطيع أيضا ان أكتب لهم خطاباتهم ، كما أستطيع عند الحاجة ان أقود سيارة اسعاف ، فقد قدت سيارة من طراز فورد عدة سنوات »

وعندئذ قالت ميراندا : وأنا أيضا أستطيع ان أرقص وأغنى ، ولكن من التى تفرش الاسرة وتمسح الارض ؟ ان هذه الاكواخ ليس من السهل ادارتها ، وستتراكم الاقدار ويستولى علينا الشقاء ، ولما كنت قائمة فعلا بعمل شاق قدر ، وشعورى بالشقاء تام ، فقد قررت البقاء حيث أنا . »

فقال تشاك رونسيغال : « أعتقد أنه يجب على النساء أن يتعدن عن أعمال الميـدان . فانهن لا يخفن بل يزدن العبء الفظيع فداحة بجر ذيولهن » .

وكان تشاك يشكو من علة فى رئتيه ويسوؤه كثيرا فوات فرصة تلك الحرب ، فكان يقول : « كنت حريا أن أكون الآن قد عدت بعد أن طارت عني ساق من ساقى ، وكان ذلك خليقا أن يجدى على أبى ، فكان أما أن يشتري خمرة لنفسه ، أو يقلع

عن الشراب . » ! وكانت ميراند اقد رأت تشاك يوم صرف الاجور يعطى أباه الشيخ مالا ليشتري الخمر ، وكان رجلا خيف الظل متملقا خبا ، وكان هذا أسوأ ما فيه ، فقد كان يدق ظهر ولده براحة يده ، ويهش في وجهه بعينين يغشيهما دمع الحنان الابوى وهو يستنزفه آخر درهم .

واستطرد تشاك قائلا : « ان فلورنس نايتنجيل هى التى أفسدت الحروب فأى جدوى وراء تدليل الجنود وتضميد جراحهم وترطيب جباههم المحمومة ؟ ليست هذه حربا ، فليتركوهم يموتون حيث يسقطون ، فقد ذهبوا الى هناك لذلك » . . .

فقالت مدن وهى ترشقه بنظرة ناعسة : « ما أسهل الكلام » فتضرج وجهه وتقوست كتفيه وهو يجيئها : « ماذا يجول بذهنك ؟ قد علمت انه لولا رثتي وما بها . . . »

فقالت مدن : « أنت أشد حساسة مما ينبغى ، فأنا لم أقصد شيئا . »

وكان بيل يرغبى ويزيد ، ماضيا سيجاره الذى استهلك نصفه بالتدخين ، وقد قف شعر رأسه كالفرشاة ورفرت عيناه الدعجاوان بوميض الغضب كأنهما عينا وعل ، وحدثت ميراندا نفسها أنه لا يمكن وان عاش قرنا كاملا أن يبدو أسن ممن فى الرابعة عشرة من عمرهم ، ولكنه لن يعمر قرنا اذا استمر على هذه الوتيرة ، فقد كان يسلك سلوك محررى الشؤون المالية فى الصور المتحركة بحذافيه ، حتى فى مضغ السيجار بأسنانه . فهل هو الذى ينسج على منوال الافلام أم أن كتاب السيناريو قد اتخذوا بيل نموذجا كاملا لهم ؟

وصاح بيل يقول لتشاك : « واذا عاد الى هنا فخذ الى الزقاق واخنقه بيديك ! » .

فقال تشاك : « اطمئن ، فانه عائد » .

فقال بيل فى لين وقد اتجه فكره فعلا وجهة أخرى : « اذن تخنقه »

وذهبت مدن الى مكتبها ، أما تشاك فظل جالسا ينتظر فى

دمائة أن تأخذه ميراندا لمشاهدة الملهاة الجديدة ، فان لها تذكرتين باستمرار في كل مسرح، وتعودت أن تدعو أحد المخبرين للذهاب معها يوم الاثنين . وتشاك محرر رياضي متمكن من حرفته ، ولكنه كان قد قال لميراندا أنه لا يكثر للرياضة ، لولا أنها تكفل له المكث في العراء وتمده بما يشترى به الحمر لابييه ، ولكنه يفضل الملاهى ولا يدري لماذا تنظر النساء دائما بذلك الباب .

وسألته ميراندا : « من الذى يريد بيل أن يخنق اليوم ؟ »

فقال تشاك : « انه الراقص المحترف الذى سلقته بلسانك فى عدد اليوم ، فقد حضر فى ساعة مبكرة للسؤال عن الشخص الذى يحرق باب الملاهى . وأقسم أن يأخذ ذلك الكاتب الغرالى آخر الزقاق حيث يهشم أنفه » .

فقالت ميراندا : « أتمنى أن يكون قد غادر المدينة » .

فوقف تشاك وراح يسوى صدره البنى اللون المتموج ، ثم ألقى نظرة على حلتيه وحذائه اللامع ، زاجيا أن تكون هذه المظاهر قد أفلحت فى ستر حقيقته ، تلك الحقيقة التى تتمثل فى سوء حال رثته وعدم اكترائه بالرياضة ، ثم قال : « لقد ابتعد الآن كثيرا عنا ، فلا تقلقى . ولنستعد للذهاب ، فقد تأخرت كما هى عادتك » .

واذ وقفت ميراندا أوشكت أن تطأ قدم رجل قصير أسمر اللون يرتدى فوق رأسه قبعة من طراز دربى . وربما كان مليح الشكل ذات يوم ، أما الآن ففمه غائر لسقوط أسنانه الجانبية ، وكذلك أقلت عيناها بجفونهما الحمراء عما كانتا تشغلان به يوما ما من الدلال والغزل . وفوق هامته خصلة بنية اللون هزيلة من شعر مموه بالبريانتين ، يتلوى طرفها حول حافة القبعة .

ولم يحرك قدميه ، بل وقف كالمزروع فى شئ من المقاومة الذاتية الجامدة ، وسأل ميراندا : « هل أنت الناقد الفنى المزعوم فى هذه الوريقة الصفراء ؟ »

فقالت ميراندا : « أخشى أن أكون أنا » .

فقال الرجل القصير : « اذن أطلب منك دقيقة واحدة من وقتك الثمين » . وبرزت شفته السفلى ، ثم دس يديه المرتجفتين فى جيوب

صداره واستطرد : « لاننى أكره أن أدعك تنجين بما كتبت » .
وأخرج مجموعة من قصاصات الصحف يضمها مشبك ، وقال
وهو يقدمها اليها : « أنظري فى هذه القصاصات ، ثم اسمحى لى
أن أسألك : هل تظنين أننى أقف مكتوف اليدين أمام هجمات ناقد
ريفي . أنظري ، هذه صحف بفلو ، وهذه شيكاغو ، وهذه
سانت لويس ، وهذه فيلادلفيا ، وهذه فريسكو ، فضلا عن
نيويورك . وكلها صحف هى خير ما تتداوله الايدى ، وقد اعترف
الجميع بأن داني ديكرسون يتقن فنه . فهل لاتظنين ذلك أنت ؟
هذا ما أريد أن أسألك عنه » .

فقالت ميراندا بأبرد ما تستطيع : « كلا ! ولا وقت عندي
للمناقشة فى هذا الموضوع » .

فقال الرجل القصير مقتربا منها ، وارتعد صوته كمن يغالب
أعصابه منذ مدة طويلة ، وقال : « وما الذى لا يعجبك منى ؟
خبرينى »

فقالت ميراندا : « لا ينبغي أن تكثرت لما اكتب ، فأى أهمية
لرأبى ؟ »

فقال الرجل القصير : « ليس رأيك هو الذى يعيننى .
ولكن هذه الاشياء تتناقل . ووكلاء العقود فى الشرق لا يعرفون
شيئا عما يجرى هنا . فاذا سلطنا النقاد فى بلدان الريف
ظنوا أن لذلك من الاهمية قدرا لهجمات النقاد فى شيكاغو
مثلا . فهم لا يدركون الفرق ، ولا يعلمون أنه كلما ارتفعت
طبقة الممثل زاد تحامل النقاد الاجلاف عليه ، ولكنى رجل
اعتبره أعلام صناعة النقد علمافى فن الرقص ، وأريد أن أعرف
الآن ما الذى تعييبه على ؟ »

وعندئذ قال تشاك : « هيا بنا يا ميراندا فقد أوشك الستار
أن يرتفع » . فأعادت ميراندا القصاصات الى الرجل ، وكان
معظمها يرجع تاريخه الى عشرينين ، وحاولت أن تمر بجواره
الى الباب ، فأعترض طريقها ثم قال بهمة فاتره : « لو أنك كنت
رجلا لأطرت رأسك » . فنهض تشاك عندئذ منتصبا ثم أخرج
يديه من جيوبه وقال : « أما وقد أنشدت أغنيتك وأديت رقصتك

فخير لك أن تنصرف • وأخرج فوراً قبل أن أقذف بك من أعلى
السلام » •

فعبث الرجل القصير برباط عنقه الأزرق المرقش بنقط
مستديرة حمراء ، وقد مسه البلى عند عقدته ، وجذبه فأرخاه
ثم قال كأنه يلقي محفوظة ، وقد اغرورقت عيناه الحمراوان
المتورمتان بالدمع : « تعال معي الى الزقاق »

فقال له تشاك : « أخرس » ، ثم تبع ميراندا التى كانت تهبط
السلم جريا ، فأدركها على الطوار ، فقالت : « ما أكثر ضروب
المنغصات فى الحياة فى الوقت الحاضر ، وكم أتمنى أن أجلس
عند هذا المنعطف يا تشاك وأموت ، حتى لا أرى أحدا ••• كم
أتمنى أن أفقد الذاكرة وأنسى اسمى ••• كم أتمنى ••• »

فقال تشاك : « تجلدى يا ميراندا • فليس هذا وقت التذاعى •
وانسى هذا المخلوق ، فأمثاله تسعة وتسعون فى المائة من أهل
صناعة الملاحى ، ولكنك لاتحسنين التصرف فيما أرى فتجربين على
نفسك المتاعب • فكل ما عليك ألا تكتبى الا عن الممثلين الاول ،
أما المشتركون فى الاداء فلا تشيرى اليهم • واذكرى دائما
أن ريبينسكى قد احتكر الملاحى فى هذا البلد ، فتحرى رضاه
يرضى عنك قسم الاعلانات فى الجريدة ، واذا رضوا عنك أتتك
العلامة منقادة • وهذا هو سر الاسرار فى الموضوع يا بنيتى
الحمقاء • أفلا تعقلين ؟ »

فقالت ميراندا كاليائسة : « أرانى لأعقل الا الأخطاء »

فقال تشاك بمرح : « أنت كذلك فعلا • بل أنت خير من يفعل
هذا فيمن رأيت ، والآن ألا تشعرين بتحسنى ؟ »

قال تشاك : « ما أسوأ هذه المسرحية التى دعوتنى لمشاهدتها ،
وماذا أنت صانعة الآن بصدها؟ ولو كنت أنا الذى سأكتب عنها
لقلت ••• »

فقالت ميراندا : فلتكتب أنت عنها هذه المرة • فانى موطنه
نفسى على ترك هذا العمل على كل حال • ولكن لاتخبر أحدا فى
الوقت الحاضر »

فقال تشاك : أجادة أنت ؟ لقد قضيت حياتي كلها متطلعا الى يوم
أغدو فيه ناقدًا فنيًا مزعومًا في وريقة صفراء • وهذه أول فرصة
لي •

فقالت ميراندا : « انتهزها اذن ، فقد تكون فرصتك الاخيرة • »
وقالت في نفسها انها في مفتتح أمر هو بداية النهاية بوجه من
الوجوه ، فلا بد أن يحدث لها شيء فظيع ، ولا حاجة بها الى « أكل
العيش » حيث تجمع أن تذهب ، فلتوص بذلك لتشاك ، فان له
والدا جليلا يشتري له الحمر ، فليتهم يعطونه هذه الوظيفة • •
• • أي آدم ، أتمنى ان أراك مرة أخرى قبل أن يصرعني ذلك الداء
الذي يثقل كاهلي ولا أدري ماهو ؟

ثم وجهت الكلام بصوت مسموع الى تشاك قائلة ، كأنما تصل
حديثا كان بينهما من قبل « ليت الحرب وضعت أوزارها ، بل ليتها
لم تقع أصلا ! »

وأخرج تشاك كراسته وقلمه وانطلق يكتب تعليقه على الرواية ،
وكان مقالته ميراندا لاغبار عليه ، ولكن كيف تراه قد وقع لديه ؟
انه لم يزد على أن قال وهو منهمك في الكتابة : « لا يعنيني كيف
بدأت ولا كيف تنتهي ، فلست من أهلها » وكان كل المرفوضين من
الشبان يقولون قوله هذا ، فكلهم كان راغبا في تلك الحرب ، ولكنهم
حرموا منها • ولعل منهم من كان شديد الشوق الى خوضها ، وكانوا
جميعا ينظرون شزرا الى النساء اللواتي يتحدثن معهم في هذا
الموضوع ، فتنبئ نظرهم عن حنق مكبوت لسان حاله يقول : « لا ترميني
بالجن أيتها الانثى المتعطشة للدماء ، فقد عرضت لحمي على
الغربان فعزفت عنه ، وشر ما في هذه الحرب أن المتخلفين في عقر
ديارهم لا يجدون من يتحدثون اليه ، وان لجنة المجهود الحربى
حرية أن تظفر بك اذا لم تلزم جانب الحذر ، فالحزب هو الذى
سيكسب الحرب ، والعمل هو الذى سيكسب الحرب ، والسكر هو
الذى سيكسب الحرب ، وبذور الخوخ هى التى ستكسب الحرب !
هراء ! بل ليس هراء ، فثمت نوع جديد من المتفجرات الشديدة
القيمة يستخرج من نوى الخوخ ، ولهذا تبادر ربات البيوت بمبتهجات
طول موسم عمل الربى حاملات سلالهن الحافلة بنوى الخوخ
فيضعنها في خشوع قربانا على مذبح الوطن المقدس ، وتلك مشغلة

تشعرهن أنهن ذوات نفع ، فمن الخطر أن تترك النساء فارغات تلهو مع الرجال ، فلانماص لهن من ذلك اذا لم يشغل عقولهن التافهة شاغل عن الفساد . ولذا تذهب أسراب الفتيات ، وهن مهود الغدا الطاهرة ، وقد أحاطت بوجوههن الجادة الرائقة هالات من عصائب الصليب الاحمر ، فينصرفن الى طي الضمادات الملتوية طيات لن تصل الى أى مستشفى من مستشفيات الجبهة ، أو يغزلن الصدارات التى لن تدفىء صدر رجل من الرجال ، وبذلك تنحصر خواطرهن الحانية فى الدماء والاوراح التى يخوض الجنود غمراتها ، وفى حفلة الرقص القادمة التى ستقام لضباط سلاح الجو . فالهدوء والسكينة هما اللذان سيكسبان الحرب .

لقد قال تشاك وهو منهمك فى الكتابة : « لست من أهلها المصطلين بنارها » أجل ، ولكن آدم من أهلها وسيصلى بنارها . . .

وانزلت مضطجعة فى مقعدها ، وألقت برأسها فوق سناد الظهر المخمل المثقل بالتراب ، وأغمضت عينيها لحظة خاطفة كأنها عمر كامل ، لنواجه اليقين الجازم المروع بأنه لا غد لآدم ، ولالها . لا غد . وفتحت عينيها ثم بسطت كفيها ، وراحتهما الى أعلى ، وشخصت ببصرها اليهما كمن تلتمس صورة النسيان أو السلوان .

وقال تشاك وقد أضيئت الانوار وراح النظارة يتحدثون ويتشاورون : « انظرى ماذا كتبت ، فقد فرغت من الموضوع كله ، مع أن البطلة لم تظهر بعد على المسرح . . . فى المثلة العتيقة « ستيلا مايهيو » ، وهى دائما مجيدة ، وقد حافظت على تفوقها أربعين سنة ، وسوف تغنى الليلة مقطوعة أعرف مفتتحها ، وذلك حسبنا أن نعرفه عنها . والآن ، ألقى نظرة على هذه الكلمات ، وانظرى هل تقبلين توقيعها باسمك ؟ »

وتناولت ميراندا الصفحات فحدقت فيها تحديقا ظاهرا ، وقلبتها وهى تتمنى أن تكون قد فعلت ذلك فى أوان معقول ، ثم أعادتها اليه قائلة : « نعم يا تشاك ، سأوقعها بامضائى . ولكن لا ! يجب أن نخبر بيل أولا انك كتبتها ، لان هذه قد تكون فاتحة عملك فى هذا الباب »

فقال تشاك « لأراك قد وعيت مافيهها ، فقد قرأتها على عجل شديد . والآن أقرأها عليك . ثم راح يتلوها فى حماسة . وراحت هى تتأمل وجهه وهو يقرأ ، واذا هو وجه رائق ، فيه لون من دفعات الحياة ، وفى خطوط حاجبيه وأنفه صرامة ظاهرة ، وألفت نفسها تتسائل ، لأول مرة منذ عرفت تشاك : ماذا ياترى يدور فى رأسه ، فانه يبدو مهموما غيـرسعيد ، فهو ليس فارغا خليا كما يتظاهر .

وتكأا الناس فى الدهاليز ، وأخرجوا سجنائهم كى يشعلوها متى وصلوا الى الردهة . أما النساء بشعرهن المتموج فكن يحكمن الدثار حول قدودهن . وأما الرجال فراحوا يمدون أذقانهم كى يريحوها من أثر الياقات الصلبة . وقال تشاك :

« يحسن أن نخرج نحن أيضا » فزرت ميراندا سترتها ، ثم دخلت فى زحام الناس وهى تحدث نفسها : ماذا أعلم عنهم ؟ لاشك أن منهم كثيرين يرون رأيى ، ولكن لاسبيل لنا الى التكاشف بمكنون قنوطنا الساخط ، ومثلنا كمثل الحيوانات العجماء تنصاع صامتة للفناء . ولم ؟ وهل فى جميع هؤلاء من يؤمن بصدق ما يتبادل الناس من كلام ؟

تمطت ميراندا قلقه فوق حرف الاريكة الحيزران فى حجرة الملابس ، جالسة تنتظر أن ينقضى الوقت فتنفرد بآدم . ولكن الوقت كان ينساب بأفانين من الشذوذ تلقى فى روعها أن الثلاثين دقيقة ان هى - لاشراقها - الالحة ، وتنقل أحيانا فاذا ثلاث الدقائق من الانتظار وكأنها دهر طويل ، لانها كالمعلقة من ابهاميها قلقا وضيقا .

وأخيرا آن لها أن تتصور آدم خارجا من البيت ، ثم مقبلا فى الطريق اليها وسط ضباب يوشك أن يتكاثف مطرا بعد قليل ، وكانت قد فرغت من التفكير فيه ، اللهم الا الرغبة التى تلج عليها شوقا لرؤياه ، والا الخوف الذى يتوعددها أن سوف لاتراده من بعد .

فكل خطوة يخطونها متقاربين تباعد بينهما ، كما يبعد الجزء
بأنساب عن الشاطيء مهمابذل فى السباحة اليه من جهد . .
فهى لا تقفأ تحدث نفسها على الرغم منها : « لأريد ان أحب . ليس
آدم ، فليس فى الوقت متسع ، ولسنا متاهبين للحب . . . ومع
هذا فليس أماننا غير ذاك . . »

وها هو آدم ، أخيرا ، وقد وضع قدمه على أول درجة فى السلم ،
فأوشكت أن تعدو وهى تهبط للثائه . وتناول يديها بين يديه
وسألها : « هل أنت الآن على ما يرام ؟ هل أنت جائعة ؟ هل أنت
متعبة ؟ أبك رغبة فى الرقص بعد التمثيل ؟ »

فقالت ميراندا : « الجواب عن هذه كلها : نعم ، نعم ، نعم . . »
وكان رأسها فى خفته ريشة طائر ، فاتكأت على ذراعه . وكان
الضباب لا يزال كثيفا لم يقطر بعد مطرا . ومع ان الهواء كان
خالصا نقييا فى اندفاعه الى فمها ، الا أنها لم تجد لذلك أثرا ملحوظا
فى تيسير تنفسها . فقالت له : « أمل أن يكون التمثيل جيدا ،
أو مسليا على الأقل . ولكنى لأعدك بشئ » .

وكانت الرواية فى الواقع طويلة ، ولكن آدم وميراندا قرأ
فى مجلسهما مخلصين الى السكينة والهدوء ، وانتظرا فى جلد ختام
التمثيل . وفى اناة وجد خلع آدم عن يدها قفازها ، ثم تناول
تلك اليد فى يده ، وكأنه درج على ذلك من زمن كلما اختلفا الى المسرح ،
والتفتا مرة فالتقت أعينهما تلك المرة ، وكانت نظرة كليهما صريحة
لامواربة فيها ، وعرت ميراندا رجفة فراحت تقاوم ذات نفسها
فى اصرار كمن تغلق النوافذ والابواب وتحكم الاستار فى وجه
عاصفة تتجمع للهبوب . أما آدم فجلس يرقب التمثيلية المملة فى
تشابها ورتابتها ، وقد أشرقت عيناه ببريق ينم عن توفز ، وان
شخص وجهه فى صمت وسكينة . فلما ارتفع الستار عن الفصل
الثالث ، لم يبدأ ذلك الفصل فورا ، بل أرخيت ستارة داخلية تكاد
تغطيها الراية الامريكية ، معروضة على الانظار عرضا غير لائق لا ينم
عن اكتراث ، فقد سمرت أطرافها العليا ، وجمعت من وسطها بمسما

آخر ، وتهدل سائرها مثقلا بالتراب . ووقف أمام هذه الراية داعية
البلدة لجمع التبرعات للمعونة العسكرية ، ولكنه كان في هذا
المقام يقوم بمهمة بيع « سندات الحرية » . وكان رجلا غمرا تجاوز
أوسط العمر ، وقد زرت سراويله وصداره على بطنه كالشمامة
المتكورة . . أما قمه المطبق فينم عن ضيق عقل وغرور ، وليس في
سحته وهيئته الا سطور كتبها خمسون سنة من تبدل الحواس . .
ولكنه وجد اليوم فرصة عمره الفذة كيما يبدو امرا ذا خطر ،
في موقف ذي أثر ، فراح يتدفق متشدقا بالالفاظ في غنة تمثيلية .
فقال آدم : « انه يبدو كطائر البطريق » ، وتمللا في مقعديهما
وابتسما ، ثم استردت ميراندا يدها ، فأطبق آدم يديه ، واستعدا
لتجرع ذلك الحديث المعاد الممجوج . وأرادت ميراندا نفسها على الانصات
ولكنها لم تع الا كلمات متقطعة عن « هؤلاء الهون
الاسافل » و « غابة بللو المجيدة » و « ان كلمة السر هي التضحية »
و « بلجيكا الشهيدة » و « أنباؤنا الميامين الذين يقاتلون هناك » و
« مدافع برقا الكبيرة » و « فناء الحضارة » وما الى ذلك . . .
وهمست ميراندا قائلة : « بى صداع . فلماذا بالله لا يصمت »
فأجابها هامسا : « لن يسكت . . . سا-تيك باسبيرين » . . .
وجلجل صوت الخطيب : « فى ربوع القلندر ينمو الحشخاش
بين الصليبان المتزاحمة صففا صفا . . وقال آدم هامسا :
« لقد أخذ فى المبالغات الموهودة » . . . وتدور تلك المبالغات حول
فضاعات الالمان ، فالاطفال الابرياء تحترمهم أسنة الرماح
. . أطفالى وأطفالك . . وإذا كان أطفالنا قد نجوا من ذلك المصير ،
فلندكر فى اجلال ان الفضل فى ذلك لمن لم يموتوا عبثا . .
فالحرب هى التى تضع حد للحرب . . الحرب فى سبيل
الديموقراطية والانسانية وعالم آمن الى أبد الأبد . . وكىما ندل
لنا وللعالم على ايماننا بالديموقراطية ، فلنتضامن فى
شراء سندات الحرية ، ولنستغن عن السكر وجوارب الصوف . .
وتساءلت ميراندا بينها وبين نفسها كمن تحدث ذلك الخطيب :
« أهذا كل شئ ؟ أعد ، فانى لم أفطن الى السطر الاخير . هل
ذكرت آدم ؟ اذا لم تكن قد ذكرته فكلامك لا يثير اهتمامى . ماذا

عن آدم أيها الخنزير القمى ؟ وماذا سننشد هذه المرة :
(تبراري) أم (ان الطريق طويل ٠٠ طويل) ؟ ألا دع
التمثيلية تجرى فى اعنتها حتى نفرغ منها ، فلا بد لى من كتابة
شئ عنها قبل ان امضى للرقص مع آدم ، وليس لدينا منفسح من
الوقت ٠٠٠ والفحم ، والزيت ، والحديد ، والذهب ، والاقتصاد
الدولى ، لماذا لا تحدثنا عنها جميعا ايها الكذيبان ؟

ونفض المشاهدون وأنشدوا « ان الطريق طويل ، طويل ٠٠ »
فكانوا يفرغون أفواها سوداء فى وجوه تبدو مزبدة فى
ضوء خشبة المسرح الضئيل . وكانت بعض الوجوه متغيرة
بأكية قد شقت العبرات على صفحاتها مجارى متعرجة . وقد
اشترك آدم وميراندا فى الانشاد بأعلى صوتيهما ، وتبادلا الابتسام
خلصة وعلى استحياء مرة أو مرتين !!

وفى الطريق أشعلا سيجارتين ثم سارا على مهل كعادتهما ،
وقالت ميراندا بصوت خافت : « وهذا شيخ كره آخر يلذ له
أن يرى الشبان صرعى ٠٠ كما يقبل ذكران القطط على افتراس
صغار الذكور منها ، ولا أحسب تضليلهم ينطلى عليك يا آدم ٠٠ »
وكذلك كان قد أمسى حديث الشابين عن تلك المسألة ، فقد
باتا يعتقدان أنهما استشفا كنه تلك الالعبوة الحادة ، فاستطردتا
قائلة : « وانى أكره هؤلاء الناس ، فان لهم بطونا كالقدور ، ورؤوسا
صلعاء ، وقد قعدت بهم آفات السن والبدانة والجبن عن خوض
غمرات الحرب بأنفسهم ، فأيقنوا بالنجاة ، ثم راحوا يدفعون بكم
اليها ٠٠ »

ونظر اليها آدم نظرة عجب صادق وقال : « أعن هذا الشخص
تنكلمين ؟ وماذا كان هذا الغرسيا أن يصنع لو أنهم جندوه ؟
وليس الذنب ذنبه ، فليس يسعه أن يحسن غير الكلام ٠ »

وكانت خيلاؤه بشبابه وترفعه وسماحته وازدراؤه لذلك المخلوق
العائر الجمد تكاد تطفئ من اديمها به ، وهو يخطر الى جوارها
منتصب القامة فى اطمئنان العافية ويقول : « وماذا عسى
أن تنتظري من مثله يا ميراندا ؟ »

وكانت هي تكثر من ترديد اسمه حين تكلمه ، أما هو فكان لا يتفوه باسمها الا نذرا ، فكان لوقع اسمها من بين شفثيه رجفة يسيرة مستعذبة ، سرت في جسدها فشلت لسانها عن الجواب ، فسكتت لحظة كالمتردة ثم استنت خطة جديدة للهجوم ، قالت : « يا آدم ، ان أسوأ ما في الحرب هو هذا الخوف والارتباب والفرع التي تطل عليك من عين كل من تلقاهم ، وكأنهم قد أسدلوا الاستار وأغلقوا منافذ عقولهم وقلوبهم ، وراحوا يتلصصون عليك على أهبة الانقضاض ، اذا بدرت منك أول بادرة ، أو تفوهت بأول كلمة لا يحسنون فهمها على الفور ، ان ذلك يفرزني ، ولهذا أعيش في خوف ، ولا ينبغي أن يعيش أحد في خوف ، الا أن تلك الموارد والتقنية والكذب وسائر ما تنزله الحرب بالعقل والقلب لهي شر من كل ما تنزله بالابدان » .

فقال آدم بعد برهة وفي أناة واتزان : « أجل ، صدقت ولكن ماذا تقولين اذا عاد المرء من الحرب صحيحا معافى ؟ فالعقل والقلب قد يقال عثارهما ، أما اذا وقع المحذور لذلك الهيكل البشري الضعيف ، فذلك هو سوء الطالع ولا زيادة » .

فقالت ميراندا تقلده مسخفة قوله : « طبعاً ، هو سوء الطالع ولا زيادة » فقال آدم بكل يقين : « لو لم أذهب لحجّلت من نفسي أيما خجل » .

هذا اذن هو فصل الخطاب . فمشت ميراندا وقد تشبّثت أناملها بذراعه صامئة تفكر فيه . كلا ، لم يكن آدم ينطوي على حقد أو تمرد ، فهو طاهر ، على حد تفكيرها فيه عندئذ ، مستقيم بلا عيب ولا نقصان ، كما ينبغي لكبش الفداء أن يكون !! وكان كبش الفداء يمشى الى جوارها على مهل ، وقد وفق بين خطوته الطويلة وخطوتها ، وجعلها الى داخل الطوار على النمط الامريكي القويم ، وكان يأخذ بيدها عند معاير الطرق كأنها قعيدة ، حتى لقد قالت في نفسها : « عسى ألا تعترض طريقنا حمأة طين ، والا فانه قمين أن يحملني لعبورها حملاً » . وكان ينفث الدخان من غليونه ، وتفوح منه رائحة صابون خال من العطر ، وريح جمّد نظيف

لامع وبشرة حديثة عهد بماء الاستحمام، أما تنفسه فمن أنفه ،
وأما صدره فبارز .. ورفع رأسه الى السماء التي لم تزل ملبدة
تنذر بالمطر ثم قال :ويا لها من ليلة ! أليس يسعدك أن تتعجلى الانتهاء
من مقالتك حتى ترقص ؟ »

وانتظرها وبين يديه قدح من القهوة في مطعم مجاور للمطبعة
يطلقون عليه تفكها اسم « المعلقة القذرة » . فلما عادت أخيرا وقد
غسلت وجهها ومشطت شعرها ووضعت الذرور ، رآته قبل أن
يراه ، فإذا هو جالس قريبا من النافذة الكبيرة المغيرة من أثر
الضباب ، ووجهه الى الشارع ولكنه كان مطرفا . وكان وجهه
عجيبا في نعومته ولطافته ، يبدو ذهبيا في الضوء الخافت ، بيد أنه
غارق هذه الساعة في وجوم أعمى ، فنظرته تفيض بالقلق
المض وخيبة الآمال . وقد لمحت ذلك في نظرة خاطفة ، رآته فيها
على الصورة التي سيبدو بها حين يتقدم في السن ، في تلك السن
التي لن يعمر حتى يبلغها . وورآها هو عندئذ فنهض وقد ارتد الى
طلعته بهاء اشراقها !

وجاور آدم بين مقعديهما أمام المنضدة الصغيرة التي جلسا
اليها وشريا شايًا ساخنًا ، واستمعا للفرقة الموسيقية وهي
تعزف لحن الجاز الذي مطلعته : « احزم متاعيك » فيردد حفنة من
الصبيان دون سن الاقتراع كانوا محلقين حول منضدة قريبة من
الفرقة الموسيقية : « في حقيقة قديمة ، وابتسم ابتسم ابتسم »
وكان انشادهم غير متناسق ، ولكنهم كانوا يضحكون ضحكا
عاصفا عصيبا ظاهره المرح ، ويتخالسون من تحت غطاء
المائدة قواريير بطحاء فيها سائل رائق ! ففي تلك المدينة الغريبة
التي أسسها وأنشأها المعدنون السككرون المعربدون ، ما كان
ليسمح لاحد أن يشرب الخمر جهارا ، ثم يسكبون منها في
أقداح أشريتهم الحلال ، ثم يضحون بعد ذلك متشدين « ما أبعد الشقة
الى بلد المحبوب ؟ »

فلما عزفت الموسيقى لحن « مادلون » قال آدم : « لنرقص » وكان
المكان صغيرا مبهرجا مكتظا حار الهواء بالانفاس معبقا بالدخان ،
ولكن لم يكن هناك محل خير منه . فاللوموسيقي فيه طروب ،

ثم أن الحياة على حد تفكير ميراندا في تلك اللحظة - رُغناء حيثما كانت ، فما وجه الأهمية إذن للمكان ؟ هذا ما في يد آدم ويدي ، وهو كل ما تيسر لنا ، فتلک قسمتنا .

وهمت أن تقول له : « أنفض عنك أحلامك يا آدم واصنع الى ، اني أحس ألما في صدري ورأسى وقلبي . أحس ألما حقيقية تغمرني من الرأس الى القدم . » وأنت في خطر ماحق لا قبل لي بتصوره أو التفكير فيه ، فلماذا لا ينقذ كل منا صاحبه ؟ »

ولما أحكمت ذراعها حول عاتقه أحكم ذراعه فورا حول خصرتها ، ولبثا كذلك متضامين ضما وثيقا . ولم ينطقا ، ولكنهما كانا يتسلمان مليا ابتساما متفاوتا كأنما قد أنشأا لنفسيهما لغة جديدة .

ولمحت ميراندا ، اذ وجهها قريب من كتف آدم ، فتى وفاتة أسمرى اللون في ركن القاعة ، وقد جلسا متخاصرين وتقارب رأساهما ، وشخص بصراهما الى شيء واحد ، أيا كان ذلك الشيء الذي يترنج في الفضاء أمامهما . أما يدها اليمنى فكانت مستقرة على المائدة ومن فوقها يده ، وقد لطح النحيب سحنتها . وكان يرفع يدها بين الحين والحين فيلثمها ثم يرخيها محتفظا بها في يده ، فتفيض بالدمع عيناهما . وما كانا مجردين عن الحياة ، وإنما هما قد نسيا الزمان والمكان ، أو لعله لم يكن لهما موضع يلوذان به سوى هذا المكان ، ولم ينبسا ببنت شفة . وتكرر هذا الاداء الصامت ، فما كان ينتهى الا لیبدا كرة أخرى ، فكأنه شريط سينمائي قصير قابض أخطأت يد المدير فراح تعرضه تباعا بغير تبديل أو تحوير .

وغبطتهما ميراندا . . أجل غبطت هذه النتاة ، فانها تملك البكاء ، لو ينفع البكاء ، وليس صاحبها بحاجة الى سؤالها ما بك .

وكان أمامهما قدحان من القهوة ، ولبث القدحان ردحا طويلا رقصت فيه ميراندا وآدم واستراحا نوبتين ، حتى اذا بردت القهوة لطول ما أغفلاها ، شرباها جرعة واحدة على عجل بالغ ثم اعتنقا من جديد بغير لفظ ينشد عن شفتيهما ، وبغير نظرة الا للصح اليسير . ان بينهما أمرا قد بلغ تمامه وقر بينهما على قرار . وتلك نعمى تغبطهما عليها ، فذلك أتاح لهما أن يجلسا كذلك

ساكنين جنبا الى جنب ، وقد انطبع على وجهيهما تعبير واحد ،
ولئن شخصا بصرهما الى جحيم واحد ، فهو جحيمهما معا ،
شركة فيما بينهما ، فليس لنوع هذا الجحيم خطر يذكر ،
ماداما فيه قسيمين على السواء ، وبغير افتراق .

أما أقرب الموائد الى مائدة آدم وميراندا ، فقد انكأت فوقها شابة
بمرفقها ، تقص على صاحبها الشاب قصة : « ولست أميل اليه
لغفلة فيه . فقد لبث يسألني أن أشرب شيئا ، ولبثت أجيبه اننى
لاأحتسى الخمر ، فشدد على قائلانه لابد أن يشرب ، وأنه لايليق
بى ألا أشرب معه ، لانه لايجسر على أن يشرب وحده . وعندئذ قلت
له أنت أولا لست وحدك ، فاذاكنت راغبا فى الشراب فاشرب
ولا ترغمنى على ما لاأريد . فنادى الساقى وطلب منه (جنجرايل)
وقدحين ، فشربته كعادتي صرفا ، أماهو فدس فيه شيئا من الخمر ،
وكانت خمرأ يعتز بها كثيرا ، ويزعم انه يستخرجها بنفسه من
البطاطس ، فهى على قوله طازجة من الانبيق ، وراح يستحسنى أن
أضع فى قدحى ثلاث نقط تنعشنى ولكنى أبيت قائلة له : اننى
حين أقول لا ، فانى أعنيها . . أفلا تفهم ! فتناول كأسا أخرى
وقال لى : دعى العناد يا مليحة واشربى كى ينشط بدنك للرقص
الفائر . فأضجرتنى تلك المناقشة ، وضقت بها ذرعا ، وقلت له : انه
لا حاجة بى الى خمر كى أرقص الرقص الفائر ، فانه يكفينى
الشاي كى أرقص ذلك الرقص . . فقال لى : ولماذا اذن لا تقومين
الآن فترقصين . . فقلت له . . »

وكانت تدري انها قد سلخت فى النوم وقتنا طويلا حين فوجئت ،
دون نذير من وقع الخطى أو صرير الباب ، بدخول آدم الحجرة
واضاءته النور ، وكانت تدري أنه هو ، مع أنها عشت أمام
الضوء لأول وهلة . فأشاحت بوجهها عن سبيله ، فأقبل من
فوره وجلس على حرف الفراش ، وأخذ يتكلم كمن يستأنف حديثا
جرى بينهما من قبل ، ثم كورفى يده رقعة من الورق مربعة
الشكل وألقى بها الى نار المدفأة وهو يقول : « لم تبلغك رقعتى ،
وكنت قد تركتها تحت الباب ، فقد دعيت الى المعسكر فجأة لاتلقى
شحنات من التطعيم الوقائى ، ثم احتجـزوني مدة أطول مما

احتسبت ، فتأخرت ولما اتصلت بإدارة الصحيفة تليفونيا ، قالوا
لى أنك لن تحضرى الى العمل اليوم ، فأتصلت بالآنسة هوب هنا ،
فأبأنتنى أنك ملازمة الفراش ولا تستطيعين القيام الى التليفون .
فهل أبلغتك رسالتى ؟ »

فقال ميراندا وهى وسنانة : « كلا . ولكن أحسبنى ظلمت قائمة
طول النهار ، بل تذكرت الآن ، لقد كان هاهنا طبيب بعث به بيل ،
وقد توجهت الى التليفون مرة واحدة ، قال فىها بيل انه سيبعث
بنقالة تحملنى الى المستشفى . وقد طرق الطبيب صدرى بأنامله ،
ثم كتب وصفة العلاج وتركها وانصرف واعد بالعودة ، ولكنه
لم يعد » .

فسألها آدم : « وأين هى ؟ أين وصفة العلاج ؟ »

— « لست أدرى . ولكنه تركها ، فقد رأيته بعينى » .

فدار آدم فى الحجرة يفتش عنها على المناضد ورف الموقد ، الى
أن عثر بها فقال « هاهى ذى ، وسأعود بعد دقائق معدودات ،
وينبغى أن أبحث عن صيدلية ليلية ، فالساعة الآن قد تجاوزت الواحدة
ليلا ، الى اللقاء »

— الى اللقاء . الى اللقاء .

وجعلت ميراندا ترقب الباب الذى اختفى من خلاله برهة غير
يسيرة ، ثم أغمضت عينيهما واستسلمت للتفكير : حينما لا أكون
هنا لا يسعنى ان أذكر شيئا عن هذه الحجرة التى عشت فيها زهاء
سنة ، اللهم الا أن الستائر أخف مما ينبغى ، حتى لا سبيل الى درء
ضوء النهار عن عينى ، وقد وعدتنى الآنسة هوب بستائر أسمك من
هذه ، ولكن لم يظهر لها أثر .

وعندما كانت ميراندا فى ردها للمنزلى لدى التليفون هذا الصباح ،
مرت من أمامها الآنسة هوب حاملة خوانا ، وهى مخلوقة ضئيلة حمراء
الشعر عصبية ودود ، وتنطق سماتها بأجلى بيان ان الدار لا تدر
عليها ما فيه كفاية ، وانها على شفا جرف . ورشقت مس هوب
ميراندا بنظرة فاحصة ، وقالت بحدة : « ماذا بك يا بنيتى
العزيزة ؟ »

فأجابتها ميراندا والمسماع الى أذنها : « انفلونزا فيما أظن » !

فقالَت الانسة هوب بصوت خافت : « ياللداهية » ، وترنحت
صفحة الجوان بين يديها ، ثم قالت : « عودى الى فراشك
حالا ... الان ! » فأجابتهاميراندا قائلة : « يجب أولا أن
أتحدث الى بيل » ، فأسرعت الانسة هوب فى سبيلها ولم
تعد .

أما بيل فصاح فى التليفون بارشادات ، ووعدھا بكل شيء :
بطبیب ، وممرضة ، وتقالة ، ومستشفى ، وبمرتبھا كل أسبوع
كالمتعاد ... ووعدھا بكل شيء ، بشرط أن تعود الى فراشھا حالا
فتلزمه . وتهاوت فوق الفراش ، وهى تحدث نفسها : أن بيل هو
الشخص الوحيد فىمن عرفتهم الذى يقطع شعر رأسه هو حرفيا
حين يفعل انفعالا ملموسا ... وأحسب أنه يحسن بى أن أطلب
ترجيلى الى موطنى ، فقد جرت عادة عريقة مرعية أن يلقي المرء
زرقا وفاته على الاسرة ما استطاع الى ذلك سبيلا ... كلا ! بل سأبقى
هنا ، فذلك شأنى وحدى ، ولكن لا فى هذه الحجرة . آه لو
أن لى ما أشتهى ... ليتنى الان فى الجبال الباردة التى
يكسوها الثلج ، فذلك أحب شيء الى نفسى .

وتعالت من حولھا شم الجبال صفا وراء صف ، وقد كللتها
الثلوج الدائمة ، وتوجتها من السحاب أكاليل زرقاء ، فسرت
أنفاسها المقرورة بالرعدة الى عظامها .

أواه ، بل يجب أن أنال الدفء ! واتجهت بذكرتها الى
حيث تحوم حول موضع آخر عرفته قدما وأحبته أيما حب ،
فاذا هى لا تبصر الان الاشتاتا من النخيل والارز ، ذات ظلال
قاتمة وسماء تدفىء ولا تعشى الا بصار ، لا كتلك السماء التى
طالما أعشت عينیھا دون أن تبعث الدفء فى أوصالھا . وثمة طحالب
ترابية يتماوج موجهها المتمهل فى ظلال دوحة باسقة ، ومن فوقھا
يرف الباز بجناحيه محوما فى رحاب أفق فسيح ، وعلى
الشيطان يفوح عبر أعشاب الماء ، واذا نهر قد تفجر من حيث
لا تحتسب ، هادئا مترامى الضفتين ، تنفقت فى أمواهه مياه
كل ما عرفت فى الدنيا من الانهار ، وانجابت الجدران عن
جنبتيھا فتلاشت فى صمت ، واذا سفينة عالية ذات شراع وقد
ألقت مراسيھا عن كنب ، ثم بسطت لوح موردها الذى لوحته

الشمس حتى ضرب لونه الى السواد ، فمس أدنى فراشها ،
ومن خلف السفين غابة درت وهي تبصرها للوهلة الاولى أنها
كل ما قرأت عنه أو سمعت به أو أحست أو فكرت فيه من غابات
الدنيا . فهي مكن رهيب فوار بالحياة من مكامن الموت ، ترود
فيه الصلال الرقطاء ، وتموج فيه الطيور الزاهية الالوان التي
تنظر في حرد ، وتضطرب فيه ضباغ لها وجوه حكماء من بني
البشر ، وضياغم ذوات لبد أثيث ، وقرود صخابة طويلة
أذرعها تتواشبين أوراق الشجر الحافلة بما يشع منها من ضوء
كبريتي اللون ، وما تفرزه من ريج الموت ! وللشجر وحشة
بما تغوص فيه جذوعه المتعفنة من حمأة من طين زاحفة
مستفيضة . وراحت ترقب من فوق وسادتها في غير انكار ،
فاذا بها تبصر نفسها وهي تهولها بطة ذلك اللوح الممدود الى
سطح السفينة المائل ، حيث وقفت حانية فوق السياج تلوح
بيدها في حبور لنفسها وهي مستلقية في الفراش ، ثم نشرت
السفينة أجنحتها وأقلعت صوب الغابة . وتجاوب الهواء بأصوات
صراخ وغويل ارتفعت في وقت واحد . ثم أخذت تتهاوى
وتضطلع عليها كأنها سحائب الاعاصير . ثم اجتمعت الكلمات
جميعا في كلمتين اثنتين تعلوان وتهيطان وتظنان حول رأسها
طينا مدويا ، ألا وهما : الخطر ! الخطر ! الخطر ! والحرب !
الحرب ! الحرب ! ..

وهذا باب غرفتها . رمى رجنه ادم ويده على المقبض ،
وهذه الآنسة هوب وقد قلب الفزع سحتتها فهي تصرخ بصوت
صاخب راعش : « قلت لك يجب أن يحضروا لأخذها فورا أو
أخرجها الى عرض الطريق . . . انه الوفاء يا الهي ! والبيت مكتظ
بالناس ، وينبغي أن أحسب لهم حسابا . » فقال آدم : « أعرف هذا
وسيحضرون لأخذها غدا صباحا » فصاحت : « غدا صباحا يا الهي ؟
ليتهم يأتون الآن ! » فقال آدم : « ليس لديهم في الوقت الحاضر
نقالة قارغة ، ولا أسرة ، ولم نستطع العثور على طبيب أو
ممرضة ، فالجميع مشغولون ، فعليك أن تبتعدى عن الغرفة
وسأسهر أنا عليها » فقالت الآنسة هوب بلهجة غير مستحبة :
« أجل ! أراك ستسهر عليها » ! فقال آدم بجفاء : « هذا

ما قلته ، فابتعدى » ، ثم أقفل الباب بعناية • وكان يحمل فى يده جملة لفافات غير متناسقة الشكل ، وكان وجهه جامدا جمودا عجيبا ، ومال فوقها ، وسألها بصوت خفيض جدا : « هل سمعت ؟ » فقالت ميرندا : « سمعت أكثر الحديث ، وانه لقال حسن ، أليس كذلك ؟ » ، فقال آدم : « لقد جئتك بالدواء ، يجب أن تبدئى بتناوله فى هذه اللحظة ، وأعلمى أنها لا تستطيع اجلاءك » • فقالت : « الامر اذن بلغ من السوء الغاية » ! فقال : « لقد فشا الوباء فى كل مكان ، حتى لقد أغلقت جميع المسارح أبوابها ، وكذلك معظم الحوانيت والمطاعم ، واكتظت الشوارع طول النهار بالجناثر ، وازدحمت ليلابنقالات الاسعاف ! » فقالت ميرندا وقد استشعرت فى نفسها خفة صاخبة : « ولكن لم تيسر نقالة منها لى » وجلست ثم سوت وسادتها بيدها ، ومدت ذراعها لتتناول الدثار المنزلى (الروب) واستطردت تقول له « سرنى وجودك ، فقد ألم بى كابوس فى غيبتك ! هلا أعطيتنى سيجارة ، وأشعل سيجارة أخرى لك ، وافتح جميع النوافذ ، واجلس قرب نافذة منها ، فانك تخاطر بنفسك • ألسنت تدرى هذا ؟ ولماذا المخاطرة ؟ » فقال آدم : « لآبأس • خذى دواءك » ، وقدم اليها قرصين كبيرين فى لون الكرز • فازدردتهما دفعة واحدة ، ثم تقيأتهما فوراً ، وقالت وهى آخذة فى الضحك : « عفوك ، انى جد أسفة » • فقام آدم فغسل وجهها بمنشفة مبتلة ، فى اهتمام وعناية دون أن ينطق بحرف ، ثم أعطأها شيئاً من الثلج المجروش كان فى بعض اللفافات التى جلبها ، ثم قدم اليها قرصين آخرين ، فقالت له : « هكذا كانوا يصنعون فى بيتنا ، وكانت طريقة ناجعة على الدوام » • وثقل عليها الحياء ، فغطت وجهها بيديها وأخذت تضحك على مضض • فآزاح آدم يديها عن وجهها ، ورفع ذقنها بيده قائلاً : « بقى صنفان آخران ، فما نحن الا فى البداية ، وقد أتيت بأشياء أخرى مثل عصير البرتقال والندردمة ، فقد أوصيت أن أطعمك الندردمة ، • • وقهوة فى ترمس ، ومقياس حرارة ، ويجب أن تصمدى لهذه كلها ، فتجلدى وخذى الامر هونا » • فقالت ميرندا : « فى مثل هذا الوقت بالامس كنا نرقص » ! ثم

شربت شيئا بالملقعة ، وتبعته عينها وهو يتحرك فى الغرفة
قياما بخدمتها فى شروء ، كأنه قائم فى المكان وحده ، وكان فى
الحين بعد الحين يعود اليها ، فيدس يده تحت رأسها ،
ويرفع الى فيها فنجانا أو كوبا ، فتشرب ثم تتعقبه بعينيها كرة
أخرى ، دون أن تتضح فى ذهنها صورة كاملة لما ترى .

وقالت له بعد ذلك : « يا آدم ، لقد خطر لى خاطر .. لعلمهم قد
نسوا مستشفى القديس لوقا ، فاتصل تليفونيا براهبانه
وسلهن ألا تأخذهن الكزازة بحجراتهن العتيقة النافهة .
وقل لهن أننى لا أحتاج الا الى حجرة صغيرة جدا ، معتمة نكراء ،
مدى ثلاثة أيام أو أقل ، أرجوك يا آدم أن تفعل » .

وكان يعتقد فيما يظهر أنها لاتزال صاحبة العقل ، لأنها
سمعته يتحدث فى التليفون بصوته الرصين ، ثم لم يلبث أن
عاد قائلا : « يبدو أنه كتب على فى يومى هذا أن أصطدم
بالعوانس أهل الشكاسة ، فقد قالت الراهبة : انه لو أن
عندهن حجرة لما ظفرت بها الا بأمر طبيب ، ولكن لا حجرة
لديهن على كل حال ، وكانت ظاهرة الحق » . فقالت ميراندا بصوت
أجش : « ان هذا لمسلك شائن فظ فيه خساسة وضعة . أليس
كذلك ؟ » ثم جلست بحركة كبيرة من ذراعيها ، وأخذت تهوى تهويها
عنيفا ، فصاح آدم بها أن تتماسك وبادر اليها بالاناء ، ثم سند
رأسها وغسل لها وجهها ويديها بماء الثلج ، وبسط لها رأسها
فوق الوسادة ، ثم اتجه الى النافذة فأطل منها برهة ،
عاد بعدها فجلس الى جوارها وقال : « لقد أفهمتنى أنه ليس
لديهم حجرة خالية ، ولا فراش خال ، .. بل لامهد طفل خال ،
فالامر واضح اذن ، وعلينا أن نبذل غاية جهدنا »

— أليست النقالة قادمة ؟

— ربما جاءت غدا ..

وخلع سترته فعلقها على ظهر مقعد ، وجثا أمام الموقد وراح
يرص الحطب على شكل بيوت الهنود الحمر ، وقد جعل مركزها
كورا من الورق ، ثم أشعل ذلك الحطب وزاد عليه قطعا أكبر من
الحشب ، ثم شيئا من كتل الفحم ، الى أن اندلعت النار

وصارت لقلبها ألسنة متراقصة، فقام عندئذ ونفض الغبار عن كفيه ، وكانت النار تضيء ظهره حتى لقد توهج من ضوءها شعره، فقالت ميراندا : « يا آدم أحسبك بارع الجمال » فضحك وهز رأسه كالمعاتب ، فقالت : « انها أول كلمة خطرت على بالي » ، وانكأت على مرفقيها كي يبلغها وهج النيران ، وأثنت على ما صنع ، فجلس فوق السرير ، وقرب مقعدا فوضع فوق أفريزه قدميه، وعندئذ ابتسما ابتسامتهما الأولى منذ دخل عليها فى تلك الليلة ، فقال لها : « كيف تريئك الآن ؟ » فقالت : « أحسن ، أحسن كثيرا ، فلنتحدث ، وليرو كل منا لصاحبه ما كان ينوى أن يصنع » . فقال آدم : « تكلمى أنت أولا ، فانى أريد أن أعرف عنك كل شيء » فقالت : « تظن أن حياتى حزينة ، ولعلها كانت كذلك ! ولكنى أرى بها الآن عن طيب خاطر ، فلو استرددت الحياة لهان عندى أن أسعد بأى شيء على الإطلاق . وليس هذا صوابا ، ولكن كذلك أشعر الآن . وصمتت برهة ثم قالت : « ليس هناك ما يروى على كل حال لو انها انتهت الآن . فقد سلخت كل هذا الوقت فى الاستعداد لشيء كان حريا أن يحدث من بعد حين يحين الاوان ، فليس فى غابر أيامى محصول يذكر » فقال بجذ وكأنه كبير الاهتمام بما يسأل عنه : « ولكن لابد انها كانت حياة أهلا لان تحييتها حتى الآن . ألم تكن كذلك ؟ » فأجابته فى اصرار : « ان كان هذا هو كل شيء ، فلا . » فسألها : « ألم تكونى يوما . . سعيدة ؟ » وكان ظاهرا أنه يهرب تلك الكلمة فهو يتحرز منها كما يتحرز من كلمة الحب . ويظهر أنه لم يتفوه بها قبل الآن ، فهو ليس على يقين من وقعها ومعناها . فأجابته : « لست أدري ، فقد كان حسبي ان أعيش ، ولم أفكر فى ذلك ، وانى أذكر أشياء مع هذا أحببتها وأخرى تمنيتها . » فقال آدم : « لقد كنت على وشك التخرج مهندسا كهربائيا » وتمهل لحظة ثم أتم عبارته قائلا :

« وسوف أتم دراستى على أثر عودتى » ، فقالت ميراندا : « ألسنت تحب العيش ؟ ألسنت تحب الجو واختلاف الالوان باختلاف أوقات النهار ؟ والاصوات والاصداء التى تتعالى لضجة الاطفال ، وأبواق السيارات والفرق الموسيقية الصغيرة التى تطوف الشوارع ، ورائحة الطهو الفواحة ؟ » فقال آدم : « وأحب السباحة أيضا »

فقال ميراندا « وكذلك أنا . ولكننا لم نسيح أبدامعا » وسألته على حين غرة : « أتذكر من صلواتك شيئا ؟ ألم تعلموك شيئا فى مدرسة الاحد ؟ » فاعترف آدم لها بغير مواربة : « انى لم أتعلم فيها الشئ الكثير . اللهم الا صلاة الرب » ، فقالت : « هناك أيضا : نعظمك يأم النور ، وتلك الصلاة النافعة التى مطلعها بالحقيقة نؤمن باله واحد وبالمباركة مريم العذراء وبالرسل الاطهار بطرس وبولس . . » ، فقال معلقا على ذلك : « كاثوليكية انت » ، فقالت : « ان الصلاة هى الصلاة على كل حال . وأراهن انك سنى » : فقال : « كلا . بل مشيخى ! » فقالت : « وأى صلاة أخرى تذكرها ؟ » فقال آدم « الآن أرقد لأنام . » فقالت : « نعم ، وكذلك الصلاة الاخرى التى أولها يائسوع المبارك الدمت الحنون . فهأنت ذاترى انهم لم يهملوا تربيتى الدينية ، بل انى أعرف ابتها لا مطلعها يابولوا ، أتريد أن أسمعك اياه ؟ » فقال آدم : « كلا ، أنت تمزحين » فقالت ميراندا : « لست مازحة ، بل انى أتحاشى الاستسلام للنعاس ، فبى خوف منه ، فلعلنى ان نمت لأصحو فلا تتركنى أناام يا آدم . وهمل تعرف : « يامتى ومرقص ولوقا ويوحنا باركوا فراشى فقد نويت الوسن ؟ » فقال آدم متما الترتيل : « واذا مت قبل أن أقوم ، فليرفع اليه روحى الحى القيوم . » انها لاتعجبنى لسبب ما » فقالت له : « أشعل لى سيجارة من فضلك ، ثم اذهب واجلس قرب النافذة ، فاننا ننسى على الدوام مسألة تجديد الهواء ، فلا بد لك من الهواء الطلق . » فأشعل السيجارة ووضعها بين شفتيها ، فتناولتها بين أصبعيها وأسقطتها تحت حرف الوسادة ، فعثر بها وسحقها فى الطباق الذى فوقه اناء الماء ، ودارت رأسها فى الظلام برهة ، ثم أفاق وتجلست وقد استولت عليها نوبة من الفزع ، فراححت تلقى الاغطية عنها ، وقد تصببت عرقا . فوثب آدم وقد فزع فزعا شديدا وسرعان ما كان يرفع الى فمها فنجانا من القهوة الساخنة ، فلما عاد اليها هدوؤها قالت له : « ينبغى أن تشرب شيئا من القهوة أنت أيضا » ، وجلسا متلاصقين على حرف الفراش ، وأخذا يشربان القهوة فى صمت .

وقال آدم : « يجب أن ترقدى ثانية ، فقد تم صحوك »
فقال ميراندا بصوت طبيعى : « بل هيا نغنى ، فانى أعرف أغنية قديمة فكهة ، وأذكر جانبان كلماتها ، وانى الآن على

مايرام » • ثم شرعت تنددن بصوت خفيض أجش : « راكب أغبر
فوق جواد أغبر ، مضى بحبيبي عنى » وقالت : « أتعرف هذه الاغنية؟ »
فقال آدم : « أجل ، فقد سمعت الزنوج ينشدونها فى تكساس ،
فى حقل من حقول الزيت » فقالت : « وأنا سمعتهم يغنونها فى
حقل من حقول القطن ، وهى أغنية بديعة » •

وراحا يغنيان ذلك المطلع معاً ، ثم قال آدم : « ولكنى لا أذكر
مابعد ذلك ، فقالت ميراندا : « كان ينبغي حقاً أن يكون معنا
بانجو ، ولكن يجب أن نستمر • فما هو السطر التالى ؟ » فقال
آدم : « انها أغنية طويلة تبلغ نحو أربعين بيتاً ، فان ذلك الراكب
الأغبر ذهب عنى بعيداً بأبى وأخى وأختى وبالعائلة كلها فضلاً
عن الحبيب » ! فقالت ميراندا : « ولكنه لم يذهب بعد بالمنشد
المعنى ! يترك الموت دائماً منشداً يندب الموتى » ! وأخذت تغنى
قولها : « ياموت دمع منشداً يندب الموتى » ، وانضم آدم إليها بعد
ذلك فى انشاد القرار : « راكب أغبر فوق جواد أغبر مضى بعيداً
بحبيبي عنى ! » ثم أردف « أعتقد أنه لا بأس بغنائنا ، ويحسن بنا
أن نحترف التمثيل » ! فقالت له ميراندا : « انخرط فى سلك مشروع
الاكواخ ، كى ترفه عن الأبطال العزل هناك » فقال آدم : « وسنعرّف
البانجو ، فقد كنت تواقاً على الدوام أن أعزف على البانجو »

وتنهت ميراندا عندئذ واستلقت فوق الوسادة وحدثت نفسها فى
سريرتها قائلة : « يجب أن أبوح بما عندى ، فما عدت أملك زمام
نفسى ، فليس أمامى الا هذا الألم ، وهذه الحجرة ، وآدم ...
فليس ثمة آمال متنوعة فى الحياة وآفاق متعددة ! »

لقد انقضت قبسات الذكريات ، ولمع الآمال تتداولها شدا
وجذباً ، وتجعل لها فيما بينها مقاما ... ولم تبق لها الا
هذه اللحظة ، وانها لهنيهة من لمحات الرؤيا ، فهذا وجه
آدم من وجهها قريب ، جد قريب • وعيناه شاخصتان إليها
شخوص العزم واليقين ، فكأنه شبح عما قريب لا تبقى منه
باقية ... وخرجت عن صمت الظلمة التى تكاثفت من فوقها
فهبطت بها دركا فى أثر درك ، ونادته : « يا آدم .. انى أحبك •
ولكم تمنيت أن تقولها لى أنت أيضاً » •

فاضطجع الى جوارها وجعل ذراعه تحت كتفها وضم وجهه

الاملس الى وجهها ، وزحف فمه نحو فمها ، ثم تمهل ليقول لها :
« أسمعين ما أقول ؟ ٠٠٠ ماذا تظنين أنني قائل لك كل هذا
الزمن ؟ » وتوجهت اليه بذات نفسها ، وانقشعت الظلمة عنها ،
فرأت وجهه لحظة واحدة ، ثم جذب الاغطية فوقها وحولها
وضمها اليه قائلا : « نامي الآن يا حبيبتى الحبيبة . فاذا ما نمت
ساعة أيقظتك وسقيتك قهوة ساخنة ، وغدا سنعثر بمن يعين
فى التمريض ، فلا تقلقى يا حبيبتى ، ونامى ، فانى أحبك ٠٠ »

وطفت سباحة فى الظلام بغير مقدمات ، مستغرقة ويدها فى
يده فى نوم لم يكن فى واقع الامر نوما ، وانما هو أصيل رقرق
الضياء فى غابة صغيرة خضراء ، غابة خطرة غضبي تتجاوب فيها
أصوات مكتومة غير بشرية ، تتغنى بصوت صارخ كأنه زفيف
الاسهم حين تمرق فى الفضاء ، ثم رأت آدم وقد اخترقه وابل من
هذه السهام الصافرة فأصابته فى السويداء من قلبه ، وخرجت
من ظهره فشقت طريقها بين الاوراق الملتفة ، فسقط آدم
صريعا على ظهره أمام عينيها ، ثم نهض ثانية ، فاذا به لم يجرح .
فانطلقت كوكبة أخرى من السهام عن تلك القوس غير المنظورة ،
فأصابته وخر على الارض ، واذا به مع هذا مائل أمامها لم يمسه
سوء ، وهكذا دواليك فى دور متصل من الموت والنشور ، فألقت بنفسها
أمامه غاضبة لنفسها كى تحول بين مجرى السهام وبينه ، وأخذت
تصيح صيحة الطفل المغبون فى لعبته : « كلا كلا . هذا دورى
الآن ، فلم اذا تظلى أنت على الدوام الشخص الذى يموت فى
كل مرة ؟ » فأصابتها السهام عندئذ من قلبها فى الصميم ،
وأخترقته فأصاب جسد آدم فخر ميتا ، أما هى فظلت حية !
وغنت الغابة وصفرت وصاحت ، وكل غصن فيها ، وكل ورقة ،
وكل نابتة عشب ، كانت تضج بالاتهام الفاضح . فأخذت تجرى
عندئذ ، واذا بآدم يمسكها وهى تعدو فى وسط الحجر ،
فيقول لها : « لا بد أننى نمت أيضا يا حبيبتى . ماذا جرى ؟
لقد صرخت صراخا مروعا ! »

وبعد أن أعادها حتى استقرت فى فراشها ، جلست القرفصاء
وقد جمعت ركبتيهما تحت ذقنها ، وأراخت رأسها فوق ذراعيها
وأخذت تفتش فى حذر عن الفاظ تستعين بها على بيان كانت تدرك

مبلغ خطره : « لقد كان حلما غاية في الغرابة . ولست أدري ما الذي أفزعني منه . لقد رأيت عهد غرام على الطراز العتيق ، فهو عبارة عن قلبين منحوتين في جذع شجرة وقد اخترقهما سهم واحد ، فأنت تعرف ذلك الضرب من الأشياء يا آدم . » فقال بأرق عبارة : « نعم أعرفه يا مليحة » ، وجلس الى جوارها فقبل وجنتها وجبينها في ألفة ، وكأنه ألف أن يقبلها سنوات وسنوات !! واستطردت هي : « والعجيب أن القلبين كانا حينئذ . لقد كانا أنا وأنت ، لم يكن الامر يبدو كذلك صراحة ، ولكنه كان شيئا من هذا القبيل . وكنا في غابة . . . » فقال آدم وهو ينهض فيرتدى سترته ويجمع أواني الترمس : « أجل يا حبيبتي . اني سأذهب الآن كي آتي لنا بشيء من الدندمة والقهوة الساخنة ، وسوف أكون هنا في مدى خمس دقائق . فأخلدي الى الهدوء . والان الى اللقاء بعد خمس دقائق » ، ثم رفع ذقنها في راحة يده وبحث بعينه عن عينيها قائلا : « الزمى الهدوء التام » فقالت : « اني في صحوى . الى اللقاء . »

ولكنها في الواقع لم تكن في تمام صحوها ، فان طبيبي الامتياز في المستشفى المركزي حينما جاء بعد الحاح متواصل من محرر الشؤون المالية في صحيفة الجبل الازرق ، كي يحملها في نقالة الشرطة . قرر أنه يحسن بهما النزول الى السيارة لاحضار المحفة فأيقظها صوتهما ، فهبت جالسة ثم غادرت الفراش في الحال ، ووقفت تحديق فيما حولها بعينين لامعتين ، فقال أسمر الشابين وأملؤهما قامة ، وكانا كلاهما قويي البنية ، يبدوان في ثيابهما البيض من أهل الفطنة والدراية ، وقد رشقا في صدريهما زهرة يانعة : « أنت بخير ، وكل ما هناك أني سأحملك » ثم بسط بطانية بيضا ، ولفها فيها ، فجمعت طياتها حولها وأمسكت بذراع الطبيب تسأله : « ولكن أين آدم ؟ » فوضع الطبيب يده على جبهتها الندية ، ثم هز رأسه ورشقا بنظرة ثاقبة وقال : « آدم ؟ » ، فأجابته بصوت منخفض كمن سر اليه شيئا : « نعم . لقد كان آدم هنا ، ولكنه الآن غير موجود » فقال لها بغير مبالاة : « سيعود فقد ذهب الى ناصية الشارع ليشتري سجاثر ، فلا تقلقي على آدم ، فهو أهون متاعبك ! فسألته وهي لاتزال متمتعة : « وهل سيعرف أين

يجدنى ؟ » فقال طبيب الامتياز « سنترك له مذكرة • والآن تعالى ، فقد آن أن نخرج من هنا » ، ثم رفعها الى كتفيه ، فقالت له : « أشعر أن حالتى ساءت جدا ، ولست أدرى لماذا ؟ فأجابها : « انى واثق من هذا • » وكان يخطو بحذر ، والطبيب الآخر يتقدمه كى يتحسس أول درجات السلم ، ثم قال لها : « ضعى ذراعيك حول عنقى ، ولن يضرك هذا ، وهو أعون لى • »

وسألته ميراندا حينما كان الطبيب الآخر يفتح باب الشارع ليخرجوا الى الهواء الرطب المقرور : « ما اسمك ؟ » فقال بلهجة من يداعب طفلا : « هيلدشايم » فقالت : « ألا ترى يا دكتور هيلد شايم أننا فى مأزق طريف ؟ » فقال الدكتور هيلد شايم : « نحن كذلك يقينا ! »

أما طبيب الامتياز الشاب الآخر فكان ناضرا ناشطا فى معطفه الابيض ، وان كان الذبول قد بدأ يتطرق الى لونه • وقد انحنى فوقها يتسمع تنفسها بمسمع ، ويصفر بصوت خافت أغنية : « ما أطول الطريق • • • » وكان بين الحين والحين يطرق أضلاعها باصبعيه فى رشاقة ، وهو سادر فى صفيحه • وجعلت ميراندا ترقبه برهة ، الى أن اشتبكت عيناها بعينيه اللامعتين العسلتين ، وهما لا تبعدان عن عينيها بأكثر من أربع بوصات ، فقالت له عندئذ : « لست فى غيبوبة ، فأنا أدرى ما أقول » ، ثم ماعتمت أن ريعت لسماع صوتها وقد أخذت تهذى بما لا معنى له • وكانت واثقة انه هذيان ، وان لم تتبين بالضبط ما كانت تقول ! وتلاشت لمحة الاهتمام من عين الطبيب عن كذب منها ، وانصرف الى طرق أضلاعها والتسمع بالمسمع ، هامسا بلحنه همسا ضعيفا ، فقالت له بوضوح : « ليتك تكف عن الصفيح » فكف ، واستطردت تقول : « انه لحن بشع ! »

كانت تريد أن تقول أيما شئ ، أيما شئ على الإطلاق تستديم به تعلقها الواهى بحياة بنى الانسان ، فالكلام ، أيما كلام ، وسيلة للاتصال على كل حال بينها وبين العالم الأقل •

« أرجو أن تسمح لى بمقابلة الدكتور هيلدشايم ، فانى أريد أن أقول له شيئا ذا بال ، يجب أن أقوله له الآن ! فاخفى الطبيب !

كلا ، انه لم ينصرف ، وانما تلاشى هكذا فى الهواء بغير حس ،
وظهر فى موضعه وجه الدكتور هيلدشايم ، فقالت له : « يادكتور
هيلد شايم ، أريد أن أعرف خبر آدم » ! فقال الدكتور هيلد
شايم : « أتعني ذلك الشاب ؟ لقد كان هنا وترك لك مذكرة
وانصرف ، وسوف يعود غدا وبعد غد » وكانت لهجته وهو يكلمها
غاية فى المرح والطلاقة . فقالت ميرندا بمرارة وقد أقفلت شفقتها
وعينيها عسى أن تحبس دمعها : « لست أصدقك ! فنادى الطبيب
المرضة وقال لها : « أمعك يا آنسة تانر تلك المذكرة ؟ »

فظهرت الآنسة تانر الى جوارها ، ومدت اليها يدها بمظروف
مقفل ، ثم استردته وفضت الخطاب وأعطتها اياه ، فقالت
ميرندا بعد تحديق شاق فى الصفحة التى ملأتها كلمات خطت
على عجل بمداد أسود « لا أستطيع رؤيتها ! » فقالت الآنسة
تانر : « سأقروه لك : لقد حضروا وأخذوك وأنا فى الخارج ،
وقد منعوني الآن من رؤيتك ، وربما سمحوا لى برؤيتك غدا
ولك حبيبى - آدم » .

وكان صوت الآنسة تانر وهى تتلو الخطاب حازما جامدا ،
تضغط مخارج الحروف وتفصلها ، فلما انتهت سألت
ميرندا بلطف : « والآن ، هل ترين ؟ » وكانت ميرندا كلما
سمعت كلمة نسيته ، فصاحت ليعلو صوته . فى ذلك الصمت
الذى أطبق عليها ، وهى تتلمس تلك الالفاظ المتواتبة التى كانت
تقلى منها كلما أوشكت أن تدركها : « اقرئيه مرة أخرى .
ماذا يقول ؟ » فقال الدكتور هيلدشايم بهدوء آمر : « يكفى هذا .
أين ذلك الفراش ؟ » فقالت الآنسة تانر : « ليس هناك
فراش بعد ، » وكأنها تقول : لقد فرغ ما لدينا من البرتقال ! فقال
الدكتور : هيلد شايم « لا بأس . سندبر الامر » . وجرت الآنسة
تانر الحماله الضيقة ذات الحماثل المعدنية اللامعة والعجلات المطاطية
الصغيرة الى ثنية عميقة فى الدهليز بعيدا عن طريق تلك
المعاطف البيضاء التى تسرع ذاهبة آية ، وكأنها فى دورانها
السريع قربة خض اللبن ، أو طيور الماء البيضاء التى تحوم
فوق وجهه فى صمت ، وكانت الجدران البيضاء عالية كالجبال ،
وعشرة أقدام مقرورة تتتابع فى أناة واتزان ثم تنهاوى فى سكون
مطبق فى أعماق هاوية يجللها الجليد .

ما كل هذا البياض والسكينة التي لا يعكرها الا الألم ؟

واضطجعت ميرندا رافعة بأناملها المسترخية مقدم غطاءها الابيض الناعم ، وراحت ترقب أشباحا راقصة مديدة القامة تنحرك مستأنية وراء ساتر كبير مبسوط فوق اطار ، وكان ذلك الرقص يدور بالقرب منها ، بحيث تشاهده بوضوح وتستمتع به ، وكان رقصا بديعا ألهاها بجملاله عن التساؤل عن مغزاه ! وظهر شكلان قاتمان يتبادلان الايماء والانحناء ، ثم يتراجعان خطوة وينحنيان ثانية رافعين أذرعتهما الطويلة ، باسطين أيديهما الكبيرة نحو الاشباح البيضاء الراقصة وراء الستار ، وبحركة ضافية انفرج الستار وبرز من ورائه رجلان صامتان فى ثياب بيضاء ، وقد وقفوا ورقد بينهما رجل ثالث أبيض الثوب فوق شبكة عارية لسرير حديدى أبيض ، وكان ذلك الرجل ملفوفا من الرأس الى القدم فى ثوب أبيض ، وقد عصب وجهه بطبقات من العصائب ، عقدت عقدة كبيرة كانت تهتز فوق يافوخه كأنها أذن أرنب .

ورفع الرجلان حشية كانت ملقاة بجوار الحائط ، وبسطاها برفق واحكام فوق الرجل الميت ، ثم دفعا سريره ذا العجل أمامهما وانصرفا دون أن ينبسا ببنت شفه ، وكان منظرا مذهلا سرها أن ينقضى ، وما عتمت سحابة من الضباب الابيض الشاحب أن انتشرت على آثارهم ثم سبحت أمام ناظرها ، وقد كمن فيها الرعب والاعياء وكل ما خالته فى الدنيا من وجوه هضيمة وظهور معقوفة واقدام مهيضة ، مما منى به المنكوبون من الاحياء ، فاختلطت فى تلك الغمامة آلامهم ووحشتهم ، فلئن انقشعت تلكم السحابة فلسوف تنطلق قطعان ذلك العذاب البشرى من عقالها ، فرفعت ميرندا يديها وصاحت : « ليس الآن ، لم يحن الوقت بعد » .

ولكن لات ساعة صياح ، فقد انقشعت الغمامة عن جلادين لباسهما البياض الخالص ، واتجهان نحوها يدفعان فيما بينهما بحنق بالغ وأيد مدربة رجلا مسنانشائه الشكل فى أسمال كريهة ، ولحيته الناحلة تترنج من تحت فمه المفتوح ، وهو يقوس ظهره

ويضم قدميه كي يقاوم ويؤخر المصير الذي أعداه له . وأخذ يتوسل إليهما بصوت باك ، ويبين لهما أن الجريمة التي اتهم باقترافها لا تستأهل العقاب الذي يوشك أن يناله . ولكن الصمت كان يسودهما وهما يتقدمان بذلك الشيخ الضارع الجائر بالانين ، وقد مد يديه المعروقتين في ضراعة المتسولين ، مشهدا الله أنه برىء ، ثم أوثقا ذراعيه وجراه جرا حتى انصرفا به .

ان الطريق الى الموت طريق طويل محفوف بالمكاره ، يخور الفؤاد رويدا رويدا عند كل مخافة فيه ، وتتمرد العظام في كل خطوة ويحجم العقل احجامه الصارم . . . والى أين المصير ؟ ان السدود تنهار وسدا من وراء سد ، فيسقط عن العين كل حجاب كان يحجب أرض الفاجعة ، وما يقترب في ربوعها من آثام ، فها هوذا الدكتور هيلدشايم وقد أقبل يجتاز الحلبة ، وقد غدا وجهه من تحت خوذته الالمانية حمجمة نخرة ، وعلى سنان رمحه وليد عار يتلوى ألما ، وفي يديه اناء حجري ضخمة نقشست فوقه بأحرف قوطية كلمة « سم » . ووقف عند بشر تذكر ميراندا أنه في مرعى بمزرعة أبيها ، وقد غاص ماء ذلك البئر منذ زمن ، ولكنه يزخر الآن بالماء الدافق . وفي أعماقه الصافية ألقى بالوليد ووعاء السم ، فغاص الماء وقد انتهكت حرمة في الأرض غيضا صامتا ، وصرخت ميراندا وجرت وقد رفعت ذراعيها فوق رأسها ، وجلجل صدى صوتها ثم ارتد إليها كعواء الذئب : هيلدشايم الماني ، جاسوس ، هونى ، اقتلوه . قبل أن يقتلكم .

وصححت وهى تعوى ، فسمعت ألفاظ اتهامها الدكتور هيلدشايم تندافع من فيها ، ففتحت عينيها ، وتبينت أنها راقدة فوق فراش في حجرة صغيرة بيضاء ، والدكتور هيلدشايم جالس بجوارها ، وأصبعاه الرشيقان فوق معصمها يحس نبضها ، وكان شعره الناعم مرجلا ، وفي صدره زهرة يانعة . . . وكانت النجوم تتلأأ من وراء النافذة ، وقد شخص الدكتور هيلدشايم بصره نحوها ، ولكن في غير اهتمام بلأئها . ومسماعه يتأرجح حول عنقه . وأما الآنسة تابنر فكانت واقفة عند أدنى السرير تسجل شيئا في بطاقة بيدها .

وقال الدكتور هيلدشايم : « مرحى ! لاضير فى الصياح ، ما

دمت لا تغادرين الفراش فتتواثين هنا وهناك . فأبقت عينيها مفتوحتين بمسقة كبيرة ، ورأت وجهه الممتلئ الرزين رؤية واضحة . مع أن ذهنها أخذ يختلط ويترنح مرة أخرى ، فكأنه تملص من أساسه كي يطن كالنحلة المقدوف بها في حفرة ، فقالت له : « لم أقصد هذا يادكتور هيلدشايم ، ولم يدر بخلدی قط ، فلا تلق اليه بالا . . » ثم غابت مرة أخرى ، قبل أن تتلقى الجواب .

وتعقبته زلتها الى عالم الاحلام . فأتخذت اشكالا من الرعب مربية عجزت أن تسميها ، وان اقشعر قلبها لمراها . وكان عقلها وقد تقسمته المخاوف ، فشق منه ينكر ما يتراءى لشقه الآخر ، فهي مقرة منكرا لما ترى في آن واحد ، ذلك أن ذاتها العاقلة المتسقة كانت ترقب في فتور ذاتها الاخرى تهذي ذلك الهذيان الغريب ، وبينهما هوة عارمة الظلمات ، وتأبى أن تصدق تلك الرؤى وما يتمثل فيها من ندم مستئس وقنوط .

وقالت للآنسة تانر : « اعلم أن هاتين يداك ، اعلم هذا ، ولكنى أراهما عنكبوتين ضخمين أبيضين . فلا تلمسيني . »

فقالت الآنسة تانر : « اغمضي عينيك » . فقالت ميراندا : « كلا ، لا أفعل ، فاني أرى حينئذ ما هو أشنع » ، بيد أنها أغضت عينيها على غير ارادتها ، فأطبقت عليها ظلمات عذابها الداخلي . وخطر ليراندا ، وقد بات عقلها يتلمس بين ماوعت حافظتها من الكلمات ماتصف به غير المنظور ولا المعلوم ، ان النسيان دوامة من ماء أغبر تدور حول نفسها منذ أول الازل . . ولعل الازل أبعد مدى من أنأى النجوم .

ورأت نفسها ، لمقاة فوق بسطة من الارض صغيرة ضيقة ، على شفا وهدة كانت تعلم انها ليس لها قرار ، وان لم تعقل ذلك ، وكانت تلك البسطة الضيقة ماحلمت به في طفولتها من الخطر ، فتقاعست وسعها الى جدار من الصخر الصلد أدخلت اليه من وراء كنفها ، وجعلت تحملق في الوهدة متفكرة : هذه هي ، هذه هي أخيراً ، وما أهونها ، وليست تلك الكلمات المنمقة المتحلقة من قبيل النسيان والابدية الا أستار اعقلت على لاشئ اطلاقا . فسوف لا أعلم متى تقع الواقعة ، وسوف لا أشعر ولا أتذكر ، فلم لا أنقاد الآن ؟ فاني مضیعة ولا أمل لي .

ثم قالت لنفسها : « أنظري !! ها هوذا الموت ، ها هوذا وليس فيه ما يخاف » ولكنها لم تطق الانقياد ، وبقيت على تقاعسها المستميت الى جدار الجرانيت الذى كان حلم طفولتها بالامان ، وراحت تتنفس هونا خشية أن تذهب أنفاسها بددا ، وتردد على نفسها مستيئسة : « انظري ، ولا تخافى ، فليس هذا شيئا ، ان هو الا الابدية » .

وقالت ميراندا تخاطب نفسها : « جدران الجرانيت والدوامات ، والنجوم ، كل هذه أشياء ، وليس شيء منها الموت ، ولا هو بصورة له ، فالموت هو الموت ، وليس له لدى الموتى صفات وكيوف » . ولما صمتت جعلت تغوص أيسر الغوص الى أغوار بعد أغوار من الديجور ، حتى انطرحت كالحجر الملقى فى أبعد أغوار الحياة ، على بينة من أمرها وقد عميت وصمت وخرست فلا دراية لها من بعد بأعضاء بدنها ، فقد انسلت من كل ما يعنى به البشر أنفسهم ، وان بقيت بقيد الحياة على وجه من الوجوه خفى فيه لطف واتساق : فقد انحل وسقط عنها كل مالى الذهن من معارف وما يجول فيه من ريب الشك الواعى ، كما تخلصت من روابط الدم وهوى القلب ، فلم يبق منها الا جزء من الوجود متقد متوهج لا يعرف الا ذاته ، ولا يستمد قوته من شيء وراء ذاته ، ولا يجوز عليه الانجذاب والتفكير ، لانه متقوم بدافع واحد وحيد هو الارادة العارمة فى الحياة . وقد نصب ذلك الجزء الراسخ المتقد نفسه لمقاومة الفناء منفردا ، كي يحيا ويظل له جنون عنصره بالبقاء ، ولا غاية له ولا باعث وراء ذلك الهدف الفذ . وكان ذلك البصيص الشاقب الصلد الذى لا يعرف الوميض يهيب بها أن تبقى بى ، فاني باق .

وعلى حين غرة نما ذلك البصيص ورق وامتد حتى صار اشعاعا لطيفا على صورة مروحة كبيرة ، ثم تقوس فاذا به قوس قزح ، نفذ بصر ميراندا من خلاله فاذا بها تشهد مبهورة معتقدة بصدق ماترى ، أفقا رائقا رحيبا من البحر والرمال والمرعى اللين ، ومن سماء أسقطت ما كان بها من مطر منذ حين ، فهي بادية اللاء شفافه اللازورد . فانشرح صدر ميراندا لما رأت ، وأقبلت على نفسها تقول : « مرحى . مرحى وكرامة » لاعتجبت ولكن فى هيام الواثقة

المطمئنة ، كمن صدقتها الايام ما وعدت بعد بأس من الوفاء أضمرته
طويلا ، ونهضت من مضجعتها الضيق فوق ذلك النشز المثل
على الوعدة السحيقة ، ثم انطلقت خفيفة الوثبات فاخترقت تلك
الابواب العالية ، أبواب قوس قزح الهائل الذى ارتسم فى أوج
بهائه مجدقا بزرق البحر المتوهجة هنا ، وخضرة المرعى الندية
هناك .

ودرجت الامواج هينة وانية تنواب فوق الرمال فى سكينه ،
ثم ترتد ، وتمايلت أعواد العشب أمام نسمة رخاء لم تكن تحدث
صوتا . وأقبلت صوبها جماعة حافلة من البشر تمشى الهوينى
مشى السحاب تدفعه ريح رفاة . ورأت فيهم ميراندا وقد استخفها
الفرح كل من تعرف فى الدنيا من الاحياء ، وقد أشرفت وجوههم
فتجلى كل وجه بجماله الذاتى ، ففاق كل ما تذكره له من جمال ،
فأعينهم صافية غير مشوبة كأنها سماء يوم صحو ، وليس
لاشخاصهم ظلال ، فهم جواهر خالصة تعرف كل واحد منهم
بغير حاجة الى ندائه أو استرجاع ما بينها وبينه من وشيجة .
وأحدقوا بها فى رفق فلم تسمع لأقدامهم وقعا ، ثم يمموا بطلعاتهم
الباهرة صوب اليم ، ومشى بينهم هونا كموجة بين أمواج . ثم
انداحت الدائرة المتحركة ، وتفرق الجمع حتى تمايزت الشخوص فى
غير اعتزال ، وكذلك قامت ميراندا برأسها ، لاتسأل شيئا ، ولا
تستهى شيئا ، وانما هى سكينه النشوة . فلبثت حيث كانت ،
شاخصة البصر الى سماء رائعة ذات أعوار ، للصبح فيها دولة
لاتدول .

واستلقت مستروحة وقد جعلت ذراعيها تحت رأسها فى
ذلك الدفء المعجز الذى كان يشع من البحر والسماء والمرعى على
السواء ، على قيد اللمس ، واللمس ، من تلك الحلائق الوضيئة
البسمات اللطيفة الايناس

وبغير مقدمات استشعرت ميراندا رجفة غامضة واعية ، ورأى
بهجتها ريب داخلها ، فكأنما مس أهداب سكينتها المطمئنة قر
شديد : فأحس أنها قد افتقدت شيئا أو أحدا . لقد أضاعت
شيئا غاليا أو تركته فى بلد آخر . فأى شئ هو وما عساه أن
يكون ؟

« ليس ها هنا شجر »

وأفزعها ما فطنت اليه فقالت مروعة : « لقد تركت شيئاً بغير تمام » واضطربت في مؤخرة رأسها فكرة مالبثت أن اتضحت صوتاً طرق سمعها : وأين الموتى ؟ لقد نسينا الموتى ، فأين هم ؟

وعلى الفور ، وكأنما أسدل ستار كثيف ، انتقض ذلك الأفق المشرق ، فإذا بها وحيدة في موضع صخري لم تعرفه من قبل شديد القر ، تشق طريقها في مسلك وعر ، تكسوه الثلوج الزلقة ، وهي تصيح : « لا بد لي أن أعود ! ولكن أين السبيل ؟ » وعادوها الالم قاسيا قاهرا يجري في عروقها كأنه الحمى ، وفغمت خياشيمها عفونة التن ، وغثت نفسها بفوائح القيق والصديد ، ففتحت عينيها لترى ضوءاً حائلاً من وراء نسيج أبيض غليظ كان يغطي وجهها ، فعلمت أن رائحة الموت صادرة عن بدنها ، فجاهدت لترفع يدها ، فانجاب الغطاء وبصرت بالآنسة تانر تملأ محققاً بيدها الدربة الصناع ، وسمعت الدكتور هيلد شايم يقول : « اخالها ستجدي ، فاحقنيها مرة أخرى » فقبضت الآنسة تانر على ذراع ميراندا قريباً من الكتف ، وإذا بذلك التيار الفظيع الوجيع يتدفق كاللهب في عروقها مرة أخرى ، فجاهدت كي تصرخ قائلة : « دعوني . أطلقوني » . ولكنها لم تسمع الا أصواتاً لا اتساق بينها تنم عن ألم حيواني . ورأت الطبيب والمرضة يتبادلان النظر شأن من يجمع بينهما عمل محفوف بالأسرار ، وأوماً برأسيهما في صمت ، وأومضت عيناها ببريق الزهو الصادق ، ثم ألقيا نظرة خاطفة على صنيعة يديهما ، وانصرفا لا يلويان على شيء .

وجلجلت في الفضاء زنات التواقيس على غير هدى ، متنافرة متزاحمة في أجواز الفضاء ، واختلطت في الجو أصوات أبواق وزمور بصيحات آلام البشر ، وشق الظلام من وراء زجاج نافذتها ضوء كبريتي اللون ، فصحت ميراندا من نعاس لم تذكره الأحلام ، وسألت وهي لا تنتظر جواباً : « ما الذي جرى ؟ » فقد كثرت في الدهليز جلبة الاصوات ووقع الاقدام ، واستمرت الضجة البعيدة صاخبة عاتية كأنها جوار الغوغاء في يوم ثورة . فأضىء النور وأجابتها الآنسة تانر بصوت مخملى الملمس : « أسمعين ؟

انهم يحتفلون ، يحتفلون بالهدنة ، فقد وضعت الحرب أوزارها
أيتها العزيزة « . وكانت يداها ترتجفان وهى تحرك ملعقة فى
فنجان ، ثم تمهلّت وأصغت ، ثم مدت الفنجان نحو ميراندا . ومن
غير العجائز العليلات فى أقصى البهو ارتفعت أصوات متناثرة
متداعية بنشيد « يا وطنى .. »

أرض الهناء ؟ .. بل أرض الشقاء أرض هذه الدنيا الجافية ،
فصوت السرور فيها صرخة ألم ، فهاهن هاتيك العجائز الفانيات
المتحشرجات القابعات فى انتظار أقداح الكاكاو التى تقدم لهن كل
مساء ، وقد صحن منشدات : « يا أرض الهناء ، ما أحلاك يا أرض
الحرية » .

وما لبثت السنة النواقيس المعدنية وضربات مطارقها القوية
أن طغت على أصواتهن النكراء ، فرحن من بعد ذلك يتصايحن
متسائلات : « أرايت ؟ أنظرى ! »

وزمت الآنسة تانر شفيتها ، وقد اغرورقت عينها ، وقالت :
« انتهت الحرب » . فقالت ميراندا : « نشدتك الله أن تفتحي
النافذة ، فانى أتتسم ها هنا ريح الموت » .

ألا ليت ضوء النهار الحق ينبثق كعهدي به فى هذه الدنيا من قبل ،
فلست أبصر دواما الا قيس الغسق أو السحر ، بشيرا بنهار وما
صدقت البشرى . فماذا دهي الشمس ؟ لعمري ان هذا أطول
ليل وأوحشه ، وما أراه يؤذن بانقضاء يطلع فى أعقابها النهار ،
ليت شعري هل أرى النور مرة أخرى ؟



كان حسبها من اكتئاب وهى جالسة فى مقعد مستطيل قرب
النافذة أن تسرح الطرف فى شمس حائلة الضياء ، تشرق فوق أديم من
الثلج ، من سماء استنزفت زرقتها ، واستخبرت بعد ذلك ميراندا
مرآتها : « أهذا وجهي ؟ » ثم تحولت تسأل الآنسة تانر ، وقد رفعت
يديها لتربها تلك الصفرة التى كأنها ذوب شموع تترقرق بين
أصابعها المطوية : « أهذه يداي أنا ؟ »

ان البدن لوحش غريب الاطوار ، فما يصلح للمقام فيه . وكيف
يسع المرء أن يخلد اليه آمنا مطمئنا ؟ وهل ترانى مستطيلة
يوما أن آلفه ؟

ذلك ما ساءلت ميراندا نفسها عنه ، فوجوه البشر من حولها تبدو كالحة ذاوية ، فلا ضياء يشع من أديمها وعينيها ، كعدها بها .
وأما الجدران البيضاء التي كانت تعدها في حجرتها فقد انقلبت رمادية ملطخة .

وكانت ميراندا تقضى وقتها متنفسة في بطن ، مستغرقة في النوم ، ثم مستيقظة كرة أخرى لتحس وقع الماء على بدننها ، ولتاكل أو لتتحدث حديثا مجددا الى الدكتور هيلد شايم والآنسة تانر .
وكانت في كل ذلك تنظر الى ما يحيط بها عن عرض وفي جفوة ، نظر الغريب يضيق صدره بأرض غريبة لا يفقه لسان أهلها وما له في تعلمه أرب ، فلا هو يروض نفسه على المقام بها ، ولا هو يجد الى براحها سبيلا .

وعند مشرق الصبح من كل يوم تتنفس الآنسة تانر الصعداء وهي تنبئها قائلة : « طلع النهار » ، فقد ظهرت على الممرضة في مدى ذلك الشهر الاخير علائم الكبر والاعياء فلزمتها .

ثم تشير لميراندا الى ذلك المشهد المملول بما تترأى فيه من شجرات دائمة الخضرة وثلوج متراكمة ، وهي تغمغم : « صباح جديد أيتها العزيزة » ثم تروح وتجيء ولثوبها المنشى وسوسة ، وقد علت وجهها المساحيق في غير اقتصاد ، وكانت روحها كخالص الفولاذ لا تعرف الانكسار ولا تعترف بالهزيمة وهي تقول لها : « انظري أيتها العزيزة أى صباح رائع كأنه البلور » . ذلك انها كانت تعطف على هذا الحطام المائل أمامها ، على ذلك المخلوق البشرى الصموت الكنود الذي وفقت هي ، كورنيليا تانر ، الممرضة البارة ، في انتزاعه بيديها من بين براثن الموت ، وكانت الآنسة تانر تقول للمرضات الاخريات : « ما زال التمريض تسعة أعشار العلاج ، فضعن هذا نصب أعينكن » . وحتى ضوء الشمس كان تذكرة دواء أعدتها الآنسة تانر خصيصا لابلال ميراندا ، تلك المريضة التي نفخ الاطباء أديمهم منها ، وهامى الآن تنهض دليلا ملموسا على صواب رأى الآنسة تانر . فكانت وهي تقول لها : « انظري الى ضوء الشمس الآن » كأنها تقول لها : « لقد أمرت لك بها يا عزيزتى ، فهيا اجلسي وتناوليهما » فتجيب ميراندا حينئذ : « ما أجملها » وتتحه نحوها لتتنظر ، شاكرة للآنسة تانر رقتها ، وكرمها ، ولاسيما بصدد

الجو : « لقد كنت دائما أحب ضوء الشمس » . ثم تقول فيما بينها وبين نفسها : وربما أحببتها لو رأيتها . ولكن الواقع انها لم تكن تستطيع أن تراها . فليس ثمة نور ، ولعله لا يكون هناك نور بعد ، بالقياس الى ما ينبغي القياس اليه من النور الذي أبصرته على شاطئ ذلك البحر الازرق الممتد في كنف فردوسها . لقد كان ذلك الفردوس رؤى طفلة تحلم بمرتفع سماوى الروعة ، ومسرحا للروح يتنزل على الجسد المضى في هدأة النوم ، ولكنني بصرت به وأنا لأعلم أنه حلم حالم .

وتغمض ميراندا عينيها ، وتلبث برهة تستعيد بالتذكار تلك النسوة التي كانت عوضا جميلا عن كل ماتجشمته في الرحلة اليها من مشاق . ثم تفتح عينيها فتجد دلديها لواعج الالم من ذلك العالم الكالح الذي قضى عليها أن تحيا فيه ، وكأن أنواره وقد غشيت في كل موضع بموت العنكبوت ، فاذا كل وضئ وقد اكتنفته عتمة ، وكل قسيم وقد اختلط وضوى ، فكل مافى ذلك العالم من شيء وخلق خاو بلامعنى . آه للاشلاء والدمن البوالى ، زين لها أن بها حياة !

حتى اذا سجا الليل ، بعد طويل عناء اضطجاعها في مقعدها . ثقل عليها الحزن على فقدان مانعته بلحمة وجيزة ، فتنطوى في رقدتها وتنوح نواحا صامتا وفي غير احتجاز ، حسرة على نفسها ومفقود بهجتها . فلم يكن ثمة مهرب لها : فالدكتور هيلد شايم ، والآنسة تانر ، والممرضات القائمات على شئون التغذية ، والكيمائى ، والجراح ، وجهاز المستشفى الدقيق بأكمله ، وماتواضع عليه المجتمع والعرف الانسانى ، كل هؤلاء ائتمروا على ماوهن من عظمها وذاب من لحمها كى تستوى على قدميها ويستقيم ذهنها بعد اضطراب وخلل ، فتم لهم ما أرادوه لها من رجعة الى الطريق الذى سوف يسلمها الى الموت ككرة أخرى .

وجاء لزيارتها تشاكرون سيفال ومارى تاو نزنند ، وحملتا اليها حزمة من الرسائل التى حفظاها لها وسلة من الازهار الصغيرة الرقيقة التى تستنبت شتاء تحت ظروف خاصة تكفل لها الدفء ، فكانت فيها زنبقات من زنابق الوادى وزهور البسلة وأوراق السرخس ، ومن فوق هذا النوربدا وجهاهما صورتين ناطقتين للمرح والهزال .

وقالت ماري : « لقد خضت معركة حامية . أليس كذلك ؟ »
وقال تشاك : « لقد كتبت لك النجاة . أليس كذلك ؟ » . وبعد
برهة صمت في غير ماقرار قال لها ان الجميع متشوقون لرؤيتها
ثانية جالسة الى مكتبها ، ثم قال تشاك : « لقد أعادوني بالفعل الى
باب الرياضة باميراندا »

واستغرقت ميراندا عشر دقائق تتحدث اليهما باسمه عن مبلغ
سرورها وابتهاجها اذ ألقت نفسها على قيد الحياة . فانها لم تجد طائلا
وراء كشف النقاب عن المؤامرة أو العبث بشجاعة الحياة ، والناس
أجمعون قد اتفق رأيهم على امتداح الحياة والتعلق بها ، فمابقي من
يجادل في ذلك ، وكل من يهمل بانكاره فقد ضل وحق عليه النبذ
والاهدار . ثم قالت لهما أخيرا : « سأعود اليكم في أقرب وقت .
فقد تم لي الشفاء أو كاد »

وكانت رسائلها كومة كبيرة ، فربعضها في حجرها والبعض الآخر
الى جوارها ، فكانت بين الحين والحين تقلب احداها فتتصفح الخط
وتعرف للفور بعض أصحابه ، أو تنظر في طوابع البريد المطموسة
وفي الاختام ثم تلقيها من يدها ، فلبثت الرسائل فوق المائدة التي
الى جوارها يومين أو ثلاثة ، وهي عازفة عنها « انها ستضمن جميعها
ذلك الحديث المعاد ، ما أطيب الحياة ، وكم يجبوني ، وما أشد
سرورهم بنجاتي . وبماذا عساى ان أجيبهم ؟ » ثم يقشع قلبها
القاتر الجافى قشعريرة اليأس من ذات نفسه ، لان ذلك القلب كان
عهده بنفسه من قبل رقيقا حانيا مفتحا للحب .

ورأى الدكتور هيلدشايم ذلك فقال : « ماهذا ؟ ألم تقض كل
هذه الرسائل بعد ؟ » فقالت الانسة تاتر : « اقرئى رسائلك
يا عزيزتى سأفوضها لك » ، ثم وقفت بجانب السرير وراحت
تفحصها بمقشط فضا أنيقا . وأخرجت ميراندا ، فراحت تقلب
الرسائل لتتخير منها ، الى أن وجدت خطابا هزيلا مكتوبا بخط لاعهد
لها به ، فقالت الانسة تاتر : « كلا ، ليس هكذا ، بل خذها
حيثما اتفق . وسأقدمها لك واحدة واحدة » ثم جلست عازمة على
تقديم ذلك العون حتى منتهاه .

وكانت الرسائل كلها تضرب على نغمة واحدة : مشيدة بحلاوة النجاة وانتصار الحياة والابتهاج بها . وكانت توقعات مرسلها مستفيضة كأنها انبعاثات نفحات فى البوق تجتاح الهواء . وكان فريق من هؤلاء الموقعين أحب من أحب ، وفريق آخر منهم كان فى معرفتها لهم صعبة هنية ومتاع ، وفريق ثالث قليل النفر لم يكن لهم فى نفسها يوما أثر .

أما الخطاب الهزيل الذى لم يكن لها بخط صاحبه عهد ، فكان من رجل غريب عنها يجمعه وأدم معسكر واحد ، كتبه ناعيا اليها أدم الذى قضى فى مستشفى المعسكر بالانفلونزا . وكان أدم قد عهد اليه ان هو حم قضاؤه أن ينبئها نبأه عن يقين .

ان هو حم قضاؤه . أن ينبئها نبأه عن يقين ، ان هو حم قضاؤه - « صديقك ، أدم باركلي » . ذلك ما سطره هذا الغريب . لقد وقع المحذور ، وحم قضاؤه - ونظرت الى تاريخ الخطاب - منذ أكثر من شهر .

وتوجهت الى الأنسة تانر التى كانت تطوى الخطابات وتعيدها الى أغلفتها فسألتها : « لقد قضيت هنا ردحا طويلا ، أليس كذلك ؟ » فقالت الأنسة تانر : « أجل ، مدة غير يسيرة . ولكنك الآن على وشك الخروج ، بيد أنه يلزمك أن تتحرى الحذر وتتجنبى الارهاق ، وينبغى أن تترددى علينا بين الفينة والفينة كى نفحصك ، فان العقبات فى بعض الاحيان قد تكون ... »



وأمام المرأة شرعت ميراندا تكتب بعناية : « صباغ شفاء متوسط ، قارورة عطر ، أوقية واحدة من رائحة غابة الشتاء ، قفاز من الجلد الرمادى بدون معصم ، وجوربان رمادى بدون تطريز » ، فلما قرأت « مدن » ما كتبتة قالت لها : « أتعلمين أن يكون كل شئ خاليا من كل زخرف ، حتى يستحيل على العثور على طلبتك ؟ »

فَقَالَتْ مِيرَانْدَا : « اجتهدى على كل حال . فانها ألطف بغير زخارف ،
وأتبنى أيضا بعضاً توكل عليها من خشب فضى اللون لها مقبض من
الفضة » ، فبنتها « مدن » الى أنها ستكون غالية الثمن « ولا يستأهل
المشى ذلك كله » فقالت ميراندا : « معك حق » ثم كتبت فى الهامش :
« عصا لطيفة الشكل تناسب مع بقية الاشياء المشتراة » ، ثم
قالت : « اطلبى الى تشاك أن ينتقيها يامارى بحيث تكون جميلة
المنظر غير ثقيلة الوزن »

وكتبت أيضا : « حق من الكريم المرطب ، وصندوق من ذرور
المشمش » ثم سألت : « أترانى يامارى بحاجة الى شئ أضلل به
عينى ؟ » ونظرت الى وجهها فى المرأة واستطردت بعدئذ :

« فلست أرى موجبا لاستئثاره الرثاء لهذا الخطام ، ولنا عن ذلك فى
التجمل مندوحة » فقالت لها مارى تاو نرند :

« سوف لا تعرفين نفسك فى مدى أسبوع واحد ، فسألتها
ميراندا :

« أتظنين يامارى اننى يمكن أن استرد حجرتى السابقة ؟ » فقالت
مارى « ما أيسر هذا ، فقد خزنا متاعك كله لدى الآنسة هوب » ،
فعبجت ميراندا فى ذات نفسها لما يبذله الاحياء من وقت وجهد
لخدمة الموتى . ولكنها ليست الآن فى عداد الموتى ، وانما هى
بين بين : قدم فى هذا العالم وقدم فى ذاك . وعما قريب تسترد
ما قدمت من قدمها فتخلص للحياة مرة أخرى ، وعندئذ سترى النور
نورا حقا وسوف يثلج صدرها أن يبلغها افلات أحد ممن تعرف من
قبضة الموت ، ولنسوف تزور هؤلاء الناجين وتعينهم فى شأن
ملبسهم وتحديثهم عن حسن طالعهم بالنجاة ، وعن مبلغ فرحها
بوجدانهم .

واستطردت تحدث نفسها : لن تلبث مارى أن تعود بقفازى
وعصاى ، فلا بد أن أنهض الآن ، فأودع الآنسة تانر والدكتور
هيلد شايم . أما أنت يا آدم فلم يكتب عليك أن تموت مرة أخرى ،

ومع هذا فقد كنت أتمنى أن تكون ها هنا • كنت أتمنى أن تبل
وتنحو ، فلائى شىء تظن يا آدم أننى عدت الى الحياة ؟ ألكى أخدع
فيها هاتيك الخديعة ؟

واذا به مائل بجوارها ، لا تراه عين وانه لقائم • شبح هو وانه
لا أحفل بالحياة منها : ضلالة قلب سادر لا تطاق • وقد علمت أنها
وهمت ، بيد أنها تعلقت بضلالة شوقها القاهر النكراء • وقالت :
« أحبك » وارتجفت فى وقفتها وهى تستحثه على الشخص
لعينها بكل ما أوتيت من عزم الارادة ••
« لو أوتيت أن أبعثك من القبر لفعلت •• ولو أوتيت أن أرى
خيالك لآمنت •••• »

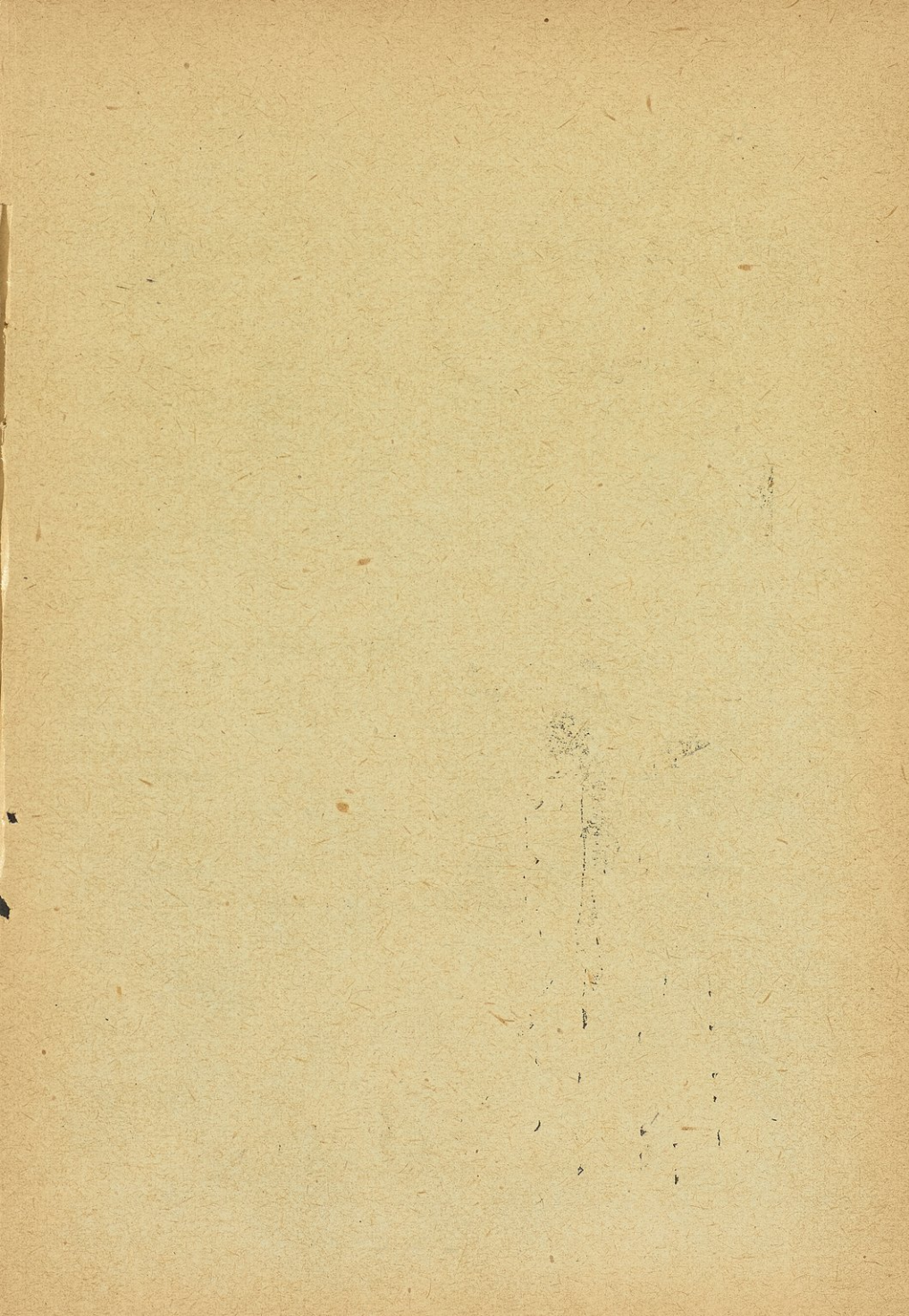
ورفعت عقيرتها وقالت : « آمنت •• فهب لى أن أراك مرة
أخرى » •••

وكانت الحجرة ساكنة خاوية ، فقد انصرفت الروح ، وقد أفرغها
نهوضها وارتفاع صوتها بالكلام ••

وثابت الى نفسها ، كمن تفيق من نومها ، وعنفت نفسها :
ما هكذا كان ينبغى لى •• ولن أعود اليها أبدا •••

وأنبأتها الانسة تانر « ان سيارة الاجرة فى انتظارك أينها
العزيزة » ••• وها هى مارى قد حضرت ، فلتأهب للمضى •

لا حرب الآن ولا وبا •• وانما هو السكون الهائم الذى يعقب
صمت المدفعية الثقيلة ، فالبيوت ساكنة مسدلة الاستار ، والشوارع
خاوية ، والنور الحائل الخائر ينبىء عن طلعة المستقبل •
وفى الوقت من بعد متسع لكل شىء •



رِسَاءُ رِقَاءِ

للكاتبة الأمريكية المعاصرة

كاترين آن بورتر

نقلت إلى العربية

الكاتبة الكبيرة

السيدة صوفي عبد الله

أبناء الفناء

القسم الاول : ١٨٨٥ - ١٩٠٢

كانت شابة بادية الاقدام ، ذات شعر قاتم متموج تفرقه من جانب الرأس ، من فوق وجهه يضاوى قليل الطول ، يتميز بحاجبين مستقيمين وفم عريض مقوس . وترتفع من عنق صدرها الاسود المحبوك الازرار ياقة مستديرة بيضاء . وللصدر سواران أبيضان مستديران يحيطان بمعصمى يدين مكسالتين تعلو مفاصلهما غمازات تنبى عن البضاضة والنعومة . وقد استرخت هاتان اليدان بين ثنايا ذيل ثوبها الفضفاض .

وهكذا جلست تلك الشابة في وضعها الابدى في صورتها الفوتوغرافية ، مستقرة داخل اطار من خشب الجوز القاتم. تزين أركانها أوراق البلوط الفضية . وقد افتر ثغرها عن ابتسامة تنم عن الاستهانة ، طالما بعثت في بنتى أخيها ماريا وميراندا شعورا بالقلق . وكثيرا ما كانت تعجبان لماذا ينظر الناظرون الكبار الى هذه الصورة فلا يلبثون أن يقولوا : « ما أجملها ! » ولماذا يعتقد كل من عرفها شخصا انها عظيمة الجمال والفتنة .

وكان في محيط الصورة منظر من المباحج الزائلة يتمثل في اناء الزهر وستائر سميكة منسدلة من المخمل . وكلاهما من طراز عفى عليه الزمن . بل ان ثوبها نفسه لم يكن جميلا في غرابته ، بل كل ما تأخذه العين أنه شديد المبانيعة لزي العصر الراهن . وتتقترن الصورة بأكملها في ذهن الفتاتين الصغيرتين بأشياء انتهت وذهبت ، كرائحة سجائر جدتهما الطيبة ، وبأثاثها الذى يفوح منه شهد النحل ، وبعطر « زهر البرتقال » الذى كانت تفضله على غيره من العطور .

لقد كانت تلك الشابة المصورة داخل الاطار هي « العمة آمي » وهي الآن مجرد شبح في اطار ، وقصة جميلة مؤثرة من أقاصيص الزمن الخالي . . . فقد كانت جميلة ، محبوبة أيما حب ، بيد انها شقيقت ، ثم قضت نحبها وهي في ميعة الشباب .

وكانت الفتاتان تنوهمان أنهما عاشتا دهرًا طويلا ، وما عمر ماريًا وميراندا في الواقع الا اثنتا عشرة سنة وثمانى سنوات . . . فليست حياتهما مابلغة عمرهما فحسب ، بل خيل اليهما أن ذكرياتهما قد بدأت قبل مولدهما بزمان طويل ، في حياة البالغين ممن يحيطون بهما ، ومعظمهم أسنوا فنيقت أعمارهم على الاربعين ، ولهم ولع خاص بتوكيد أنهم كانوا أحداثا يوما ما . . . وذلك أمر تصديقه عسير . . .

ووالد الفتاتين هو « هارى » ، شقيق العمة آمي . وكانت هي الاخت الاثيرة لديه . فكان يرمق صورتها أحيانا ويقول : « لأراها مطابقة كل المطابقة . فقد كان شعرها وكانت ابتسامتها هما رأس محاسنها ، ولم تظهرهما هذه الصورة على الاطلاق . وكانت أيضا أكثر نحولا من الصورة بكثير . فلم يكن فى الأسرة والحمد لله أحد من ذوى البدانة !

وكانت الفتاتان ، حين تسمعان أباهما يقول مثل هذا القول ، تنتابهما حيرة فى غير استهجان : ماذا عساه يعنى . فقد كانت جدتهما نحيلة كعود الثقاب ، وتترأى والدتهما التى انقضى على موتها زمن طويل وكأنها فى صورها فتيلة شمعة ! وهنالك فتيات اتضح لهما انهن حفيدات لجدتهما العجوز مثلهما ، وقد جئن لزيارتهم فى عطلة المدرسة ، يباهين بخصورهن التى لا تتجاوز الثمانى عشرة بوصة . ولكن ما قول أييهما فى عمتهم الكبرى « اليزا » التى تحشر نفسها حشرا فى الابواب المفتوحة ، فاذا جلست كانت بناء هرميا متصلا من القاعدة الى القمة ؟ وما قوله فى عمتهم الكبرى « كزيه » التى تقيم فى كنتوكى ؟ فهذا زوجها العم « جون جاكوب » قد أبى عليها أن تترك جياده العتاق بعد أن بلغت زنتها مائتين وعشرين رطلا ، قائلا فى صدد ذلك : « كلا . . . مامات فى صدرى مشاعر عهد الفروسية وتقديرها للنساء . ولكن لم يمت كذلك حسن تقديرى للامور ، دع

واجب الاحسان نحو أصدقائنا الاوفياء من العجاوات ...
ولعل أفضل الصفات هي الاحسان .. فلما قيل للعم
« جون جاكوب » ان الاحسان يوجب عليه ألا يجرح زهو سيدة
مثل زوجه بذلك التعليق على هيئتها ، قال فى خشونة : « زهو
النساء قد يزول ويرجى منه الشفاء ، أما ظهور جياى فلا ..
ولو أن زوجتى تشعر بالزهو النسائى الواجب لما صارت الى
هذه الهيئة أصلا .. »! واذا كانت للعم « كزيه » هذه الشهرة
لوزنها الثقيل . أتراها اذن ليست من الاسرة ؟ يظهر أن ذاكرة أبيهما
يعتريها شيء من الاختلال حين يفكر فيمن عرفهن فى صباه من
فتيات الاسرة .. فيزعم فى غير تحفظ أنهن كن جميعا ، وفى
سائر الاجيال بغير استثناء ، فى نحول أعواد اليراع ورشاقة الحور .

كان ذلك الولاء من أبيهما القائم فى روجه أدلة ماثلة تنقض رأيه ،
انما مصدره الشعور بالرباط العائلى ، ثم حب التغنى بمحامد
الاسرة ، وهو يشترك فى ذلك مع سائر أفرادها . فهم جميعا ذوو
ولع بالرواية ، يروون القصص كله ما بين عاطفى وشاعرى
وفكاهى ، لا يخلو من لمحات الخيال ، فهم لا يزينون الظروف الخارجية ،
وانما المهم عندهم بواعث الشعور . فقلوبهم ومخيلتهم معلقة بالماضى ،
ذلك الماضى الذى لم يكن للاعتبارات الدنيوية فيه كبير
حساب .. وانما هى قصص تدور فى الاغلب الاعم حول أفانين من
الحب أظلتها سماء شفافة الاديم ، صافية اللازورد .

والصور الشمسية ، والرسوم التى نقشتها ريشة مصورين
غير مهرة ، كانوا يقصدون بها التعليق ... ، وأثواب
الاحتفالات المطوية على أعشاب مجففة وأوراق كافور ، كانت
كلها مخبئة لآمال الفتاتين حينما تواثمان بينها وبين الصور الحية
التي خلقتها فى مخيلتها ألفاظ وذويهما النابضة بالحياة .

وكانت الجدة حين تشعر بتقلب الفصول مرتين فى كل سنة
تجلس يوما كاملا تقريبا فى حجرة المخزونات بين الحقائق
والصناديق ، فتبسط مطوى الثياب والتذكارات ، وتنشرها
فوق ملاءات على الارض من حولها .. ثم تبكى شجوها فوق بعض
تلك الاشياء .. هى هى بعينها فى كل مرة .. ثم ترمق صورا

محفوظة في علب من المخمل ، وتنشر خصلات من الشعر وأزهارا
محففة ٠٠ ويتساقط الدمع من مقلتيها في هدوء ويسر ، حتى
لكأن الدموع كل ما أبقّت عليه الأيام من متاع !

وان أخلدت الفتاتان الى الهدوء ، ولم تمساشيئا الا ما يقدم
اليهما ، اذن لهما في الجلوس بجانبها في تلك الاوقات ، أو في
المجيء والرواح ٠٠٠ اذ كان من المتفق عليه ضمنا أن الذي يبدو
عليها هو أخص ما يخصها ، فلا ينبغي أن يلحظه أحد أو يشير
اليه أحد ٠٠ وكانت الفتاتان تفحصان ماتقدمه اليهما من أشياء
تباعا ، فلا تجدان لهذه الاشياء في حد ذاتها وقعا خاصا ٠ فان
هي الا أكاليل صغيرة للرأس أو للعنق رثت من قدم ، وبعضها
مصنوع من أصداق لؤلؤية ، أو هي حزم قرمزية من ريش النعام مما
يتخذ لزينة الرأس وقد عاثت فيه العثة ، أو هي دبابيس ضخمة
قبيحة المنظر مما كانت تزدان به الصدور ، أو أساور من الذهب
والميناء الملونة ٠٠ أو أمشاط سخيفة ذات أسنان طويلة تتوجهها
حيات من اللؤلؤ الدقيق الحجم والعجائن الفرنسية التي تصنع
منها الجواهر الزائفة ٠

ولا تدري ميراندا لماذا كانت تشعر ازاء هذه النوافل بالآسى ؟
فقد أحنّنها أن تكون هذه الاشياء التي حال لونها ، وتلك القفازات
الطويلة المصفرة ، وتلك الخفاف المصنوعة من الاطلس الحائل ،
وتلك الشرائط العريضة المتكسرة من حيثما طويت ، هي كل
ما كانت تلك الصبايا الراحلات يتزين به ٠ وأين هن الآن ؟
وأين أولئك الايفاع ذوو الياقات العجيبة الشكل ؟ لقد
كان أولئك الشبان أنأى عن الواقع من تلك الفتيات ٠ بما
كانوا يرتدون من سترات ترتفع أزوارها وتعلو الى قرب العنق ،
وبما كانوا يرتدون من أربطة عنق متنفشة ، وبما في وجوههم
من شوارب مثبته بالمعاجين ، وبما فوق رؤوسهم من شعر متموج
غزير يرجلونه بعناية فوق جباههم ٠ فمن التي تأخذ هؤلاء
مأخذ الجد وهذه سماتهم ؟؟

كلا ٠ لقد استحال على مارياميراندا أن تشعر بالعطف على
هؤلاء الشبان الجالسين للالة المصورة في جمود ، وفي أزياء

عفى على طرازها الزمن • بيد أنهما استقدتا لذلك الحب الحفى
الذى يكنه الاحياء اذ يذكرون هؤلاء الموتى على هذا النحو من
الاعزاز ••• لقد كانت البقايا الواقعة تحت البصر عدما وترابا ،
يفنى كما تفنى الابدان ، وكانت الملامح المسجلة على الورق والمعدن
عدما أو كالعدم ، على أن ذكرهم الحية قد استتهوت الطفلتين ،
فكانتا تنصتان ملء الاذان ووعى الاذهان ، وتتصيدان من
هنا وهناك نتف الاخبار ، وتجمعان جهد ما يتفق لهما
أشتات الافاصيص التى كانت عندهما ضربا من مقطوعات الشعر
أو الموسيقى ••• لانها كانت تقترن فى خاطريهما بما تسمعان
أو تقرأان من شعر ، وبما تعرفان من الموسيقى ومن ملاعب التمثيل •
- خبرينا مرة أخرى كيف رحلت العمة آمى عند زواجها ،

- لقد خرجت تعدو فى البرد القارص ثم دخلت العربية والتفتت
نحونا وابتسمت عن وجه ممتقع كوجه الموتى ، وصاحت : « وداعا •
وداعا • وأبت أن ترتدى دثارها قائلة : « بل أعطوني كأسا من
الحمر » •• ولم يرها أحد منابعد ذلك على قيد الحياة أبدا ••
- ولماذا أبت أن ترتدى معطفها يا ابنة العم كورا ؟ ••

- لانها لم تكن عاشقة يا عزيزتى •••

- وهل كانت جميلة حقا أيها العم بيل ؟

- جمال الملائكة يا بنيتى •••

اننا نرى ملائكة ذوى شعر ذهبي يرقصون فى مآزر زرقاء
مزرکشة حول عرش العذراء المقدسة • ولكن ما من أحد من
هؤلاء الملائكة يشبه العمة آمى فى كثير أو قليل ، وليس لهم
أيضا شئ من سمات الحسن التى نشأتا على الإعجاب بها • فثمة
صفات لا بد منها للاعتراف بالجمال • فالجميلة يجب أولا أن
تكون طويلة القامة ، وأيا كان لون عينيها فلا مناص من أن
يكون شعرها قاتما •• وكلما احلوك لونه كان أفضل •
وينبغي أن تكون البشرة شاحبة ناعمة ، وكذلك الحفة وسرعة
الحركة من الاهمية بمكان •• فلا بد للحسنة من اتقان الرقص ،

واجادة ركوب الخيل ، وهدوء الطبع والبشاشة والطلاقة في
اتزان دائم ، ولا خلاف في ضرورة ملاحظة الاسنان واليدين ، ولكن
يأتى قبل هذا كله ذلك التاج الحقيقى من الفتنه التى تجتذب
القلوب فتأسرها ... وتلك كلها صفات مثيرة مشبته للعزائم !

فهذه ميراندا قد تسلطت عليها فى طفولتها فكرة عجيبة ، هى
أنها ستنمو يوما رغم ضالتها ونحافتها وصغر أنفها المرقش ،
وعينيها الرماديتين المرقطتين وفورات غضبها المتكررة ، وأنها
بمعجزة من المعجزات ستصبح حسناء ، هيفاء ، طويلة القامة ،
سمراء اللون ، كبنات عمها ايزابيل ، وقررت أن ترندى ثيابا
جرازة الزيول من الحرير الابيض .

أما ماريا ففطرت على التعقل منذ ولادتها ، فلم تخامرها هذه
الاهام ، بل كانت تقول لميراندا : « سوف نشب على غرار آل أمنا ،
ولا مفر لنا من ذلك . فلن نغدو جميلتين يوما .. ولن يفارقنا
ترقيش هذا الكلف أبدا ... وأما أنت فينقصك أيضا حسن
الطبع » !

وكانت ميراندا تعترف بصدق هذا الحكم القاسى وصوابه ، بيد
أنها ظلت تمنى النفس خلسة بهبوط الجمال عليها ذات يوم
فجأة ، كما يهبط الميراث فجأة على الوارثين من غير مجهود لهم !!
وظلت تعتقد ردها طويلا من الزمن أنها ستشبه عمتها آمى
فى يوم من الايام ، لا كما تمثلها الصورة ، بل كما تتمثل فى
أخلاق من عرفوها رأى العين .

وعندما برزت بنت عمها ايزابيل فى ثوب ركوبها الاسود
المحبوك ، وقد أحاط بها الشبان .. وهى ممتطية صهوة جوادها
فى رشاقة ، تسوسه فيتواثب بها فى حنكة ودراية تميزت بها
عن مجموعة الراكبين .. خفق قلب ميراندا خفقان الاعجاب والحسد
والزهو ، حتى لقد تأملت لفيض ذلك الشعور ، لولا أن هدأت
سورتها يد بعض ذوى السن من آله ، وقد استقرت على ذراعها ،
اذ يقول لها : انها تكاد تلحق آمى فى اجادة ركوب الخيل ،
أليس كذلك ؟ ولكن آمى كانت تركب على النسق الاسباني

الصرف ، وتحمل جوادها على ضروب من القفز لا يقدر عليها غيرها .

وكانت سميتها الشابة آمى تخرج للرقص ، فتمرق وسط البهو رافلة في الحز الأبيض الذى يلمع فى نور المصابيح ، كالفراشة ، وقد جعلت مرفقيها الى وراء كأنهما جناحان ، وهى تمشى مشية زمنها المثل ، فكانها تنساب على عجل انسيابا . وكانت تعتبر أمهر راقصة فى أى محفل ، فكانت ماريا تنسم ريح آمى وتصفق بيديها قائلة :

— أوه ! لا صبر لى حتى أكبر ..

ولكن ذوى السن مجمعون على أن « آمى » الاولى كانت أرشق وألبق وأرق فى رقصاتها ، فلا سبيل لآمى الصغرى الى بلوغ شأوها !

وهذه بنت عمها مولى بارنجتون التى جاوزت فترة الشباب بزمان مديد ، بل الحق أنها من جيل سابق على جيل العمة آمى ، لاتزال ملحوظة التأثير ، فالرجال الذين عرفوها العمر كله مازالوا يحيطون بها . ولا يخالج أحد الشك فى أنها ستتزوج مرة ثالثة بعد أن تأيمت بفضل الله مرتين ! ومع هذا يقول ذوو السن ، أن « آمى » كانت لهاروحها وجرأتها، ولكن فى غير استهتار وتهجم . فانه لايسع أحدا أن يصف مولى بحسن التدبير ، فهى تخضب شعرها ثم ترسل النكات حول الخضاب ! وكانت لها طريقة خاصة بها لاجتذاب الرجال ، فيحدقون بها فى ركن قضى لتسرد على أسماعهم الاقاصيص .. وكانت أما غرسوبة لابنتها القبيحة الحلقة « ايفا » التى أضحت عانسا نيفت على الاربعين ، وأما لاتزال زينة المراقص ... وعنهما تقول مولى فى غير حياء : « لقد ولدتها وأنا فى الخامسة عشرة كما تذكرون » ، ثم تثبت عينيها فى عينى صاحب لها كهل متضاب ... وكلاهما يذكر أنه كان شاهدا فى حفل قرانها الاول ، ولها يومئذ من العمر أحد وعشرون عاما .. ثم تردف قائلة :

— لقد قال الجميع اننى كنت كالطفلة حاملة دميتها

وكانت ايضا الحُجُول التي لا ذقن لها تجلس مادة شفتها العليا فوق سننها الهائلين ، فتقبع في ركن من الاركان ترقب أمها .. وقد بدأ عليها مظهر الجائع وأطل من عينيها الاعياء والكلال ... وكانت ترتدى ثياب أمها القديمة بعد أن تصلح من شأنها، وتشتغل بتدريس اللغة اللاتينية في دير الراهبات ، وتؤمن بحق المرأة في التصويت... وقد طافت بالبلدان داعية لهذا المطلب ، وحينما لا تكون امها حاضرة ، تنبسط اساريرها شيئا ما ، وترقص فتجيد ، وتهش باسمه فتفترعن أسنانها جميعا ، فكأنها نبتة جافة هبط عليها طائف رحمة من الغيث ..

وكان من عادة مولى أن تهزأ بوليدتها الشوهاء ، فتقول في قسوة :

— انه لمن حسن طالعي أن تشب ابنتي عانسا لا يسعها أن تجعل مني جدة ...

فيحمر وجه ايضا ، وكأنها قد صفعت .

ولاشك في أن ايضا كانت على قسط من السخافة بيد أن الفتاتين الصغيرتين كانتا تشعران أنها تنتمي الى عالمها اليومي الحافل بالدروس المملة التي ينبغي أن تحفظ ، والنعال الصلدة التي يجب أن تنتعل ، والثياب الثقيلة الحشنة التي لا مناص من احتمالها في قبر البرد ، والحصبة والآمال المخيبة .

أما عمتهما آمى فهي من عالم الشعر .. فهذه قصة غرام العم جبريل بها غراما طال به الامد في غير استجابة منها ، ثم موتها الباكر .. وكأنها من أقاصيص تلك الكتب العتيقة العلوية الصادقة ، من قبيل « الحياة الجديدة » لدانتى ، ومقطوعات شكسبير ، وأغنية الزفاف لسينسر ، وقصائد ادجار آلان بو التي كان يقرأها أبوهما لهما ثم يقول : « لقد كان شاعرنا الاعظم » .. فتدركان أنه يعنى بشاعرنا شاعر الولايات الجنوبية . فالعمة آمى لها وجودها الحقيقي ، مثلها في ذلك مثل مافي كتبهما الاثيرة العتيقة من تصاوير لفولباين ودورر ، تلك التصاوير التي تنبطح الفتاتان على بطنيهما الترمقاها بعين مبهورة لا يطفئ بها طائف الشك في صدق ما ترى .

وما أكثر ما كانتا تفتقدان الأعيب السرك ، والفانوس
السحري ، ولكن أباهما كان يأخذهما لمشاهدة « هاملت »
و« ترويض النمرة » و« ريتشارد الثالث » ، ورواية طويلة مؤسسية
عن حياة ماري ملكة اسكتلندة . ولقد وهمت ميراندا أن السيدة
الرائعة الحسن ذات الثوب المخمل الاسود هي ملكة اسكتلندا حقا
وصدقا . وساءها أن تعلم أن الملكة الحقيقية ماتت منذ زمن
طويل ، لافى تلك الليلة التي شهدت ميراندا فيها التمثيل .

وكانت الفتاتان تحبان المسرح . . ذلك العالم الذي يربى طول
الناس فيه على طول بني آدم ، ويهللون بمهابتهم وضوتهم
واشاراتهم ، فكأنهم آلهة تسوس أمور الكون . . ولكن كان هنا لك
دائما صوت يذكرهما بأيام سلفت كانت أهم وأروع . فقد سمعت
الجدة في صياها صوت « جيني ليند » ، وفي ظنها أن « نيلي
ميلبا » قد نالت فوق قدرها . . أما الوالد فقد رأى سارة برنار ،
وما كان لدام مودجسكا أن تقاس بها . .

وحينما حضر « بدروفسكى » ليعزف لأول مرة في مدينتهما ،
حضرت بنات العم من كافة أنحاء الولاية وانطلقن من بيت الجدّة
لسمعه . . وحرمت الصغيرتان من هذه الفرصة . . ولكنهما
شاركتا في الاهتمام بالخروج ، كما شاركتا في بهجة العودة ،
حين وقفت بنات العمومة زرافات ، وفي أيديهن أقداح القهوة
والكؤوس ، يتحدثن همسا ، وفي وجوههن وميض الهناء !
وشعرت الفتاتان بأهمية ذلك الحادث الجليل ، فوقفتا عن كتب
في ثياب النوم ترهفان السمع ، الى أن تنبه البعض لوجودهما
فأبعدتا عن محيط ذلك المجد العظيم . . ومع ذلك فقد انبرى
شيخ ممن سمعوا روبنشتين مرارا ، فأكد أن روبنشتين قد
بلغ ذروة الاداء الموسيقي ، وان بدروفسكى لا يمكن أن يقارن
به ! . . وقد سمعت الصغيرتان قولته هذه وقد رفع احدى يديه
ملوحا في الهواء كمن يدعو الى الصمت ، فتطلع الجميع اليه
منصتين في هدوء لم ينتقض ، فما من أحد منهم سمع روبنشتين ،
وهم قد سمعوا بدروفسكى منذ ساعة ، فقيم نبش الماضى ؟

وتسللت ميراندا مبتعدة وقد كرهت ذلك الشيخ ، لانها كانت
تشعر كأنها هي أيضا قد سمعت بدورفسكى .

كانت اذن فى الدنيا حياة وراء هذه الحياة ، كما أن من ورائها فى الاخرى حياة ، وقد أكدت هذه الاقاصيص والتذكارات لدى الفتاتين نبالة الشعور الانسانى و قدسية تطلع الانسان الى غير المنظور ، وأهمية الحياة والموت ، ومبلغ ما فى القلب البشرى من أغوار ، وما للمأساة من قيمة عاطفية . وهذه ايضا بنت عمهما وقد أخذت فى بعض زياراتها تغريهما بدراسة اللغة اللاتينية ، فأخبرتتهما حديث «جون بوث» وكيف قفز الى ظهر المسرح فى عباءة فضفاضة سوداء جميلة ، بعد أن قتل الرئيس لنكولن ، وصاح بلسان فصيح على الرغم من كسر ساقه فى عبارة لاتينية: «هذه دائما نهاية الطغيان» . ولم يخامر الفتاتين أدنى شك فى وقوع الامر على هذه الصورة ، وبدت لهما وجهة وجوب معرفة بعض الامثال اللاتينية ، أو على الأقل بعض نصوص الشعر الكلاسيكى ، للتمثل بها فى المناسبات الكبرى أو المواقف الحرجة .

وقد ذكرتهما ايضا بأنهما من أحد ، ولو كان من أهل ولايات الجنوب ، يمكن أن يقر فعلة جون بوث . فإنها جريمة قتل على كل حال ، وعليهما أن تذكر ذلك دواما . بيد أن ميراندا كانت قد ألقت المأسى فى بطون الكتب وفى أساطير الاسرة . فقد أقدم اثنان من أعمام أبيهما على الانتحار ، وذهب الحب بعقل جدة لها بعيدة ، فقر فى ذهنها أنه لولا وقوع ذلك القتل ، لما كان هناك مسوغ لارتداء العباءة الفضفاضة ، والوثب الى ظهر المسرح ، والصياح بعبارة لاتينية ، فكيف اذن تستهجن هذا الفعل ؟ فالقصة اذن طريفة ، وهى تعرف من ذوى قرباها الابعدين شيئا أغرم بفن بوث ، وشهده فى كثير من رواياته الكبيرة ، ولكنه لم يشهده للأسف فى لحظته الكبرى ! وأحزن هذا ميراندا . فقد كان يلذ لها كثيرا أن يكون مقتل لنكولن من تراث الاسرة .

والعم جبريل الذى أحب العمه آمى ذلك الحب اليائس ، لا يزال على قيد الحياة فى موضع ما . وان كانت ميراندا وماريا لم تريا قط ، فقد رحل بعد موتها بعيدا ، ولا زال يملك جياذ السباق يجريها فى الميادين المشهورة فى آفاق القطر ، وتلك وجهة لم تكن ميراندا ترى

فى الحياة ما يفوقها المعية ورواء . وقد تزوج مرة أخرى بعيد ترملة ،
وكتب الى الجدة يسألها أن تكون زوجته الجديدة بنتا لها فى موضع
آمى . فأجابته الجدة جوابا فاترا بقبول مقترحه ، داعية اياهما
لزيارتها . بيد أن العم جبريل لم يحضر عروسه لسبب ما . وقد
زارهما هارى فى نيو اورليانز ، فقرر أن الزوجة الثانية فتاة شقراء
جميلة الطلعة حسنة التربية ليس من شك فى صلاحها زوجا لجبريل ،
ومع هذا لم يجبر ما أصيب به قلب العم جبريل من صدم ، فهو
يكتب مرة فى كل عام عن وفاء خطابا الى بعض الاسرة ، يطويه
على مبلغ من المال ثم أكليل من الزهر يوضع على قبر آمى . ونظم
قصيدة كى تنقش على قبرها ، ثم حضر بنفسه تاركا زوجته الثانية
فى مدينة اطلانطا ليستوثق من أنها نقشت نقشا لا تقا . ولم يكن يدري
كيف نظم تلك القصيدة ، لانه لم يحاول نظم سطر واحد من الشعر
منذ فارق المدرسة . ومع هذا خطرت له تلك الابيات ، من حيث
لا يعلم ، وهو يفكر ذات يوم فى آمى . وقد رأته ماريا ميراندا ذلك
الشعر مطبوعا بحروف مذهبة فوق بطاقة نعى . اذ أرسل العم جبريل
عددا كبيرا من هذه البطاقات كى توزع فى محيط الاسرة . وهذه
هى الابيات :

« بعثت للحياة من احتملت الحياة ... »

« ثم احتملت الموت وهى الآن طليقة ... »

« فهى الآن ملاك صادق مرتل ، وقد نسيت ... »

« أحزان أبناء الفناء »

فسألت ميراندا أباهما : « أهى حقيقة تغنى وترتل ؟ » فأجابها
متسائلا : « وما علاقة ذلك بالقصيدة ؟ هذا شعر » .

فقالت ميراندا مأخوذة : « أعتقد أنه شعر حسن » .

وكان العم جبريل ابن عم من الدرجة الثانية لوالدها وللعمة
آمى . ومن شأن هذه القرابة أن تجعل الشاعرية دانية منها . فقال
والدهما : « لا بأس به من حيث انه شعر ينقش على قبر . ولكن كان
ينبغى أن يكون أفضل من هذا »

وقد انتظر العم جبريل خمس سنوات الى أن تزوج من العمة آمى
فقد كانت عذبة ، ضعيفة الصدر ، وخطبت لشابين آخرين من قبل ،
ثم فسخت خطبتهما لغير سبب . وكانت تضحك ساخرة مما ينصحها
به من هم أكبر منها سنا وأكثر طيبة ، ممن كانوا يرونه نزقا منها
ألا تستجيب لتعلق شاب فى مثل وسامة جبريل وروائه ، وهو بعد
هذا من أبناء عمومتها ، فلا يستوى الزواج به وزواجها من رجل غريب !
وقيل ان فتورها قد دفع جبريل الى حياة معوجة ، وافرط فى
الشراب . وكان جده ثريا ، وجبريل هو الاثري لديه ، وتشاجرا
بسبب جساد السباق ، فصاح جبريل : « لابد لى من شىء » كأنما
ليس له كل شىء فعلا من شباب وصحة وجمال ، وثرء منتظر ،
وأسرة متعلقة به . فبين له جده انه يكاد يكون عاقا ، وان حالته
تندر بأنه سيغدو متلافا . فقال جبريل : « لقد كانت لك جساد
سباق ، وقد أفدت منها شيئا كثيرا » . فأجابه جده قائلا :
« ولكنى لم أجعل منها يوما مصدر رزقى ياسيدى ! »

وكان جبريل يكتب الى آمى بذلك ، وما اليه ، من مدينة
ساراتوجا ، ومن كنتوكى ، ومن نيو اورليانز ، ويبعث اليها
بالحدايا ، وبالطاف الزهر محفوظا فى الثلج ، وبالرسائل البرقية .
وكانت هداياه طريفة ، فهى تارة قفص كبير حافل بعصافير الحب
الحضراء ، وهى طورا وردة صناعية متفتحة ، مرصعة بالندى ، لزينة
شعرها . ومن فوق هذه الوردة حلية تمثل فراشة زاهية الالوان
مثبتة فى سلك من الذهب تتراقص فوقه . . . ولكن وصول الرسائل
البرقية كان مصدر فزع لامها ، وكانت الزهور بعد الرحلة الطويلة
بالقطار ثم بالعربة الى صميم الريف تبدو غير صالحة للزينة .
وكان يرسل الورود فى الوقت الذى تكون حديقة الورد فى أوج ازدهارها
حول الدار ، فلا تملك آمى نفسها من الابتسام ، مع ان أمها تصر على
أن هذا المسلك من جبريل مؤثر ولطيف ، لانه يقيم الدليل لآمى
على أنها ماثلة دائما فى خاطره ، فكانت آمى تقول :

« ليس هذا المكان مما أرضاه لنفسى » ! ولكن كانت طريقتها
فى الكلام ونبرة صوتها مما يستحيل على المرء أن يتبين : هل

تعنى ماتقول حقا أولا ؟ وكان من المحتمل أن تكون جادة فى ذلك
مهما كان من شأنها أن تجيب عن الاسئلة حين تستوضح مكنونها

وقالت الجدة وهى تبسط عباءة فضفاضة من المخمل المتعوج اللون
كعنق الحمامة ، ثم تبسط الى جانبها ثوبا فضيا من الحرير الموحج ،
وطاقيه صغيرة من المخمل الرمادى تزينها ريشات قاقمة الحمرة : « هذا
ثوب زفاف آمى . » وكانت بنت العم ايزابيل الحسناء جالسة
بجوارها ، وعلى مقربة منهما ميراندا ، تملك السمع اذا عن لها أن
تسمع ...

واستطردت الجدة قائلة : « لم يرق لديها أن تلبس البياض
أو تتخذ الحمار ... ولم أبد اعتراضا ، لانى كنت قد
قررت أن تتخذ كل بنت من بناتى ما شاءت من شارة الزفاف .
ولكن رأيها أدهشنى ، فقد سألتنى : « كيف أبدو فى الحز
الابيض ؟ » ... وكان لونها شاحبا حقا ، ولكنها كانت مع
هذا حرية أن تبدو ملائكية الطلعة فى ثوب من الحز الابيض ...
وأعلنها جميعا بهذا الرأى . فقالت : « لى أن ألبس السواد ان
أردت ، فهى جنازتى أنا ! » فذكرتها أن « لو » ، ووالدتك قد
زفتا فى ثياب بيض ذوات خمار ، وانه مما يسرنى أن تزف سائر
بناتى فى شارة متماثلة ... وقالت آمى : « ليست « لو » ولا
« ايزابيل » مثلى ! » ولم أفلح فى اقناعها بتفسير ما تعنى بهذه
العباره . ويوماما - وقد اعتلت - قالت لى : « أمام . سوف لا يطول
مقامى فى هذا العالم . » وخيل الى انها لاتعنى ما قالت ، فقلت
لها : « قد تعمرين كما يعمر أى انسان اذا أنت توخيت العقل »
فقالت آمى : « وهذا هو كل الاشكال ... وانى لاشعر بالاسف
لجبريل ، فهو لا يدرى أى شىء يجد فى طلبه » ... واجتهدت بعد
ذلك أن أبين لها أن الزواج والاطفال سوف يشفونها من كل
شئ ، فقلت لها : « لقد كانت كل نساء أسرتنا مهزولات وهن
صغيرات ... بل ما كان أحد يتوقع لى وانا فى مثل سنك أن
أعيش عاما واحدا ... وكانوا يسمونه (الخلوروز) فى الاصطلاح
الطبي ، وهو مرض الحب الذى يصيب الفتيات ، ويعلم الجميع

أن ليس له إلا علاج واحد . . . » فقالت آمى : « ولو عشت مائة عام حتى غدوت من خضرة الخلوروز كالعشب ، فلن أرغب فى الزواج من جبريل » فقلت لها بمنتهى الجد : « انها اذا كانت تشعر حقاً بمثل ذلك الشعور فيجب ألا تتزوجه ، ويجب أن يقال هذا لجبريل فوراً ثم يمضى لحال سبيله حيث لا يعود . وسيتغلب على هذه الصدمة » فقالت آمى : « لقد صارحته وصرفته عنى فلم يذعن . » وضحكنا كلنا لذلك الامر ، ثم قلت لها : « ان فى وسع الفتيات أن ينتحلن مائة طريقة لانكار ما يعتل فى نفوسهن من الرغبة فى الزواج ، وألف طريقة لاختيار مدى تأثيرهن فى الرجال . أما أنت فقد نلت من ذلك كله ما فوق الكفاية ، وأن لك أن تجدى كل الجد وتصدقى نفسك فى اتخاذ قرار حاسم . فاننى أنا شخصياً كنت راغبة من كل قلبى فى الزواج من جدك ، ولو أنه ما تقدم لطلب يدي لتقدمت أنا بذلك الطلب يقيناً . » فأكدت لى آمى أنها لا تستطيع أن تتصور حاجتها للزواج من أى انسان ، وأنها تفضل أن تغدوعانسا لطيفة مثل ايفا بارنجتون . فقد كان واضحاً حتى فى ذلك الوقت أن ايفا عانس مطبوعة ! فقال هارى : « ولكن ايفا ليس لها ذقن ، وهذا سر مشكلتها . فلو لم تكن لك ذقن يا آمى لكنت فى مثل مركز ايفا ولا شك » ! وقال عمك « بل » : « حينما لا تحصل المرأة على شئ آخر فانها تتعلق بحق الانتخاب على سبيل العزاء . وذلك لعمرى ضجيع لا يملأ الفراش ! » فقالت آمى : « ان كل ما أحتاج اليه ليس الا رفيقاً يراقصنى ، حتى أجتاز حلبة الحياة ، وهذا هو الزواج الذى أطلع اليه وكفى . » فلم يكن ثمت طائل وراء مناقشتها .

أما أخوتها فكانوا يذكرون بالحنان لطافة حسها وعقلها . وبعد أن استمعت ماربيا لتعليقاتهم على طبعها وأحوالها ، استقر رأيها على أنهم كانوا يرون فيها لطافة الحس والعقل لانها كانت تسألهم رأيهم فى وقع منظرها عندما تهم بالخروج الى المراقص . فاذا وجدوا شائبة فيه من أى وجه بادرت الى تغيير ثوبها أو نمط شعرها حتى يرضوا ، وتقول للواحد منهم : « انك للملك كريم

اذ تأبى لشقيقتك • المسكينة أن تخرج فى بزة مشوشة ! » ولكنها لم تكن لتنقاد لوالدها أولجيريل • فاذا أثنى جبريل على ثوب كانت ترتديه ، فهي قمينة أن تختفى ثم تبرز فى ثوب آخر ، وكان يحب شعرها الاسود الطويل ، وقدرفه ذات مرة عن وسادتها حينما كانت مريضة وقال : « انى أحب شعرك يا أمى ، فهو أجمل شعر فى العالم » ! فلما عاد فى زيارته التالية وجد شعرها مقصوصا معقوصا ، أدنى مايكون من جلدة رأسها ، ففرع كأنها قد شوهدت نفسها عمدا • ولم ترسل شعرها بعد ذلك على سحجة غائءه ، ولورضاء لآخوتها • أما الصورة المعلقة على الحائط فكانت قد أوصت بها لترسلها الى جبريل فى ذلك الوقت ، فردها بغير كلمة واحدة • فسررها ذلك ، وصنعت لها اطارا • وكتبت فى أسفل الصورة بحبر باهت دقيق : « الى أخى العزيز هارى الذى أحب شعرى مقصوصا • • »

وكانت تلك الكلمة اشارة عابئة خبيثة الى فضيحة خطيرة ! وكانت الفتاتان تنظران الى أبيهما وتعجبان فى سريرتهما : ماذا كان يمكن أن يقع لو أنه أصاب الشاب الذى أطلق عليه النارحقا ، والمعتقد أن ذلك الشاب كان قد قبل العمة أمى من دون خطبة ، وكان المفروض ان يتم براز بينه وبين العم جبريل • بيد أن أباهما كان أسبق اليه • وكان ذلك الأب والدا ظريفا لين العريكة ، من دأبه أن يضع بنتيه على ركبتيه اذا حسن زيهما وطاب سلوكهما • أما اذا لم ترجلا شعرهما وتلمعا أظافرهما ، فانه قمين أن يدفعهما عنه قائلا فى اقتناع تام : « اذهبا عنى فأنتما منفرتان » • وكان يلقي باله الى موضع الحياكة فى جوار بهما ووجوب استقامته ، كما كان يدفعهما الى تلميع أسنانهما بمزيج مزعج من الطباشير ومسحوق الفحم والملح • فاذا تنكبتا فى سلوكهما ما ينبغى من الفطنة لم يطق رؤيتهما • وكانتا تدركان ادراكا غامضا أن ذلك كله لمصلحتهما مستقبلا ، واذا سال أنف احدهما لاصابتها بالبرد ، وصف لها مزيجا مستطابا حارامن الويسكى والبراندى والسكر والماء ، وأشرف بنفسه على تناولها اياه • وكان لا يفتأ يرجو الى الله ألا تشبا فى كبرهما على ذلك الحظ من البلاهة التى كان يراهما متصفين بها فى كل حين • وكان من عادته ان يسأل بطريقة خاصة

به محيرة : «ومن أين لك أن تعرفي» كلما نسيت واحدة منهما نفسها وأطلقت في حضرته حكما قاطعا في أمر ما ، وكانت النتيجة على الدوام أن يتضح جهلها المطبق بالموضوع ، وانها انما رددت شيئا سمعته من قبل . لهذا كان الحديث معه عملا شاقا ، فهو ينصب لهما شراكا تترديان فيها ، بيد أنهما تعودتا الاهتمام بالألاعتماد أبوهما فيهما الغفلة !

وهذا الوالد نفسه هو الذي رحل الى المكسيك ذات مرة . ولبت هناك زهاء عام ، لانه كان قد أطلق النار على رجل جرى بينه وبين العمة آمى فى بعض المراقص شئ من غزل جرى . وقد أخطأ في هذا أيما خطأ ، اذ كان ينبغي أن يدعو للمبارزة كما دعاه العم جبريل . بيد أنه لم يفعل ، وانما أطلق عليه النار . وتلك أكبر سوءة ، وكانت لها فى الجالية كلها هزة عنيفة كادت تودى بما بين العمة آمى والعم جبريل الى الابد . فقد أصر العم جبريل على أن الشاب قبل العمة آمى . وأصرت العمة آمى على أن الشاب لم يجاوز اطراء شعرها .

وكانت النية قد عقدت على اقامة حفل رقص تنكرى كبير فى عطلة عيد الاعتراف . وقرر هارى أن يرتدى زى مصارع الثيران ، لان حبيبته ماريانا كانت قد تلقت زيا نسويا أسبانيا جاءها من بلاد المكسيك ، وقد شاهدت ماريانا وميراندا صورة لأُمهما وهى فى ذلك الزى . وقد بدا فيها وجه أمهما المليح خاليا من كل أثر للغنج ، ترنو بعينين جادتين من تحت غطاء رأس أسباني بديع يتهدل من المشط العالى ، وقد رشقت فوق أذنها وردة . أما آمى فاقبست زيتها من صورة راعية منقوشة فوق طبق صغير من خزف درسدن معلق فوق مدفأة حجرة الجلوس . فجاء اقتباسها دقيقا حكي الاصل بالقبة ذات الشرائط وتفاصيل الثوب ولونه ، والحف الاخضر ، محاكاة أمينة . ثم وضعت فوق وجهها قناعا نصفيا أسود ، لم يكن كافيا للتنكر اطلاقا ، فقد كان من الممكن ، على حد قول الوالد ، أن يعرف الناظر أنها آمى مهما كانت المسافة بينهما . أما جبريل الذى يزيد طوله على ستة أقدام وربع قدم ، فحاول أن يرتدى زيا مضاهيا ، فأصبح منظره عجبا ، وقد جعل على ركبتيه ذلك

الخز الازرق الباهت ، وفوق رأسه ذلك الشعر الاشقر المستعار وقد
عقده بشريط عريض . فهو كما قال العم « بل » : « كان يشعر
أنه كالأبله في ذلك الزى ، وكان يبدو أبله حقا ، بل انه سلك سلوك
البلهاء قبل أن ينقضى ذلك المساء »

وقد سار كل شيء على ما يرام الى أن تجمعت الفرقة في الطابق
الاسفل كي تتوجه الى المرقص . واذا بوالد آمى - وتخاله ميراندا
قد ولد جدا - يرمق ابنته بنظرة تبين منها أن كعبها البيضاء
لامعان ظاهران ، وأن صدرها قد ظهر منه أكثر مما ينبغي ، وقد
علت وجنتيها بقعتان مستديرتان من الطلاء ، فانفجر ثائرا لذلك
الحياء الجريح ، وصاح بأعلى صوته : « ان هذا لشائن . ولن
تبدى ابنة لى نفسها للناس في مثل هذا الهندام . انه فجور .
فجور ! »

فرفعت آمى القناع وابتسمت قائلة له بكل رقة : « عجا يا أبى ،
ماذا تعيب عليه ؟ أنظر الى رف الموقدة ، فقد انقضى على الصورة
هذه في موضعها زمن طويل ، ولم تثر غضبك من قبل » فقال
أبوها : « القياس مع الفارق الشديد . مع الفارق الذى ليس مثله
فارق أيتها السيدة الشابة . وقد علمت ذلك . فاصعدى فى
هذه الدقيقة وأقفلى صدرك من أمام ، ثم اسدى هذا الذيل الى
طول لائق من خلف ، قبل أن تغادرى هذا البيت ، واغسلى
وجهك ! »

فقالت أم آمى فى حزم : « لست أرى فى هذا الهندام عيبا . ثم
لا ينبغي لك أن تستخدم هذه الالفاظ على مسمع من الفتيات
الطاهرات » . ثم جلست هى وآمى وبضعة من خادمت البيت
فأتمن المهمة فى أسرع وقت . ولم تنقض عشر دقائق حتى عادت
آمى نظيفة الوجه مغطاة الصدر بالمخرمات (الدنتلا) ، وقد هيّط
ذيل الراعية فى احتشام حتى أمسى يكس البساط من خلفها .
وعندما برزت آمى من حجرة الثياب لتقوم برقصتها الاولى مع
جبريل فى قاعة الاحتفال ، كانت المخرمات قد اختفت من فوق
الصدر ، وكان الذيل قد تقلص الى فوق فى جسارة تفوق جسارته
الاولى ، وكانت البقعتان الحمراء وان على الوجنتين كأنهما رمانتان .

وسألت جبريل : « والآن خبرني بالحق يا جبريل . ألم يكن من
دواعي الأذى أن أفسد هذا الزى ؟ » وأطرب جبريل أن تسأله رأيه ،
فصارحها أنه قد بلغ حقا حد الكمال . ثم اتفق رأيهما في شيء
من التسامح الرقيق على أن هؤلاء المسنين كثيرا ما يكونون مصدر
تعب وضجر ، بيد أنه لا حاجة بالمرء لاثارة سخطهم بالعصيان
السافر : لقد ولى شبابهم ، فماذا بقى لهم من متاع الحياة ؟

وكان هارى يرقص مع ماريانا التى كانت تجمع فى يدها ذبلا
ثقيلًا جرارا كلما دارت دورة من دورات الفالس فى خبرة وعناية .
وبدأ يساوره القلق على شقيقته آمى لأنها أضحت قطب الرحي فى
ذلك المحفل . وأبصر شبانا يجتازون الحلبة نحوها فى خط مستقيم
لا يمت الى حركات الفالس الدائرية بسبب ، وقد شخصت
أبصارهم الى هذين العقين البيضاءوين الحريرين . وكان من هؤلاء
الشبان من لا معرفة له بهم أصلا . ومنهم من كان يعرفهم أنهم معرفة
فليس يسعه مطلقا أن يرضى لشقيقته آمى أدنى صلة بهم .

أما جبريل فقد بدا فى شعره المستعار وزيه العجيب وكأنه يتقلب
فى الشوك . فلم تكد تنسج له الفرصة للرقص مع آمى . وهو
أيضا لا يستطيب الرقص مع سواها . فشعر بالهانة والشقوة .

وفى وقت متأخر ظهر شاب من أصل فرنسى جاء منفردا متنكرا
فى زى جان لافيت . وكان قد خطب آمى فترة من الزمن منذ
سنتين ، واتجه ذلك الشاب نحوها مباشرة فى فرحة العاشق السعيد
وقال لها بصوت سمعه كل من كان قريبا منهما : « لقد حضرت
خصيصا عندما علمت أنك هنا ، ولا رغبة لى فى شيء سوى
مراقبتك ثم أنصرف كما جئت » فصاحت آمى متهللة الوجه :
« رايمون ! » كأنما تخاطب عاشقا لها . ثم رقصت معه أربع
مرات ، واختفت بعد ذلك من الحلبة معتمدة على ذراعه .

وكان هارى وماريانا متنكرين فى زى رومانتيكى لائق ، وكانا
فضلا عن هذا مخطوبين بوجه لا غبار عليه ، فراحا يرقصان الفالس
آمنين فى سرب سعادتهما ، رقصا متمهلا على نغمات الاغنية الاثيرة
لديهما ، وهى أغنية الوداع الحزين التى ترنم بها الملك المراكشى
وهو يفارق غرناطة . وكانا يتهامسان فى لغة أسبانية غير وثيقة

بتلك الاغنية التى تتحدث كلماتها عن الحب والرحيل ، وعن أسنة
سيوف الأسى التى تعطف القلب على كل مخلوق قسا عليه الدهر
ورزاه بالحرمان : « آه يا منزل الحب ويأجنة الارضين .. لن أراك
من بعد ... فالى أين يا ترى يطير العصفور المسكين المجهد وقد
حرم المأوى ؟ وأين ينشد الوكر ولا وكر ؟ أنا أيضا يا عصفور
غريب الديار ، ولا قدرة لى على الطيران .. فتعال الى قلبي أيها
العصفور المليح ، وشيد أيها النازح الحبيب عشك قريبا من فراشى ،
كى أسمع صداحك وأبكي على مهد بهجتى المفقود ... »

وفيما هما فى هذه النشوة ، هبط عليهما جبريل ، وقد خلع
عنه هندام الرعاة ، وحمل فى يده شعره المستعار ، وطلب الخلوة
بهارى ليتحدث اليه فورا .. وقبل أن تدرك ماريانا الموقف ،
وجدت نفسها جالسة الى جوار أمها ، وقد اختفى الشابان المتوفزان .
وفى انتظار أوبتهما راحت تتسلى عن ذلك التكدير المفاجئ ، بالابتسام
لآمى التى مرت من أمامهما مراقبة شابا فى زى الشيطان ،
لا ينقصه من ذلك الزى شئ حتى حافريه القرمزيين ... وسرعان
ما عاد هارى وجبريل وقد ظهر على وجهيهما الجد الجاد . واقتحم
هارى الخلبة ثم خرج منها بآمى ، وطلب الى الفتيات ومرافقاتهن أن
ينهضن للرواح توا . وحدث ذلك كله فجأة وبوجه غامض ، وقال
هارى لماريانا : « سأخبرك بالموضوع ولكن ليس الآن ... »

ولا تذكر الجدة من ذلك الحادث الشائن الا أن جبريل قد جاء
بآمى الى الدار وحده ، ثم حضر هارى بعد قليل .. وحضر سائر
الجماعة متفرقين فى أوقات شتى .. ثم اتضحت المسألة بعد ذلك
نتفا نتفا ...

وكانت آمى لائذة بالصمت ، واتضح لأمها بعد ذلك أنها كانت
صالية بالحمى ... وعن ذلك تقول الجدة : « أدركت لأول وهلة
أن شيئا قد وقع ، فسألتها : ماذا جرى يا آمى ، فأجابتنى وهى
تجلس كمن نال منها الاعياء : « لقد اندفع هارى يطلق النار على
الناس وهم يرقصون » فقال جبريل : « لقد كان هذا بسببك أنت
يا آمى » فقالت آمى « كلا . ليس بسببى ، فلا تصدقيه يا أماء ! »
فقلت أنا : كفى الآن هذا الهذر ، وأصدقيني الحبر يا آمى ،

فقالت آمى : « هذا هو الخبر : لقد دخل رايمون ، وأنت تعلمين أنى أستلطفه ، وهو راقص بارع . . . فرقصنا معا . . . ولعلنا رقصنا معا أكثر مما ينبغي . . . ثم خرجنا الى الرواق لتتنسم الهواء ، فلما وقفنا هناك قال لى : ما أبهى منظر شعرك ! . . . فهذا الطراز الجديد يروقنى كثيرا . . . ونظرت نحو جبريل وقالت : وعندئذ ظهر شباب آخر فقال لى : لقد فتشت عنك فى كل مكان ، فهذه رقصتنا . . . فدخلت معه ورقصنا . . . وفى هذه اللحظة يبدو أن جبريل خرج فتحدى رايمون للمبارزة متذرعاً بسبب من الأسباب ، بيد أن هارى لم يصبر . . . وكان رايمون قد انصرف فعلا كى يدعو بجواده فيركبه ليبدل ثيابه التنكرية قبل المبارزة . . . ثم رفقت جبريل الذى كان محشورا فى هندام الرعاة الازرق ، وقالت : فخرج هارى وأطلق عليه النار . . . ولا أظن ذلك كان عدلا . . . فأفرت أمها أنه ليس من العدل فعلا ، بل ليس من اللياقة فى شيء . . . وأنها لا تدرى ماذا عن لابنها هارى . . . وقالت له فيما بعد : ما هكذا تصون شرف شقيقتك ، فقال لها : لم أرد أن يتورط جبريل فى مبارزة فقالت : وهذا أيضا لم يكن وراءه طائل . »

« وكان جبريل واقفا أمام آمى ، حانيا فوقها ، حين سألها مرة أخرى ذلك السؤال الذى ما فتى يوجهه اليها فيما يظهر مدى طريقهما الى الدار : هل قبلك يا آمى ؟ فنزعت آمى قبعة الراعية عن رأسها ثم دفعت شعرها الى الخلف وأجابته قائلة : ربما فعل ، وربما كنت أنا التى أغرته بذلك ! فقالت أمها : لا ينبغي لك يا آمى أن تقولى مثل هذا القول . . . فأجيبى عن سؤال جبريل ، فقالت آمى ولكن فى غير غضب : « لا حق له فى توجيه هذا السؤال ! فسألها جبريل وقد تفصد العرق من جبينه : « هل تحبينه يا آمى ؟ » فأجابته آمى وهى تضطجع فى مقعدها الى الخلف : « لاقيمة لهذا » فقال جبريل : « بل له قيمة . . . وقيمة كبرى . . . فلا بد أن أسمع جوابك الآن » . . . ثم تناول كلتا يديهما وحاول أن يقبض عليهما ، فجذبت يديهما فى حزم وشدة حتى أطلقهما . . . وقالت أم آمى له : « دعها الآن يا جبريل ، ومن الخير أن تتصرف الآن فكلننا متعب ، وسوف نتحدث فى الموضوع غدا » . »

ثم ساعدت آمى على خلع ملابسها ، ولما فطنت الى تغير الصادر وقصر
الذيل قالت لها : « ما كان ينبغي لك أن تفعل هذا يا آمى . فليس
ما فعلت من الحكمة فى شيء . وكان خيرا لك أن تدعيه كما كان »
فقالت آمى : « أماء ، قد سئمت هذا العالم ، فليست مستريحة الى
شيء مما فيه . فما أضيقتنى به » وبدت فى تلك اللحظة كأنما تهم
أن تيكى . ولم تكن قد ذرفت الدمع أبدا ، حتى وهى طفلة ،
فارتاعت أمها ، وعندئذ تكشف لها أن آمى محبوبة . وقالت آمى :
« جبريل كئيب يا أماء . فهو يتجهم دائما ، وكنت أراه يتجهم
كلما مررت من أمامه فى المرقص . وذلك أمر يعكر الصفو . آه .
أريد الآن أن أنام » . وجلست أمها تنظر اليها وتتعجب كيف
حدث أنها أنجبت للعالم مثل هذه الطفلة الحسنة . وقالت : « لقد
كان وجهها وهى نائمة ملائكى المنظر ! »

وفى تلك الليلة المحبوبة وفق أصدقاء الطرفين فى وقف المباراة
التي كان مزما وقوعها بين جبريل ورايمون ، وبقيت معلقة مسألة
الطلق الناري الذي أطلقه هارى فى حماسة الاندفاع ، فهي مسألة
تسويتها ليست سهلة ، فقد أسهر رايمون فى نفسه وكان من المحتمل
أن يثر بسببها المتاعب . وبناء على نصيحة جبريل وأخيوته
وأوصيائه قرر هارى أن خير وسيلة يتجنب بها استعثار الفضيحة
هى الاختفاء عن الانظار فترة من الزمن ، وما أن اتخذ ذلك القرار
حتى عاد الشبان قرب مطلع النهار فأسرجوا خير جياذ هارى وأعانوه
على جمع اليسير من حوائجه ، ثم اتجه هارى نحو الحدود وفي
صحبه جبريل وبل ، وقد استشعر روح المغامرة ومراحها .

ولما استيقظت آمى على تلك الحركة فى البيت ، تبينت لها
الخطأ . فما أن انقضى على ذهابهم خمس دقائق حتى هبطت فى
ثياب الركوب فأسرعت جوادها وأسرع فى أعقابهم . وكان من
عادتها أن تركب جوادها كل صباح تقريبا . وقبل أن يدب القلق
الى والديها لاستطالة غيبتها ، عثرا على الرقعة التي تركتها ،
فاذا بما أوشك أن يكون نذير مأساة وقد أنقلب الى نزهة مريحة ،
فقد ركبت آمى الى الحدود ، حيث قبلت أخاها هارى قبلة الوداع ،
ثم عادت راكبة مع بل وجبريل ، وقد استغرقت الرحلة ثلاثة أيام ،
فلما وصلوا عين حمل آمى من فوق السرج حملا ، فقد ثقلت

عليها العلة ، وان كانت في أحسن حال من انشراح الصدر • وكانت والدتها ووالدها قد تأهبا للعنف بها ، ولكن ما أن وقع بصرهما عليها حتى تبدل شعورهما ، فلما على بل وجبريل يسألا منهما : لماذا تركتماها تقدم على هذا العمل ؟ » فقال جبريل وقد سقط في يده : « قد علمتما أنه لا يد لنا بكفها عما تريد • ثم هي قد استطابت هذا الامر كثيرا ! » • وضحكت آمي وقالت : « لقد كانت هذه الرحلة الرائعة يا أماه أمتع رحلة وقعت لي • ولئن كنت بطلا هذه الرواية ، فلماذا اذن لا أفيد منها أقصى ما يستفاد ؟ »

وتبينت ماريًا وميراندا أن القضية كانت مستفيضة مروعة ، فقد حملت آمي الى فراشها فلزمته ، وتسلسل هاري بليل ريثما يخمد أوار الموضوع ، أما سائر الاسرة فكان عليهم أن يستقبلوا الزوار ، ويكتبوا الرسائل ، ويذهبوا الى الكنيسة ، ويردوا الزيارات ، وأن يحتملوا اللطمة كلها على حد قولهم ، فجلسوا في ابان القضية التي استفاضت في عالمهم الصغير متماسكين في صلابة ، مسهمين في توتر شامل ، كأنما قد شددت أعصابهم الى مركز واحد • وقد أصابت ذلك المركز العصبي لطمة ، اهتزت لها أعصاب الاسرة حتى أقصى الارض من كنتوكي ، فقد وصلت في أوانها المرسوم رسالة من العمة الكبرى « سالى ريا » موجهة الى الآنسة « آمي ريا » مكتوبة بحبر بنى قاتم كأنه الدم الجاف ، وبخط كأنه بيوت العناكب حافل بالرموز والاختصارات ، وفي هذه الرسالة تنذر العمة الكبرى سالى آمي « انها تعتقد اعتقادا راسخا ان هذه القارعة ان هى فى الواقع الا طليعة قافلة من الكوارث لا تلبث عما قريب أن تصيبها يد الله العلى القدير على سلاله استجلبت على نفسها الوبال بما قارفته من شر • وهى نذير بأن أيام المرء فى الدنيا قصيرة ، وانهم جميعا يجب أن يتأهبوا لنهاية العالم • أماهى فطالما توقعت هذه النهاية ، وهى على أتم الاستعداد للملاقاة بارتهافى اذعان • وأما آمي فليس اثمها أهون من اثم شقيقها الشرير هاري ، ويجب عليها أيضا أن تضع نفسها بين يدى الله وتتأهب لاسوأ الامور • » • وياقربتي الصغيرة العزيزة المسكينة ، يجب فى وقت المحنة أن تتشاك أيدينا كي نبسوا أمام عرش الديونة المرحوب أسرة متحدة • لانه اذا نقصت نعمة واحدة من القطيع ، فماذا عسى أن يقول يسوع • »

وكان اتجاه العمة الكبرى سالى ذلك الاتجاه الدينى قدغدا أسطورة
هزلية ، فهي قد اطرحت مذهبها الكاثوليكي من أجل خاطر شاب
كانت أسرته من المشيخين أهل كمبرلاند . ولما استعصى عليها
هضم معتقدهم ارتدت الى المذهب المعمداني المتزمت ، وهو مذهب
كريه لدى آل زوجها كراهة الكنيسة لديهم ، وسلخت حياتها بعد ذلك
فى ترفق معيب بنفسها قوامه الشعور بالشهادة فى سبيل ايمانها !
فالدين - على قول هارى - قد أنشب فى العمة سالى مخالفه ،
وأقامها حيث يتسنى لها أن تفرى جلودهم . وقد عمرت حتى أفحمت
بالحجة ، وقهرت بالغلبة ، وشيعت الى اللحد جيلها كله ، ولكنها لم
تشعر لفقدانهم بوحشة ، بل رمت بالشيطنة الجيل الثانى بغير
توقف ، وهامى الآن قد استفتحت على نهم بالجيل الثالث !

فلما قرأت آمى هذا الخطاب انفجرت ضاحكة ضحكها المرحه
الطلقة ، التى تجعل كل من حولها يضحك كضحكها ، حتى قبل أن
يعرفوا لماذا ضحك . وتحولت عصافير الحب الحضرء الصغيرة فى
قفصها ترمقها . وقالت آمى :

« تصوروا ان أتخذ مقعدا فى الجنة بجانب عمتى سالى ! ياله
من منظر » !

فقال والدها : « لاتسرعى بالضحك قبل الاوان ، فان الجنة
قد فصلت على هوى عمتى سالى تفصيلا ، وستكون هناك فى
ميدانها وملك يمينها !! »

فقال آمى : « وبسبب آثامى سيكون مئواى الجنة مع العمة
سالى » !

وفى غضون غيبة هارى القلقة، ثابرت آمى على رفض الزواج
من جبريل . وكانت أمها تسمعهما يتحاوران بغير انتهاء أياما
طوالا ، وذات عصر برز جبريل بادى الجد فاقد الأمل : فوقف
ينظر الى أم آمى وهى تشتغل بالحياكة ثم قال : « أظن المسألة
قد انتهت ، وأعتقد الآن ان آمى لن تتزوجنى . » وكانت الجدة
تقول بعد ذلك على الدوام : « لم تأخذنى الرأفة بانسان كما أخذتنى
بجبريل المسكين فى تلك اللحظة . بيد أنى قلت له فى حزم حازم :

دعها وشأنها اذن فهي مريضة • وانصرف جبريل ولم يبلغ أمي
شيء عنه مدى شهر أو أكثر •

وغداة رحيل جبريل نهضت أمي من فراشها وقد بدت في خير
حال، وخرجت للصيد مع شقيقها بل وستيفن ، واشترت دثارا من
المخمل، وعقصت شعرها وموجته، وكتبت خطابات طويلة الى هاري
الذي كان يستمتع غاية المتعاضد بمنفاه في مدينة مكسيكو •

وظفقت ترقص طول الليل ثلاث مرات في أسبوع واحد، فاستيقظت
ذات صباح وقد اشتد عليها النزف ، فبدا عليها الارتياح
وظلّت دعوة الطبيب ووعدت أن تقى بكل ما يشير به ، ولزمت
الهدوء بضعة أيام قضتها قارئة ، ثم سألت عن جبريل ، ولم يكن
أحد يدرى أين هو ، فقبل لها : « ينبغي أن تكتبى إليه خطابا ،
وستبلغه أمه إليه حيث يكون » • فقالت : « كلا • لقد أوحشتنى
رؤياه داخلا بوجهه العظيم • كالليس في الخطابات نفع » !

ودخل عليها جبريل فعلا ولكن بعد بضعة أيام بوجه جد
كظيم وأنباء سوء ، فقد مات جده بعد اعتلال يوم واحد ! واذا هو
على فراش الموت أعلن باسم الله، وهو فى صحو عقلى سليم ، أنه
قد حرم حفيده الاثير جبريل من كل دولار يملكه • وقال جبريل :
« وباسم الله يا أمي حطمنى هذا الشيطان العجوز بجملته واحدة
تفوه بها » • ثم قال أن أقسى مامنى به هو مسلك ذويه الاقربين بعد
ذلك • فانهم لم يتكلفوا اخفاء شمسائهم به ، وكانوا يعرفون
ما يتوقعه جبريل عدلا وحقا من آمال محققة ، ويحسدونه عليها،
فلما تقوضت الآمال لم يعرض أحد منهم تسوية خاصة، ولم يفكر
أحد منهم فى اصلاح جريرة ذلك الانتقام الحرف فى لحظة الموت •
بل راحوا فيما بينهم يباركون الاقدار لما حبتهم به • « فحرمت
من كل دولار ، وسرهم ذلك أجمعين • واخال انهم يشعرون
ان ذلك الحرمان يبرز على نحو من الانحاء كل نقد وجهوه يوما إليه،
وقد أصابوا فى رأيهم فى على طول الخط ، فلست الا قريبا خائبا
فقيرا • • يا الهى ! ليتك رأيتهم » • فقالت أمي : « انى لا تساءل كيف
يتسنى لك بعد الآن أن تعول زوجة ؟ » فقال جبريل : « لم يبلغ

الامر من السوء هذا المبلغ ، فلو أنك يا آمى . . . » فقالت آمى :
 « يا جبريل . اذا تزوجنا فورا ، ففى وسعنا أن نكون فى نيو اورليانز
 فى عطلة عيد الاعتراف ، واذا انتظرنا الى ما بعد الصوم الكبير ،
 فربما يكون قد فات الاوان . » فقال جبريل : « عجباً يا آمى ،
 كيف يمكن مطلقاً أن يفوت الاوان ؟ » فقالت آمى : « قد تغير رأيك ،
 فقد علمت أنك رجل قلب »

ومن بين مجموعات الخطابات الكثيرة التى كانت تحتفظ بها
 الجدة خطابان قرأتهما ماريا وميراندا بعد أن كبرتاً . وأحدهما
 الخطابين من آمى . وتاريخه بعد زواجها بعشرة أيام :
 « أمى العزيزة . لم تتغير نيو اورليانز كثيراً بقدر ما تغيرت أنا
 منذ آخر عهدي بها ، فأنا الآن امرأة متزوجة رزينة ،
 وجبريل شديد الولاء والحنان . وقد ربحت فرنسا فوتلايتس ،
 السباق بالامس ، فكانت المجلية ، وقد أثلج هذا صدرنا . وانى
 أذهب الى السباق كل يوم ، وحيادنا مزدهرة موفقة ، وقد ترك
 لى الاختيار بين ارستين والانسة لوسى ، فاخترت الانسة لوسى ،
 وهى الآن ملكى ، وعدوهاسريع ، ويزعم جبريل اننى أخطأت ، وأن
 ارستين أصبر وأقدر على الاحتمال ، وأعتقد أنا أن فى احتمال الانسة
 لوسى ما يكفينى . وزيارتنا للمدينة محبة . وسوف أرتدى
 قناعاً وأخرج الى الشوارع مع جبريل فى عيد الاعتراف ، فقد
 سئمت مراقبة المواكب من شرفتى . ويقول جبريل ان المسألة غير
 مأمونة ، ولكنه مستعد لاصطحابى اذا ألححت . بيد أنى أشك فى
 ذلك ، وهو ظريف جداً يا أماء ، فلا تقلقى من أجل . وقد أقتنيت
 ثوباً من المخمل جميلاً ، يجمع لونه بين الاسود والوردى ، لحضور
 مرقص « بروتيوس » التكرى . وتساءلت السيدة حماتى
 الجديدة ، ألا يعتبر ذلك الثوب مبهرجاً بعض الشيء . فقلت لها
 اننى أرجو ذلك أو أكون قد خدعت فيه . وهو محبوبك تماماً عند
 الصدر ، حاسر عن الكتفين جداً . وما كان والدى ليرضى عنه -
 أما النصف الاسفل فمزركش بشرائط عريضة فضيحة ما بين
 الحاصرة والركبتين من أمام ، ثم تتجمع الشرائط تجمعاً هائلاً فى

الحلف ، ولثوب ذيل مقداره ياردة واحدة . وتبلغ خاصرتي الآن ثمانى عشرة بوصة ، وشكر المدام دوريه . وأتوقع أن أبدؤ فيه غاية فى التبرج حتى تصاب حماتى بنزلة . وما أكثر ما تصاب بتلك النزلات . وجبريل يبعث اليك بحبه . وأرجوكم أن تعنى بجرايلى وفدلى ، لانى اريد أن أركبهما عندما أعود ، وسنذهب الى سراتوجا ، وان كنت لأدرى متى . وبلغى الجميع منتهى حبي ، والمطر هنا لا ينقطع طبعاً . »

« حاشية : بمجرد اختلائي بنفسى لحظة واحدة يأمأه سأشعر بحنين شديد الى الوطن . . . وداعا يا أمى الحبيبة . »

أما الخطاب الآخر فكان من ممرضة آمى ، بعد انقضاء ستة أسابيع على زواجها :

« لقد جززت صغيرة الشعر ثقة منى بأنكم سترغبون فى الاحتفاظ بها ، ولا أريد أن تظنوا بى الاهمال حتى تركت الدوائى متناول يدها بعد أن وصفه الطبيب وبين طريقة تناوله ، وما كانت لتضار منه لو لم يكن قلبها ضعيفا . ولم تكن تعلم كم ينبغى أن تأخذ - وكثيرا ما قالت لى ان حبة من هذه الحبوب الصغيرة لا ينتج عن زيادتها ضرر ، فكنت أقول لها انها ينبغى أن تحذر من تناول شيء ما لم أعطها اياه . وكانت ترجونى أحيانا فى المزيد فلا أعطيها أكثر مما أشار به الطبيب ، وقد نمت فى الليل لانه لم يبد عليها اشتداد العلة غاية الشدة ، ولم يكن الطبيب قد أمرنى بالسهر جالسة بجانبها . فأرجو ان تتقبلوا أسفى الشديد لمصابكم الفادح ، وأرجو ألا تظنوا أن أحدا قد فرط فى العناية بابتكم العزيزة . فقد عانت كثيرا ، ونعمت الآن بالراحة . وما كانت لتبرأ من علتها ، وان كان محتملا أن تعمر أطول مما عمرت . وتفضلوا بقبول احترامى . . . »

وكانت الخطابات والتذكارات الغريبة مطوية حيث ظلت ، منسية سنوات طويلة جدا ، وكأنه ليس لها فى هذا العالم موضع .

القسم الثانى

١٩٠٤

وفى أثناء العطلة التى قضتها مارى وميراندا فى ضيعة جدتهما ،
طفقتا تقرأن على السجية وبلا انقطاع كما تقرض صغار الخيل
يانع العشب ، وفى لذة تشبه لذتها بما تأكل . . . وقد وضعت الصدفة
المواتية بين يديهما شيئا من القراءة المحرمة ، ولا شك أن هذه
المطبوعات كان قد جلبها بروتستانتى من أبناء العمومة ثم تركها
هناك لغاية تبشيرية ، ولا شك أنها وقعت الموقع المناسب لديهما
ان كان هدف هذه المطبوعات محض الامتاع .

وهى مطبوعة بحروف رثة فوق ورق اسفنجى ، ومزينة برسوم
كأنما خيم عليها دخان كثيف ، مما ألهب خيال الفتاتين لانهما لم
تدركا لتلك الرسوم رأسا ولا ذنبا . وكانت عبارة عن أقاصيص
تدور حول فتيات جميلات بيدأنهن عاثرات الحظ . فلسبب
غامض خفى وقعن فى شرك اراهاب وقسوس متواطئين فيما بينهم
تواطؤا رهيبا ، فألقوا بهن فى الحبس فى بعض الديور حيث
أكرهن على الرهينة ، وهى شعيرة بشعة لا تكف ضحاياها عن الصراخ
والعويل ، وما أن تمت تلك الشعيرة حتى ضربت عليهن حياة قاسية
شادة . وبدا للفتاتين أن هذه الفرائس كانت تقضى حياتها بين
الانطراح مشدودة بالسلاسل فى زنانات مظلمة ، ومشاهدة
الراهابات الاخريات يدفن أطفالا مخنوقين تحت الحجارة فى جب
تعيث فيه الجردان .

« محبوسات » !

فالحبس هو الكلمة التى طال بما رى وميراندا نشدائها كى تصفا

بها مقامهما فى دير يسوع الطفل بمدينة نيو أورليانز ، حيث كانتا تقضيان أيام الشتاء الطويلة سنة بعد سنة مكافحات لتحاشى التعلم ! ولم يكن فى دير يسوع الطفل جب • وكان هذا فارقا واضحا بين حياة الدير كما عرفتها مارياميراندا ، وبين حياة الدير فى تلك الرواية المثيرة المسطرة على الورق • ولا فائدة من محاولة المطابقة بين القصص والواقع ، فلم تفكرا فى تلك المحاولة • فقد تعلمتا منذ أمد طويل أن تقيما حدا فاصلا بين الحياة الواقعية الجادة التى لا تستهدف القبر ، وبين الشعر الذى يجافى الواقع وان كان صادقا ، وبين القصص أو القراءة المحرمة التى تقع فيها الحوادث على نمط خاص ليس له شبيه فى الواقع ، فلا ينبغى أن يجزع له القارئ لانه خال من الصدق خلوا تاما •

لقد كانت الفتاتان جيبستين حقا ، ولكن فى حديقة واسعة ذات شجر ونوافير جبلية ، وكانتا تحبسان ليلا فى عنبر طويل بارد ، نوافذه كلها مفتوحة ، وتنام عند طرفيه راهبتان • وأسرة الفتيات فى ذلك العنبر لها ستائر من الحرير الموصلى ، وقد نسقت المصابيح الساهرة الصغيرة بحيث تستطيع الراهبة رؤية الفتيات من خلال تلك الستائر • أما الفتيات فلا يرين الراهبة وعجبت ميراندا وتساءلت هل قدر للراهبين أن تناما ، أم تراهما تقضيان الليل كله جالستين كى ترقبا للنائمات من خلل الستائر؟ وجاولت أن تنسج حول هذا الموضوع شيئا مثيرا ، ثم اتضح لها استحالة الاهتمام بما يمكن أن تقدم عليه الراهبتان ، فهما امرأتان كئيبتان ، طيبتا القلب ، وفتتا فى اصفاء الكآبة على العنبر كله • فالايام كلها والاشياء جميعها فى ذلك الدير ، المسمى دير يسوع الطفل ، كئيبة حقا • ولم تكن مارياميراندا تعيشان هناك الا انتظارا لأيام السبت •

ولم يشر أحد يوما أدنى اشارة الى ترهبهما • بل ان ميراندا شعرت على العكس من ذلك أن المسلك المشيط الذى سلكته الاخت كلود والاخت أوستن والاخت أورسولا ازاء ما أبدته من طموح الى الترهّب كان ينم عن انتقاد عميق لنقصها الروحى • ومع هذا فقد خرجت مارياميراندا بكلمة جديدة لطيفة من قراءتهما الصيفية ،

وأصبحتا تشيران الى نفسيهما بكلمة «الجيسيتين» • فهي كلمة ذات رواء خيالى يخفف من وطأة حياة تريانها غاية فى الكآبة فيما خلا بعد الظهر من أيام السبت فى موسم السباق ، فاذا تيسر للراهبات أن يبدن للاسرة شهادة بأن سلوك ماريا وميراندا وتحصيلهما مقبولان على الاقل ، تصدى لهما واحد من أبناء العم هاشا لهما وقد تزين بزينة الفراغ ، فيصحبهما الى السباق ، حيث يعطى كلا منهما دولارا تراهن به على الجواد الذى يقع عليه اختيارها •

وكانت تقع لهما بين الحين والحين سوت قائمة ، حين تجلس ماريا وميراندا على أتم أهبة ، وفى يد كل منهما قبعتها ، وقد عقصت شعرها وراء أذنيها ، وانتشرت فيما حول جسدها ذيول ثوبها الكحلى ، منتظرتين بقلب يغوص شيئا فشيئا حتى يهبط الى حذاءيهما السوداوين ، فلا تضعان القبعة على رأسيهما الا فى اللحظة الاخيرة ، مع أنه قد لا يحضر ابن العم هنرى أو بنت العم ايزابيل أو العم جورج أو العمة بولى لأخذهما الى السباق • فاذا لم يحضر أحد ، وضاع يوم السبت هدرًا ، قيل لهما عندئذ أن ذلك كان عقابا لهما على الدرجات الرديئة التى حصلتا عليها خلال الاسبوع • ولم تكونا لتعلمأبدا تلك الحقيقة الا وقد فات أوان تجنب الخيبة ، وذلك أمر عسير حقا •

وقد كلفتا ذات سبت الهبوط الى قاعة الزوار ، وهناك وجدتا أباهما ، وكان قد حضر ليراهما ، متجشما مشقة الرحلة الطويلة من تكساس • فوثبتا عندما وقع بصرهما عليه لأول وهلة ، ثم تمهلتا مستريبتين • هل سيأخذهما الى السباق ؟ ان كان الامر كذلك فما أسعدهما برؤياه • وقال الأب وهو يقبل وجنتيهما : « مرحى • هل أحسنتما السلوك ؟ ان عمكما جبريل له فرس يجريها فى السباق اليوم ، وسنذهب ثلاثتنا لنراهن عليها • فمارأيكما ؟ » • فلبست ماريا قبعتها بغير كلام • أما ميراندا فتصدت لوالدها فى حدة ، لانها كانت قد عانت كثيرا من الشكوك بصدد هذا اليوم ، فقالت له : « لماذا لم تخبرنا بكلمة منذ أمس ؟ فربما أكون قد قضيت كل هذا الوقت فى التطلع » • فقال الوالد فى رقة أبوية : « لم نكن نعلم أنكما ستستحقان هذه المكافأة ؟ تذكرين يوم السبت الاسبق ؟ »

فشمخت ميراندا برأسها ولبست قبعتها ووضعت شريط القبعة المطاط تحت ذقنها ، فقد كانت تذكر ذلك اليوم ولا تنساه . فانها فى منتصف ذلك الاسبوع كانت قد بلغت حد اليأس من واجب الحساب ، فارتمت على وجهها فوق أرض الفصل ، وأبت أن تنهض ، فحملوها الى الخارج حملا . وقضت بقية الاسبوع فى سلسلة من الحرمان . ثم قضت يوم السبت فى حداد أبقته سرا مطويا فى صدرها ، فان المجاهرة بالحزن معناها درجة سيئة فى السلوك .

وقال الائب وكان المسألة من أهون مايكون : « لا بأس . فاننا ذاهبون اليوم . والآن هيا بنا ، فليس فى الوقت متسع »

وكانت هذه النزعات بهيجة كل البهجة فى كل مرة تخرجان فيها . . منذ اللحظة التى تطآن فيها العربة المقفلة ذات الحصان الواحد والمقاعد الوثيرة السمكية ، وقد امتلأ جوها المعتم بالظهور الغريبة ودخان التبغ ، الى اللحظة المثيرة التى تدخلان فيها مطعما يتلأأ بالانوار ، حيث يقدم لهما العشاء ألوانا لم تطعما مثلها أبدا فى البيت ، ولا من باب أولى فى الدير ، فتشعران بهجة الدنيا وبإكتمال التمتع ، وقد حفلت كوب كل منهما بالنبيذ الاحمر . وكان منظر الزحام الكبير يثيرهما دواهما كأنما لم تشهداه من قبل ، ولا سيما السيدات الحسنات بأزيائهن الرائعة التى يغلب عليها الريش الجميل والزهر والاصباغ . وكان يسترعى نظرهما على الخصوص من قيافة الرجال تلك القفزات الصفراء ، وهذه الجوقات الموسيقية التى تتناوب العزف قارعة بالطبول ودفوف النحاس . ثم يبرز بين الحين والحين جواد وحشى جميل ، فيدور حول الحلبة وقد اعتلى صهوته صبى دقيق الحجم عظيم الشبه بالقروء ، على سبيل التمرين على السباق .

وكانت ميراندا تهتم اهتماما شخصيا مكتونا بأمور كانت تحرص على عدم التصريح بها لاي انسان ، حتى لو كان ذلك الانسان هو ماتويا . بل على الخصوص لما رآها ، والا عرفت الاسرة كلها الخبر فى مدى عشر دقائق ، فقد قرأها أخيرا على أن تغدو فى كبرها (جو كية) ، فقد قال والدها ذات يوم انها ستظل طول حياتها

شديدة القصر ولن تطول قامتها . ومعنى هذا طبعاً انها لن تكون حسناء مثل العمة آمى أو بنت العم ايزابيل ، فأملها العتيد فى هبوط الجبال عليها قد لفظ النفس الاخير ، الى أن نبتت فى رأسها فجأة فكرة احتراف الجوكية ، فاستبدت بفكرها ، فراحت ترسم خطوط ذلك الاتجاه فى هدوء ونشوة ، حين يرخى الليل سدوله قبل أن تغفو ، وفى كثير من الاحيان فى راحة النهار ، فى الوقت المخصص للاستدكار . . وكانت تبدو لها تلك الحياة المستقبلية معتمة فى تفاصيلها ، بيد انها مشرقة فى مجموعها العام ، وحق فى نظرها أن تعنى بالحساب أى عناية ، وكل ما يلزمها لصالح مستقبلها ان تحسن الركوب احساناً كبيراً . فهى تذكر أن والدها قال لها يوماً بعد أن راقب عدوها السريع فى طريق المزرعة وهى راكبة الفرس نصف الوحشية : « ينبغى أن تستحى من نفسك . فقد كنت أرى الشمس والقمر والنجوم فيما بينك وبين السرج فى كل وثبة » ! والنمط الاسبانى فى الركوب هو الرسوخ فى السرج ، وأداء جميع المهام بالركبتين والعنان ، ولكن الجوكية يتواءمون فى خفة حتى لتكاد ركبتهم تبلغ مستوى ظهر الجواد ، وهم يعملون ويهبطون ككرات المظاظ . وشعرت ميراندا ان هذا عليها هين ، نعم ، ستغدو جوكياً مثل تودسلون وتربح سباقاً بعد سباق على الاقل . وستتأبر على المران الى أن يحين الحين ، طاوية صدرها على هذا السر ، الى أن تتركب ذات يوم وتتوأنب فى خفة مع سائر الجوكية ، فتربح سباقاً عظيماً ، وترمى بالدهشة كل انسان ، ولا سيما أسرته .

وفى هذا السيت بالذات ركب معبودها تودسلون العظيم وربح شوطين . وكانت ميراندا مشوقة الى المراهنة بدولارها على تودسلون ، بيد ان أباهما قال لها : « ليس الآن يامليحة . فالיום لا بد من الرهان على حصان العم جبريل . فاحتفظى بدولارك لنشوط الرابع وراهنى به على الآتسة لوسى ، فإذا ربحت كسبت مائة ضعف » . وتجههم وجهها وكورت الدولار فى يدها حتى تندى بالعرق الساخن ، فقد كان فى وسعها أن تربح الآن ثلاثة دولارات على تودسلون . أما مارياف قالت فى أريحية : « لا يليق الا نراهن على العم جبريل . فاننا بالمراهنة عليه نبقى مال الأسرة

فيها » • فأبرزت ميراندا شفقتها السفلى لشقيقتها • ولما كانت ماريانا من الرقة بمكان ، فقد جعدت أنفها لميراندا •

وما أن قدمت الفتاتان الدولارين الكاتب المراهنات في الشوط الرابع حتى حياهما رجل ضخيم منتفخ أحمر الوجه له شارب ضخم مشعث دب إليه المشيب ، من فوق رؤوس الجماهير صائحا :

« أهذا أنت ياهارى ؟ » فقال الاب : « يا آله السماء هذا جبريل »

وأشار الى الرجل الذى أقبل يشق الزحام ببطء صاعدا درجات السلم الضيقة • وحملت ماريانا وميراندا فيه أولا ، ثم تبادلتا الحملة فيما بينهما ولسان حالهما يقول : « أهذا يمكن أن يكون عمنا جبريل ؟ أهذا عاشق العمه آمى الوسيم الشاعرى ؟ أهذا هو الرجل الذى نظم تلك القصيدة عن عمتنا آمى ؟ فماذا بالله يقصد الكبار حينما يلقون بمثل هذا الكلام ؟ »

وكان العم جبريل رجلا بدينا زرى الهيئة يشيع الاحمرار الدموى فى عينيه الزرقاوين الكاسفتين ، ويضحك ضحكة عريضة خابية الرنين ، كأنها الانين • • • • • يأخذ يكلم والدهما صائحا وهو فى قامته العالية كأنه البرج المشيد : « وايم الله ياهارى لقد انقضى زمن طويل جدا ، لم أرك فيه • وكان ينبغي أن تأتى لرؤية الجياد • • • انك لم تتغير ياهارى ، وكيف حالك ؟

وفى هذه اللحظة عزفت الجوقة النحاسية مقطوعة وراء النهر » ، فجعل العم جبريل يصرخ صراخا أعلى من ذى قبل : « فقال • هيا بنا نغادر هذه البقعة • فماذا نضع هنا مع صغار المراهنين ؟ » فصاح الاب : « لآستطيع • فقد أحضرت ابنتى • وهاهما • ، فهش لهما العم جبريل بعينيه العشواوين وزعق قائلا : « انهما (زوج) رائع ياهارى • • • جميل جمال التصاوير • • • ما عمرهما ؟ » فقال الاب : « هما الآن فى العاشرة والرابعة عشرة • فى سن الحرج • • • وكانهما وجار أفاع أو عقدة من أنياب الصلال • فما أصعب قيادهما • • • ! ثم عبث بشعر ميراندا متظاهرا بتجميده وليه • • • فجأر العم جبريل قائلا : « فى جمال التصاوير ولكنهما لو جمع جمالهما فى واحدة لما لحق بجمال آمى • • • أليس كذلك ؟ »

فأجابه والدهما بأعلى صوته موافقا : « بلى . . . لا تلحقان
بجمال أمى . . . ولكنهما لم يستو عودهما بعد . . . »
وكانت الجوقة تتأوه عازفة : « وراء النهر . وراء النهر يقف
حبيبي فى انتظارى . . . »

وخار العم جبريل بصوت أصم الفتاتين وأزعجهما : « يجب أن
أعود الآن . . . فان الجوكى الذى عندى ألغن من خلق الله يا هارى
لسوء حظى . ويجب أن أوثقه الى ظهر الفرس حتى لا يهرب . .
وقد وقع عن ظهر فيدلرأمن . . أتذكر فرس أمى ، الأنسة لوسى ؟
فرس اليوم سميتها ، فهى الآنسة لوسى الرابعة . ولم تبلغ واحدة
من الافراس الثلاث تلك الفرس الاولى . . ابق حيث أنت فساعود
اليك حالا . . . »

فقالت ماريا فى حسارة : « يا عمى جبريل . أبلغ الآنسة
لوسى اننا راها عليها . » فانحنى العم جبريل فوقها ، وكأنما
أغرو رقت عيناه الكليلتان بالدمع وزعق قائلا : « بارك الله فى قلبك
الرفيق و سأبلغها » . . وخاض الزحام ، وقد تقوس ظهره السمين
قليلا فى ثيابه الواسعة ، وقفاه العريض يترجرج فوق بنيقته
(ياقته) .

وشعرت ميراندا وماريا بخيبة الامل لما لمستاه من غرابة عند
أول مقابلة للعم جبريل العتيد ، ولا سيما لحشونة لغته وبعدها
عن الشاعرية المفروضة فيه . فجلستا غافلتين لا تلقيان الى
السباق بالا . . وقد فاتتهما الفرصة ، وضاع دولاراهما ،
وانقبض قلباهما . . بل انهما لم تتحركا الى أن هتف بهما
أبوهما فى حرارة وقد مال الى أمام : « أنظرا حصانكما . . .
أنظر الى الآنسة لوسى وقد أشرفت على الغاية » . . . فوقفت
فوق المقعد ، وكل عرق فى جسديهما ينبض نبضا عنيفا
حتى لقد عسر عليهما أن تركزا بصرهما . . ثم أبصرتا خطأ بنيا
صغيرا يمرق أمام مكان المحكمين . . انها لم تفز الا بمقدار طول العنق
فحسب ، ولكن - وافرحته - ! ، لقد فازت الآنسة لوسى ،
عزیزتهما الحبيبة ، فرس العم جبريل . . . فازت . . فازت . .
وقفزتا تتواثبان صائحتين مصفقتين ، فسقطت قبعتاهما

فوق عاتقيهما ، وتطائير شعورهما في كل اتجاه . وعزفت الموسيقى
النحاسية : مرحي مرحي أيتها الشابة ! « وجار الجمهور الحاشد
بالتفاف القاصف ، فكأنما قد سقطت أسوار أريحا !

وجلست الفتاتان كمن بهما دوار ، وراح والدهما يصلح من
شأن قيعتيهما ويسويهما فوق رأسيهما . ثم أخرج منديله
فوضعه على وجهه ميراندا وقال لها في رقة شديدة : « هيا
تمخطي » . . . ثم جفف عينيها أيضا منتهزا الفرصة ، ثم وقف
وأنهضهما هاشا لهما ، وقد تجعدا حول عينيها من أثر الضحك
العميق ، وقال لهما كمن يخاطب شابتين ناضجتين صحيهما
للنزهة : « هيا بنا نقدم احترامنا للآنسة لوسي . . فهي كوكب
اليوم » .

وأقبلت الجياد ، وكأنما غسلت جلودها بالماء والصابون لكثرة
ما عليها من الزبد ، وأضلاعها تعلو وتهبط ، وخياشيمها تفتح
وتقفل ، ومن فوقها الجوكية مقوسة ظهورهم ، هادئة
أسايرهم ، تهتز خواصرهم شيئا ما مع حركة الجياد التي
يركبونها ، وجعلت ميراندا ترقب هذا كله وتدخره لمقبل
الايام . . . فهكذا يقبل المرء من السباق ، هادئا مطمئنا ، ربح
الشوط أم خسر . . . وأقبلت الآنسة لوسي أخيرا ، فحياها
حفنة من الراحين ، وهتفوا للجوكي ، فابتسم ورفع سوطه ،
أما عيناها ووجهه المتغضن الاسمر فكانت ساكنة أتم سكون ، وكان
أنف الآنسة لوسي يرشح دما تساق في خطين غليظين على
فمها الرقيق وذقنها المستدير الناعم الذي خالته ميراندا اللطف
ذقن في الدنيا . وكانت عيناها زائغتين ، وركبتها ترتعدان ،
ولها شهيق مسموع .

ووقفت ميراندا تحمق في صورة ذلك الفوز ، فهذه صورة
أخرى له ، وانقبض قلبها للمعنى الفوز بالنسبة للآنسة لوسي ،
وسرعان ما لفظ قلبها ذلك النصر لفظا تاما ، ولم تدر كيف
تمت لها تلك الكراهية للنصر ، وأحسست بالحزى لانها كانت قد
صرخت وذرفت دموع الفرح لما رأت الآنسة لوسي تتجاز موضع
المحكمين سابقة بمقدار عنق ، وقد دمی أنفها ووجف قلبها على

هذا النحو ، وأحست بالفراغ والغثيان ، فقبضت على يد والدها
فى شدة بالغة ، حتى انه دفعها فى شىء من الضيق قائلاً : « ماذا
أصابك ؟ لا تكونى ملولا » ! وكان العم جبريل واقفا هناك فى
الانتظار ، وقد ثمل الى الغاية ، فلما رأى الفرس داخله مال فوق
الحاجز الابيض الناصع وأنجبر باكيا ، وقال : « أنفها دام ،
ينزف دما منذ أمس يا هارى ، وقد حسبنا أنها عوقيت ، ولكنها
عادت الى النزف ! ان قلبها كقلب الاسد وأنوى أن أستولدها
يا هارى ، فان قلبها يساوى وحده مليون دولار ، بارك الله
فيها ؟ » وأنساب دموعه فوق وجهه الاحمر الذى يحكى لون
الطوب ، ثم تخللت شاربه المشوش ، فأخرج منديلا كبيرا
جعل يمسح به وجهه كله وهو يتأوه قائلاً : « اذا وقع لها شىء
الآن فسأطلق الرصاص على رأسى ، فهى أملى الاخير ، لقد
أقنعت حياتى هذه الفرس ، فان الخطي كان قد تنكر لى تنكرا
حاطما . آه يا الهى ! هيا بنا يا هارى نذهب الى مكان نجتنى
فيه شيئا » ، فقال والدهما وهو يتناول كلا منهما باحدى يديه :
« يجب أن أعيّد الطفلتين الى المدرسة أولا يا جبريل » فقال
العم جبريل مستيئسا : « كلا كلا ، لا نذهب الآن ، انتظرنى
هنا دقيقة حتى أرى البيطرى وألقى نظرة على الأنسة لوسى
وأعود اليك ، لا تذهب يا هارى بربك ، فانى أود أن أتحدث اليك
حديثا يستغرق بضع دقائق » . . .

وكانت ماريا وميراندا واقفتين وراء العم جبريل ترقبان ظهره
المستراكم المزعزع ، فيجول فى خاطرها أن هذه هى المرة الاولى
التي تريان فيها رجلا يبدو عليه السكر البين ، وكانتا قد شهدتا
صورا وقرأتا وسمعتا من ضروب الوصف ما عرفتا به تلك الاعراض
لاول وهلة ، وشعرت ميراندا أن لتلك اللحظة أهميتها من جملة
وجوه ، فسألت أباهما فى شىء غير قليل من التباهى : « العم جبريل
سكر ، أليس كذلك ؟ » . فقال أبوها وقد قطب وجهه قطوبا
شديدا : « صه ! لا تقولى شيئا كهذا ، أو لن آتى بك الى هنا
بعد ذلك أبدا » وظهر عليه القلق والاكتئاب ، وظهرت عليه أكثر
من هذا وذاك علائم التردد والحيرة ووقفت الفتاتان متخسبتين

استياء من هذا الظلم الواضح ، وأطلقتا يديهما من يديه ،
وابتعدتا عنه فى فتور فوقفتا متجاورتين فى صمت ، ولم يلحظ
أبوهما ذلك لاشتغاله بالنظر الى الموضع الذى اختفى فيه العم
جبريل ، وعاد جبريل بعد بضع دقائق وهو لا يزال يمسح وجهه
كأنما يزيل عنه ما غشيه من نسيج العنكبوت ، وفى يده
قبعته الكبيرة السوداء ، فلوح لهما من مسافة قصيرة وصاح
فى بهجة : « ستكون عما قريب فى خير حال يا هارى ، فقد كف
النزف ، وتلك وربى أبناء تسرلها كثيرا الآنسة هنى ، فتعال
يا هارى نذهب الى البيت فنخبر الآنسة هنى ، فانها أهل لتلك
البشرى » فقال الوالد : « يحسن أن أعيد الطفلتين الى المدرسة أولا
ثم نذهب » ، فقال العم جبريل فى تعلق : « كلا ، كلا ، فانى
أريدها أن ترى الفتاتين ، فسوف تسر برويتهما غاية السرور
يا هارى ، فهاتهما معك » ، فهمست ميراندا فى أذن شقيقتهما :
« أذاهبتان نحن لمشاهدة سباق آخر من سباق الجياد ؟ » فقالت
ماريا : « دعى الغفلة ، فانه يعنى زوجته الثانية » ، وقال العم
جبريل : « فلنحضر عربية يا هارى ، ولناخذ ابنتيك كى تنتعش بهما
الآنسة هنى ، فلو جمعتهما فى اهاب واحد لكان شبههما بآمى
عظميا ، والله على ما أقول شهيد ، وأود أن تراهما الآنسة هنى ،
فطالما هويت أسرتنا يا هارى وان لم تكن بطبيعة الحال من الطراز
الواسع الافق فى النساء » .

وجلست ماريا وميراندا فى مواجهة السائق . وحشر العم
جبريل نفسه فى مواجهتهما بجوار أبيهما . وسرعان ما تعكر جو
العربة وتخثر بريح تنفسه . وكان يبدو محزونا مسكينا ، فرباط
عنقه مصروم ، وقميصه متكسر . وقال أبوهما لهما وكأنهما لم
تسمعا ما كان من حديث : « أنتما الآن ذاهبتان أيتها الطفلتان
لزيرة زوجة عمكما جبريل الثانية » ثم التفت الى جبريل
وقال له : « وكيف حال زوجتك فى هذه الايام ؟ فقد انقضت عشرون
سنة منذ رأيتهما آخر مرة ! » فقال العم جبريل : « هى دائمة
الوجوم والحق يقال . وقد انقضت عليها السنوات الاخيرة
وهى على هذا النمط من الوجوم الذى لا يفلح فى صرفه عنها

شيء • ولم تكن لها يوما بالحياد عناية واهتمام يا هارى ، كما
تذكر • ولم تذهب الى الحلبه منذ تزوجنا ثلاث مرات • وانى
لاذكر كيف كانت أمى لا تفلت شوطا واحدا لاي سبب •••
ما أعظم الفرق بينها وبين أمى يا هارى • فهى من طراز مختلف
وهى على الحقيقة من أحسن النساء فى الدنيا قاطبة ، ولكنها تكره
التغيير والنقلة ولا تعيش الا للغلام • « فسأله الوالد : « وأين
جاء الآن ؟ » فقال العم جبريل : « فى نهاية المرحلة الثانوية •
وهو غلام ناشط ، ولكنه شبيه بأمة غاية الشبه ، شبيها عجيبا •
وهى تكره البعد عنه وتريد المكث فى المدينة التى يتلقى فيها
علومه الى أن يفرغ من دراسته • ويؤسفنى أن ذلك غير ممكن وان
رغبت فيه • ثم جاء ذلك الحظ العاثر فكاد يقضى عليها وحق
الله • فأرجو أن توفق فى انعاشها بعض الشيء يا هارى •
فما أشد حاجتها الى الانعاش • »

وجلست الفتاتان الصغيرتان ترقبان الشوارع وقد أخذت فى
الكتابة والقذارة والضيق شيئا فشيئا ، ثم أسلمتهما الطبقة
الفقيرة من البيض الى الطبقة المتحملة فى لباسها من السود •
ثم الى الطبقة الزرية منهم • وبعد شوط جد طويل وقفت
العربية أمام خان صغير حقر المظهر فى حقول الاليزيه ، فأعان
الوالد ماريا وميراندا على النزول ، ثم أمر الحوذى بالانتظار ،
وتبع الثلاثة العم جبريل الى مدخل قذر تفوح منه رائحة
الزطوبة ، حتى لقد حارت ميراندا فى كنهها فقد وجدت
لها فى لسانها طعما ! ثم ارتقى الثلاثة سلما طويلا يعلوه بساط
رث ، ورفع العم جبريل بابا بغير نذير وهو يقول : « ادخلوا •
فها نحن » ، فهضت فجأة من مقعد هزاز متداع امرأة طويلة
القامة شاحبة المحيا ، يشبه شعرها فى لونه الدريس الباهت
الجاف ، وطالعتها بجفنين مقرحين • وكانت مرتدية
صدارا خشنا فيه خطوط زرقاء وبيضاء رأسية ، ونصف الثوب
الاسفل من قماش خشن أسود لامع • فلما وقع بصرها على
الزوار رفعت يديها الضخمتين الى غطاء رأسها الأنيق • وقال
العم جبريل فى بشاشة مصطنعة : « يا هنى • لن يخطر ببالك من
الذى حضر لزيارتك » ثم ضمها ضمة غير موفقة ، فلم يتغير وجهها ،

واستقرت عيناها على الزوار الثلاثة • فقال لها : « هذا هارى شقيق أمى يا هنى • ألا تذكرينه ؟ » فقالت الأنسة هنى وهى تمديدها على استقامتها كأنها مجتهد ، ودون أن تتنسم : « طبعاً • أنا أذكرك طبعاً يا هارى ! فاستطرد العم جبريل دافعا الفتاتين الى قدام : « وهاتان بنتا شقيق أمى » ، فمدتا يديهما فى غير قابلية ، فهزت الأنسة هنى كل يد منهما هزة واحدة يسيرة ثم أرسلتهما • واستأنف العم جبريل الكلام محاولاً أن يدعم الموقف الحرج : « أننا نحمل إليك بشرى سارة • فقد أظهرت الأنسة لوسى الهممة وظهرت عليهم اليوم جميعاً يا هنى • لقد عدنا الى الثراء يا صاحبتى فاهنتى وقرى عينا » ! فوجهت الأنسة هنى حياها الطويل البائس نحو زائريها ، وقالت وهى تتنهد : « اجلسوا » ، ثم جلست وهى تشير الى جملة مقاعد متداخلة • وكان فى الحجرة فراش ضخم ، من فوقه ملحفة بين البيضاء والرمادية ، وهناك أيضاً مغسل رخامى وستائر من المخزومات الحشنة تتدلى فوق النافذتين الصغيرتين ، ومعلقة صغيرة مقلقة فى غطاءها ثقب لمرور الدخان فى أنبوب ، وحقيبتان فى وضع غير مستقر كأنما قدم بهما أحد أو يوشك أن يرحل بهما أحد • وكل شيء فى الحجرة حقير قدر ، ولكن أحكم ترتيبه حتى لم يكن هناك دبووس فى غير موضعه • وقال العم جبريل مخاطباً هارى وزوجته معا : « سننتقل الى فندق القديس تشارلس غدا • فاجعنى خيرة أنوابك يا هنى ، فإن أيام القحط قد أنقضت » ! فضاقت طاقتا أنف الأنسة هنى ، واهتزت فى مقعدها فى بطاء ، وقد عقدت ذراعيها ، وقالت بصوت متمهل محتجز : « لقد عشت فى فندق القديس تشارلس من قبل • وعشت هنا أيضاً من قبل • وفى هذه المرة سأناير على الإقامة حيث أنا ، فشكروا الله ، فذلك أفضل عندي من العودة الى هنا بعد ثلاثة أشهر • فقد استقر بى المقام الآن ، وأخلدت الى هذا المكان • » وكانت وهى تتكلم مخاطبة زوجها تنظر الى هارى ، وقد تراقصت عيناها الباهتتان يلهب أزرق ، وارتسم حول فمها خط أبيض صارم • واجتهدت الفتاتان الصغيرتان ألا تحملا

وهما جالستان على مضض . وكانت جدتهما قد أصدرت
 حكمها بأن بنتي هاري لا سبيل لتعليمهما شيئا ، فهما أعصى من
 عرفت على التعليم فيمن خبرت من الصغار في عمرها الطويل !!
 ولكن الفتاتين كانتا قد تعلمتا بطريق غير مباشر أمرا واحدا على
 خير وجه ، وهو أن كرام الناس لا يفصحون عن خلافاتهم على ملأ
 من الغرباء . فالخلافات العائلية مقدسة ، وينبغي أن تسوى سرا
 فلا يتجاوز الصوت فيها الهمس والزمجرة الحبيسة في الحلوق .
 فإذا كان لا بد من الشحنة فمن وراء الابواب المقفلة والنوافذ
 المسدلة . وهذه زوجة العم جبريل الثانية تتوالب غضبا
 وتتهم أن تنقض على العم جبريل في أى لحظة ، وهو جالس
 كما يجلس الكلب عندما يلوح له بالسوط . وقالت ميراندا
 في نفسها : « أنها تكره كل من في هذه الحجرة وتحقرهم .
 وتخشى ألا نفطن الى هذا . وما كان لها أن تخشى . فقد أدركناه
 منذ وطئت أقدامنا المكان » ، وودت من صميم قلبها أن
 تنصرف . ولكن والدها لم يبدحراكا ، مع أن وجهه كان ميدانا
 خصبا للدراسة ، ويبدو أنه كان يفتش في ذهنه عن كلمة ظريفة
 يقولها . أما مارييا فشعرت بالتأثم وأن لم تدر لماذا . فجعلت
 تقول لنفسها مفكرة في سرعة : « ان هي الا زوجة العم جبريل
 الثانية ، والعم جبريل لم يكن الا زوج العممة آمي من
 قبل . فهي أذن ليست من قرابتنا مطلقا . واني لهذا مسرورة » ،
 ثم جلست على سجيتها ، وأطلقت يديها فاستقرتا مفتوحتين في
 حجرها مطمئنة الى أنهم سينصرفون بعد دقائق معدودات
 ولا شك ، ولا حاجة بهم للعودة بعدها أبدا ، وعندئذ قال الوالد :
 « لا بد أننا عطلناكما . فقد جئنا لنمكث بضع دقائق فحسب
 لاننا أحببنا أن نطمئن عليك » ، فلم تقل الا نسة هنى شيئا ،
 ولكنها حركت يديها من دون المعصمين حركة يسيرة كأنما
 لتقول : « ها قد رأيته وعرفت حالى . وبعد ؟ » . فقال الوالد :
 « يجب أن أعيد هاتين الصغيرتين الى المدرسة » . وقال العم جبريل
 بغياء : « انظري يا هنى . ألا ترين انهما تشبهان آمي بعض
 الشبه ؟ ولا سيما ما حول العينين . عينى مارييا على الخصوص . ألا
 تعتقد ذلك يا هاري ؟ » فرمقهما أبوهما تباعا ثم قرر : « لا أرى

هذا الرأي «. وراى الفتاتان أن شعوره بالخرج قد ازداد كثيرا ،
فالتفت الى الأنسة هنى قائلا : « اننى لم أر جبريل منذ سنوات
طويلة . وقد فكرنا فى الخروج معا كى نتحدث عن الايام الخوالى .
وانت تعرفين كيف تكون تلك الاحاديث » ، فقالت الأنسة هنى
وهى تتأرجح قليلا : « نعم أعرف » ، وبدا كل ما تعرفه
ناظقا فى صورة كراهية طاغية ومرارة قاسية تصلب لها جسدها ،
فانبعثت واقفة فى حق ، وقالت مرة أخرى : « أعرف » ، ثم
جلست مطرقة الى الارض وفمها يرتعد وهو ممدود . وران صمت
هائل انقطع بنهوض الوالد .

وعندئذ نهضت الفتاتان ، وهما تتماسكان لكى لا تندفعا
ملتصتين الباب . وقال الوالد : « يجب أن أعيد الصغيرتين الى
المدرسة . فقد اجتمع لهما مافوق كفايتهما فى هذا اليوم من
الجيشان ، فقد ربحت كل منهما مائة دولار على الأنسة لوسى .
لقد كان سباقا طيبا !

وبدا عليه الابتئاس التام كأنه لا يدرى كيف يلتمس المخرج
من هذا المأزق . والتفت الى جبريل يسأله : « أليس كذلك
يا جبريل ؟ » فقال جبريل بصوت مضضع : « لقد كان شوطا
عظيما . كان شوطا عظيما . » فوقفت الأنسة هنى ، ومشيت
نحو الباب خطوة ، وسألت أباهما : « أتاخذهما الى السباق
حقا ؟ » وأشارت اليهما بجفניה إشارة شعرت ماريا كأنها هما
فى نظرها حشرتان كريهتان !!

واستطردت الأنسة هنى تقول بجلاء « انى لافضل ، وأفضل
كثيرا جدا أن أرى ابنى ميتا تحت قدمى من أن أراه متسكعا حول
حلبة السباق » ! وساد الصمت للحظات التالية ، ولكنهم أخيرا
صاروا فى السلم ثم فى المدخل ، ومعهم العم جبريل يودعهم الى
العربة . وكان وجهه مهموما ، ولامحه متداعية ، كأنما أعربت
من اللحم عظامه ، وانتفخ جفناه وازرقا . ثم قال بلهجة المفيق :
« وداعا ياهارى . وكم تعتزم المكث هنا ؟ » فقال هارى :
« سأعود غدا . فأنى لم أحضر الالهمة صغيرة ، ولارى البنيتين
وأطمئن عليهما » فقال العم جبريل : « لا بأس . وقد أمر

بموطنك في الريف يوما ما. وداعيا ابنتي » .. ثم هز يديهما تابعا
بيده الكبيرة الدافئة ، وقال : « انهما طفلتان لطيفتان ياهارى ،
وقد سررنى أن تربحا على الآنسة لوسى » وفي حنان استطرده قائلا :
« لاتنقما ما لكما هباء . والى الملتقى ياهارى » ..

وفيما كانت العربية تبتعد وقف هو هناك بدينا متهدما ، وقد
رفع ذراعه يلوح لهم بيده . فقالت ماريا بأقصى ما استطاعته من لهجة
الكبار وهى تخلع قبعتها وتعلقها فوق ركبته : « ياله السماء !
الحمد لله اننا انتهينا » ! فقالت ميراندا : « ما أريد أن أعرفه هو
هل العم جبريل سكير حقيقة ؟ » فقال والدهما محتدا : « صه !
فأنى أشعر بحرقان في المعدة » فساد الصمت احتراما لحالته ،
كما يصمت الناس أمام أثر عام . فعندما يشعر والدهما بحرقان
المعدة ، فذلك أوان الاخلاص للسكينة والتطامن .

ودرجت العربية عائدة الى الشوارع النظيفة الوضيئة
بالانوار التى تنبعث في أوائل ظلمات فبراير من نوافذ الحوانيت
وواجهاتها المتألقة ، مارة بالطرق الممهدة والبيوت العتيقة الحسنة
ذات الحدائق الواسعة ، وبلاساوار القاتمة التى تتراعى من فوقها
الاشجار العالية الملتفة . وجلست ميراندا تعمل الفكر اعمالا شديدا ،
حتى لقد نسيت نفسها وقالت على عهدهما في قلة التدبر : « لقد
قررت ألا أغدو جوكية مهما يكن » ! وكان من الممكن كالعادة
أن تبض على لسانها فلا تفصح ، ولكن كالعادة ايضا فاتها ذلك .

ودهش والدها وغمز لها شأن العارف بما هناك . وكأنه لم يدهش
لقولها أدنى دهشة ، وقال : « حسنا ! حسنا ! اذن سوف
لاتغدين جوكية ! ذلك منك تعقل عظيم . واعتقد ياماريأ أنها ينبغي
ان تغدو مروضة أسود ! فما رأيك ؟ فهذه حرفة انثوية لطيفة » !
ولما رأت ميراندا ماريأ تندمج فجأة من قمة أعوامها الاربعة عشر فى
الضحك منها مع والدها ، قرر قرارها فوراً ، فضحكت معها
من نفسها . وحسنا فعلت ، فقد ضحك الجميع ، وسرى ذلك عنهم
كثيرا . وسألت ماريأ فى قلق : « أين دولاراتى المائة ؟ فأجاب
الوالد : « سأضعها لحسابك فى المصرف ، وكذلك دولاراتك

ياميراندا ، قتلك خميرة صالحة لمدخراتكما » . فقالت ميراندا
التي سئمت انفاق هدية العيد من النقود التي تتحفها بها الحدة :
« هكذا لن يشتروا لى بها جوارب ، فعندى من الجوارب ما يكفينى »
وقالت ماريا التي كانت تضيق بالثروة المحدودة : « كنت أتمنى
أن أشتري جوادسباق ، ولكننى أعلم أنها لا تكفى ، وماذا يمكن أن
يشتري الانسان بمائة دولار ؟ » فقال أبوهما : « لاشئ ، لاشئ »
على الاطلاق . فليست مائة الدولار الا شيئا يودع فى المصرف »
وفقدت ماريا وميراندا الاهتمام بالموضوع ، فحالهما الآن أنهما
ريحتا مائتى دولار على جوادسباق ذات مرة . ولكن أصبح
هذا الآن فى حيز الماضى البعيد . وأنشأتا تتحدثان فى شئ آخر .



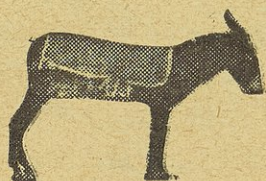
وفتحت الراهبة الساهرة الباب بواسطة جبل طويل من وراء
السور ، ودخلت ماريا وميراندا صامتين الى عالمهما المألوف ، ذى
الارض السارية اللامعة ، والطعام المغذى الساذج ، وماء الاغتسال
البارد ، والصلوات المنتظمة المتواترة . الى عالمهما الذى يتسم
بالفقر ، والطهارة ، والطاعة ، والنوم المبكر ، واليقظة الباكرة ،
والتواعد الصارمة ، والتهامس . . . وكان الازعان يبدو على
وجهيهما البرئين حين رفاهما التلقى القبلات من أيهما الذى قال
لهما فى جد غريب طالما اتسم به وهو يودعهما : « كونا فتاتين
صالحتين . واكتبنا لايكمارسائل رقيقة مطبولة » . وقبض على
ذراعيهما فى حزم لحظة طويلة ، ثم أطلقهما فانطلقتا . واختفى بعد
ذلك ، فأغلقت الراهبة الباب من خلفه .

وصعدت ماريا وميراندا الى غير التوم ، كى تغسلا وجهيهما
ويديهما وتمشطا شعريهما قبل العشاء . وكانت ميراندا جائعة
فزمجرت قائلة : « اننا لم نظفر بشئ نأكله . ولو قضيبا من
الشكلاته بالبندق ، وأرى ذلك من الشح بمكان . ولم نحصل ولو
على ربع دولار ننفقه » فقالت ماريا وهى تصب الماء البارد فى
طست وتطوى كميهما : « لالغمة ولا فلسا ! »

ودخلت فتاة فى مثل سن ماريا ، فاتجهت الى طست قريب من
قراش آخر وسألتها : « أين كنت ؟ هل استمتعت بنزهتك ؟ »

فقال ماريا وهى تفسل يديها : « لقد ذهبنا الى السباق مع
أبينا » ، وقالت ميراندا : « وبيع حصان عمنا » ، فقالت الفتاة ،
« يا الهى ! هذا ولا شك كان شيئاً رائعا ! »

فنظرت ماريا الى ميراندا التى كانت تطوى كميها ، وحاولت ان
تشعر بالاستشهاد . ولكنها لم توفق . فقالت وقد التمعت
عينها اذ هى تجففهما بمنشفتها : « أسبوع آخر فى الحبس !! »



القسم الثالث

١٩١٢

تبعث ميراندا حاجب عربات النوم هابطة ممشاها المزدهم ،
وقد أسدلت في القمرات الستائر الخضراء المغبرة ، وفرشت السرر
كلها تقريبا للمبيت ، الى أن بلغت مقعدا في طرف العربة
القصى ، فقال لها الحاجب : « سيكون سريرك معدا في أى لحظة
لاستقبالك يا آنسة » فقالت ميراندا : « ولكنى أود أن اجلس
هنا بعض الوقت » . فرفعت سيدة عجوز شديدة النجافة
عينها السوداءين اللتين تنبئان عن مزاج دموى وسرعة احتياج ،
فشخصت بهما اليها في نظرة تنم عن الانكار السافر الخالص .
وكانت لها سبتان أماميتان هائلتان وذقن غائر ، يبد أنها لم تكن
منقوصة الشخصية . وكانت قد كومت حقائبها حولها كأنها
المتاريس ، وحملت في الحاجب حينما تناول بعض تلك الحقائب
ليفسح في المكان للراكبة الجديدة . وجلست ميراندا وهي تقول
بلهجة آلية : « هل لى ان اجلس » فقالت السيدة العجوز : « لك
ان تجلسى طبعاً ! » وكان تقدمها في السن باديا على الرغم من
حيوية فيها ذات صبغة خاصة من التوفروالخفة . وكان صدارها
من قماش صلب يصر صرير مفصلات الابواب كلما تحركت .
وبعد أن سكنت نصف ثانية ، استطردت في تهكم لاذع قائلة :
« يحسن اذا سمحت أن تقومى من فوق قبعتى ! » فنهضت
ميراندا كالمدوغة ، وقدمت الى السيدة العجوز ابتكارا مشوشا
من شعر الخيل الاسود المجدول وزهور الخشخاش البيضاء
المحطمة وهي تغغم متلعثمة : « انى آسفة أشد الاسف ، فلم

يخطر لى مطلقا أن هذه قبعتك!» . . . فقد تعودت بحكم نشأتها أن تعامل العجائز الشرسات باحترام، وكانت هذه العجوز قمينة فيما يبدو أن تصفعا توا فى اللحظة ، فسألها العجوز وقد كشرت عن أسنانها ووضعت القبعة فوق سبابتها كى تعيدها الى شكلها الاول : « وقبعة من خلقتها تكون؟ » فقالت ميراندا فى شىء من الحنق العصبي : « لم أحسبها قبعة على الإطلاق » ! فقالت العجوز « لم تحسبها قبعة ، أين عيناك اذن يابنية ؟ » وكى تبرهن على كنه ووظيفة موضوع النزاع وضعته فوق رأسها فى زاوية منحرفة شيئا ما ، فلم يشبه القبعة مع هذا كثيرا . . واستطردت : « والآن أرايت أى شىء هى ؟ » فقالت ميراندا فى تواضع أملت أن يكون حاسما فى كف العدوان : « طبعا ، طبعا » ثم خاطرت بالجلوس بعد أن فحصت جيدا ذلك الحيز الضيق الذى تهم أن تشغله . فقالت السيدة العجوز : « لا بأس . فلندع الحجاب ليرفع بعض هذه الكراكيب » وضغطت الجرس بأصبعها النحيل المدبب . وتلت ذلك ترتيبات صاخبة . وقفنا فى أثنائها فى الممشى ، والعجوز لا تكف عن اصدار سلسلة من الارشادات المستحيلة التنفيذ الى الزنجى الذى احتملها بصبر فلسفى ، وراح يرتب الحقائق على النحو الذى ارتآه هو أصلا . ولما استقر بهما المجلس سألتها العجوز بلهجة تتسم بالاستعلاء والتنازل معا : « وماذا عسى أن يكون اسمك يا بنية ؟ » فلما أجابتها ميراندا ، اختلج جفناها ، وفتحت نظارتها فركبتها فوق أرنبة أنفها تركيبا ينبى عن خبرة ، وحملت طويلا فى امعان فى وجه جارتها ، ثم قالت فى صوت متغير تغيرا عجيبا : « لو كانت نظارتى على عيني لعرفتك لأول وهلة بغير حاجة الى سؤال . فأنا بنت عمك ايفا بارنجتون . ابنة عمك مولى بارنجتون . أتذكرينها ؟ لقد عرفتك وأنت طفلة . وكنت دافقة الحيوية ، شديدة العناء . وآخرما سمعته عنك أنك كنت تزمعين أن تكونى بهلوانة ، وتتمرنين على عزف الكمان وأنت سائرة فوق حبل مشدود » ! فقالت ميراندا : « لا بد أننى رأيت هذا المنظر فى مسرح استعراضى ، فما كنت لأخترعه . أما الآن فأحب أن

أغدو قائدة طائرة » ! فقالت العمه ايها وقد شغلته خواطرها :
« لقد كنت فيما مضى أذهب الى المراقص مع أبيك • وإلى حفلات
الاعيان الكبرى فى بيت جدتك • وكان ذلك قبل موامدك بكثير •
نعم قبل ذلك بكثير جدا » • فتذكرت ميراندا جملة أشياء فى
الحال ، فالعمه أمى كانت تهدد بأن تغدو عانسا مثل ايها •
أجل ، أن مشكلة ايها أن ليس لها ذقن ، فطرحت ايها من ذهنها
الزواج ، وراحت تعلم اللغة اللاتينية فى دير للنساء • ثم
تجملت ايها لحق المرأة فى التصويت ، كان الله فى عونها ،
ومزية الابنة القبيحة الشكل أنها غير قادرة على أن تجعل منى
جدة • ثم قالت ميراندا فى نفسها : « لم تفدك فائدة تذكر
تلك الحفلات يا بنت عمى العزيزة ايها » ! فاذا بايها تقول بصوت
مرتفع وكأنها قد قرأت أفكارها : « لم تفدنى هذه الحفلات فائدة
تذكر » ، فدار رأس ميراندا خيفة أن تكون قد فكرت بصوت
مسموع • واستطردت بنت العم ايها تقول : « أو هى على الاقل
لم تؤد وظيفتها أو الغرض منها • فانى لم أتزوج أبدا ، بيد أنى
تمتعت بتلك الحفلات كثيرا على كل حال ، وأدنت منها سعادة
وسرورا ، مع أننى لم أكن حسناء •• اذن فأنت ابنة هارى • وكنت
أنشاجر معك • أتذكريننى أم لا ؟ » فقالت ميراندا : « نعم » ،
واستنتجت أن ايها وان كانت عانسا عجوزا منذ عشر سنين
الا أنها لا يمكن أن تكون قد تجاوزت اليوم الخمسين من عمرها ،
ومع هذا فهى تبدو شديدة الهزال والوهن ، ضاوية غائرة
الحدين ، عجوزا بوجه ما بمعنى الكلمة • عبر الهوة السحيقة التى
تفضل بنت العم ايها عن شبابها هى ، نظرت ميراندا فى توجس
أليم وقالت لنفسها « أهكذا اذن لا بد أن أبدو يوما ما ؟ » ثم
قالت بصوت مرتفع : « نعم أذكرك • فقد كنت تقرئيننى
اللاتينية وتقولين لى ألا أعيا بالمعنى ، وانما المهم الآن أن أعى
الصوت والوقع ، ثم يغدو الفهم بعد ذلك أمرا يسيرا » فقالت
ايها متهجة : « نعم ذلك ما كنت أصنع • أولا تتذكرين أنه كان لى
ذات مرة ثوب جميل من المخمل بلون الياقوت الازرق (الصغير)
ذو ذيل جراز ؟ » فقالت ميراندا : « كلا ، لا أتذكر هذا الثوب » •

فقالت ايها : « لقد كان ثوب أمي من قبل ، فأعطتني اياه فأصلحته ، بيد أنه لم يناسبني مطلقا . ومع هذا كان الثوب الوحيد الجيد الذي حصلت عليه . واني أذكر هذا كما لو كان قد وقع بالامس . فما كان الا زرق يوما من الايام لو نتي المناسب » ، وتنهدت في مرارة مموهة بالتجمل الضاحك . ولكنه كان تجملا موقوتا ، أما المرارة فصففتها الملازمة . فقالت ميراندا محاولة أن تقدم لها ما ينبغي ابداءه من العطف على المعذبين من بني الانسان : « أعرف هذا الذي تتحدثين عنه . فطالما أصلحوا ثياب ماريا لي ، فلم تكن تناسبني . وكان هذا فظيعا » ! فقالت ايها بلهجة من لا تود أن يشاركها أحد في خبيثتها الفذة : « وكيف حال والدك ؟ قد كنت دائما أميل اليه ، لانه كان من أوسم الشبان الذين رأيتهم في حياتي . وهو مغرور أيضا شأن أفراد أسرته جميعا . فلا يركب الاخير ما يستطيع أن يشتري من الجياد . وكنت أقول عنه أنه يركبها ليتواثب بها ثم يرقب خياله ! وكنت أقول ذلك عنه في حفلات العشاء ، ودرهني لذلك . أجل ، أعتقد يقينا أنه كرهني . » وكان شيء في لهجتها يبرر قدرتها الخاصة على استرعاء الانتباه واثارة الانفعال وهي تكرر سؤالها « لقد سألتك يا عزيزتي كيف حال أبيك ؟ » فقالت ميراندا بسرعة قبل أن تستطرد ايها في الكلام : « اني لم أره منذ عام تقريبا . وأنا الآن عائدة الى البلدة لتشجيع جنازة العم جبريل . فقد مات العم جبريل كما تعلمين في لكسنجتون ، ثم جاءوا به ليدفن بجوار العمة أمي » . فقالت ايها :

« هكذا اذن قدر لنا أن نتلاقى ، فقد عب جبريل الخمر حتى أمكنها من القضاء عليه أخيرا ، وأنا أيضا في طريقي الى جنازته ، فاني لم أعد الى البلدة منذ ذهبت لتشجيع جنازة أمي ، وذلك منذ ؟ دعيني أتذكر ، أجل ستنقضي تسعة أعوام كاملة على موتها في يوليه القادم ، وها آنذا ذهب لتشجيع جنازة جبريل ، فما كنت لأتخلف عنها ، يا له من مسكين ! لقد شقى بحياته ! وعما قريب يمضون جميعا » . فقالت ميراندا : « ونبقى نحن

يا بنت العم ايها ! وكانت تعنى جيلها من الشباب ، فقالت ايها :
« ستعمرين طويلا ، وسوف لا تعين بالحضور لتشيعنا ! »
ولم يبد عليها أنها ترى فى ذلك بأسا ، وانما تفوهت بهذه العبارة
شأن المرأة التى تعودت أن تقول كل ما يخطر ببالها .

وجلست ميراندا تقول فى نفسها : « ومع هذا أظنه يخلق بى
أن أقول لها شيئا يحملها على الاعتقاد أن رحيلها ورحيلهم أجمعين
سيكون فجيعه ، ولكن .. ولكن ! »

وبابتسامة أملت أن تمحو بها تهكم ايها بالجيل الجديد قالت :
« لقد أصبت فى صدد اللغة اللاتينية يا بنت العم ايها . فقد
كانت قراءتك لى عونا حينما شرعت فى دراستها ، وما زلت
أدرس ، أدرس اللاتينية أيضا » فقالت ايها محتدة : « ولماذا
لا تدرسين ؟ » ثم أضافت برقة فجائية : « سرنى أنك أزمعت
استخدام عقلك بعض الشيء يا بنية ، فلا تدعيه يصدأ ،
وسوف يحل لك عقلك كل المسائل التى تعين بها ، وسوف
تكون لك فى ذلك مسرة بعد أن تسلبى كل شيء ! » ، فارتعدت
ميراندا للهجتها الكنيية ، واستطردت ايها قائلة : « لقد
كنا ريفيين جدا فى ذلك الركن من الريف فى زمننا ، فما كانت
لتجسر امرأة على التفكير أو العمل مستقلة بنفسها .. وكان العالم
كله يتجه هذه الوجهة ، بيد أننا كنا فى ذلك أسوأ الناس
فيما أعتقد ، وأظنك لا بد قد علمت كيف كافحت فى سبيل
فوز المرأة بحق التصويت ، فى وقت كاد ذلك يهدر اعتبارى ،
فطردت من وظيفة التدريس فى الدير ، بيد أننى راضية عما
فعلت ، ولا فعلنه مرة أخرى لوعاد الزمن على أعقابيه ، ولستم
معشر الشباب بمقدرين هذا الامر على حقيقته ، وسوف
تعيشون فى عالم أفضل لاننا عملنا على تحقيقه ! » ، وكانت
ميراندا تعرف بعض الشيء عن ماضى حياة ايها ، فقالت باخلاص :
« أعتقد أن ذلك كان اقداما منك ، وانى لسعيدة أنك أقدمت عليه ،
فقد أحببت شجاعتك » ! فقالت ايها رافضة ذلك الثناء فى

ضيق « ما كان ذلك منى مظهرة يا فتاة ، فالشجاعة شىء فى مقدور كل ذى غفلة ، فقد كنا نعمل فى سبيل هدف كنا نعلم أنه حق ، ثم تبين أنه لا بد لنا من كثير من الشجاعة كى نبلغه وهذا كل ما هناك ، ولم أكن أتوقع أن يزج بى فى السجن ، ولكنى سجننت ثلاث مرات ، وانى على استعداد لان أسجن ثلاث مرات مضروبة فى ثلاث لواقضى الامر ذلك ٠٠٠ لم نحصل على حق التصويت بعد ، ولكننا سنصوت حتما » .

ولم تغامر ميراندا بالرد ، بيد أنها أحست بالاقتناع بأن النساء سوف يصوتن فعلا عما قريب ما لم يقع لايفا مكروه ٠٠ فقد كان فيها شىء يهيب بك أن مثل هذه الامور مما يركن اليها فيها ٠٠٠ وسرت فى ميراندا نفسها حماسة غامضة لهذه القضية ، فهى تبدو حافلة بالبطولة أهلا للتضحية ، ولكنها أيضا مثبطة لعزائم الخائضين فيها من بعد ، لان ايها قد اكتشحت الميدان فلم تدع لمن يأتى على أعقابها مجالا .

وسكتتا لحظة ، فتشت فيها بنت العم ايها فى حقيقة يدها ، مستخرجة نقائض شتى : أقراصا من النعنع ، وقطرة للعين ، وورقة ابر ، وثلاثة مناديل ، وقارورة صغيرة من عطر البنفسج ، وكراسة عناوين ، وزريرين أحدهما أسود والآخر أبيض ، وأخرجت أخيرا لفافة مسحوق للصداع ، ثم طلبت من ميراندا أن تأتيها بكوب ماء ، ثم صبت المسحوق على لسانها وابتلعت الماء ، ووضعت قرصين من النعنع فى فمها ٠٠٠ وقالت بعد قليل ، وكأنها خفة حدة الصداع قد وجهتها فى الحديث وجهة جديدة : « هم الآن اذن بسبيل دفن جبريل بجوار أمى ٠٠٠ ان الانسة هانى كانت تسر لذلك ، لو أن المسكينة علمت ٠٠ فبعد أن قضت خمسا وعشرين سنة فى الاصغاء لقصص عن أمى ، ها هى قد أكرهت على الرقاد فى قبرها بمفردها فى لكسنجتون ، فى حين يتسلل جبريل الى تكساس كى يضاجع أمى مرة أخرى ٠٠٠ لقد كانت تلك خيانة منه مدى الحياة ، يا ميراندا ! أعقبتها الآن خيانة مدى الابد ٠٠٠ ما كان أجدره

أن يخزى ! » فقالت ميراندا وهي تعجب فى نفسها ماذا كانت صورة
 الآنسة هانى قبل أن تبدأ متاعبها الطويلة مع العم جبريل : « لقد
 كانت العمة آمى محبوبته ، أولا على الاقل ٠٠٠ » فقالت ايفا وقد
 لمعت عينها : « آه من آمى هذه ! لقد كانت عمته آمى شيطانا
 وصانعة سوء ، ولكنى كنت أحبها كثيرا ٠٠ وكنت أدافع عن
 آمى فى حين لم تكن سمعتها حقيقة بالدفاع ٠ » وطرقت
 أصابعها كطرقة الصنج واستطردت : « لقد كانت تقول لى
 بطريقتها الناعمة المرحه ، يا ايفا ، اياك أن تتكلمى عن حق المرأة فى
 التصويت عندما يطلبك الفتان الرقص ، ولا تتلى عليهم قصائد
 لاتينية ٠٠٠ فقد غثيت نفوسهم من ذلك فى المدرسة ، بل أرقص
 ولا تتكلمى يا ايفا ! » ثم تقول لى وفى عينها خبث الشياطين :
 « وارفعى ذقك الى أعلى يا ايفا » ، فقد كانت ذقتى هى نقطة ضعفى
 كما ترين ٠٠ « فلن تظفرى بزواج ما لم تلتفتى لذلك ، ثم تضحك
 وتندفع خفيفة ٠٠ ولكن الى أين اندفعت ؟ » وبعينها الصغيرتين
 المتوقدتين ألزمت ميراندا بالتبصر فى واقع المسألة المر ، وهى تقول :
 « ٠٠ الى الفضيحة والموت ٠٠٠ لا الى سواهما » ، فقالت ميراندا
 فى براءة : « لقد كانت تمزح يا بنت العم ايفا ٠٠ وكن الجميع
 يحبونها » فقالت ايفا فى انتصار : « ليس الجميع » هيهات ! فقد
 كان لها أعداء ، ولكنها حين تعلم ذلك تتجاهله ، واذا أهمها ذلك
 لم تظهر الاهتمام ، فلم يكن فى مقدورك أن تحملها على الشجار ،
 لانها كانت مع الجميع فى عنوبة قرص الشهد ، مع الجميع ، وكان
 هذا هو الاشكال ٠٠٠ فدرجت فى الحياة كالعزيزة المدللة ، تفعل
 ما يروق لها ، ويشقى الآخرون بسببها ، ويتعثرون فى الحطام ٠٠
 ولم أصدق لحظة واحدة ٠٠ » ثم وضعت فمها على أذن ميراندا
 وجعلت تنفث ريح النعنع فيها حارا وقالت : « لم أصدق لحظة
 واحدة أن آمى امرأة دنسة ٠٠٠ مطلقا ! ولكن صدقنى أن
 الكثيرين كانوا يحسبونها كذلك ٠٠ وكان الكثيرون يشفقون على
 جبريل المسكين لعاه عن حقيقتها ، كثيرون جدا لم يدهشوا حين
 سمعوا أن جبريل كان شقيا غاية الشقاء فى مدة شهر العسل
 فى نيو أورليانز ، انها الغيرة ، ولم لا ؟ ولكنى كنت أقول لهؤلاء

الناس انه مهما كانت الظواهر ، فاني موقنة بظاهرة آمي . . .
طائشة هي ، نزقة هي ، ولا قلب لها . . ولكنها طاهرة في صميم
اعتقادي . . ولكن كيف تلومين من يزيغ بصره فيسيء بها الظن ؟
فان نهوضها فجأة من فوق أعتاب الموت للزواج من جبريل برو
بعد طول رفضها اياه ومعاملته معاملة الكلاب سنين عدة ، كان
أمرا غريبا ، في أخف الاقوال ، في أخفها جدا . فالغربة لفظ
مترفق في نعت هذا الامر ، ثم كان في وفاتها عنصر غامض جدا ،
اذ ماتت بعد زواجها بستة أسابيع فقط !

وتنبت ميراندا ، فقد شعرت أنها تعرف هذا الجزء من القصة
وفي مقدورها أن تصحح هذا الجانب لبنت عمها ايفا ، فقالت :
« لقد ماتت بنزيف ؟ في الرئتين ، بعد أن طالت بها العلة خمسة
أعوام ، ألا تذكرين ؟ » ولكن ايفا كانت متأهبة لهذا الرد ،
فقالت : « ها . هذه هي القصة حقا ، الرواية الرئيسية كما
يقولون . أجل ، طالما سمعت هذا ، ولكن هل سمعت
يوما بالمدعو رايمون من أبروشية كلكازيو ، وهو يكاد يكون
أجنيا ، يبدأنه أقنع آمي بالهرب معه من حفلة راقصة ذات ليلة ،
فخرجت معه في جوف الظلام دون أن تتأمل لاخذ دثارها ،
واذا بأبيك العزيز اللطيف هاري المسكين - ولم تكوني أنت قد
خطرت بالحسبان يومئذ - يجرى فيطرحة أرضا ويطلق النار
عليه ؟ » فاضطجعت ميراندا الى الوراء أمام تيار الكلام الدافق ،
وقالت : « يا بنت عمي ايفا ، لقد صوب أبي نحوه النار ، ألا
تذكرين ؟ ولكنه لم يصبه . . . » فعلقت ايفا على ذلك قائلة :
« للأسف الشديد » واستطردت ميراندا قائلة : « . . . وكانا قد
خرجا معا لتنسم نفحة من الهواء بين الرقصتين . وكان سبب
المسألة كلها غيرة العم جبريل . فأطلق أبي على الرجل النار ،
اعتقادا منه أن ذلك خير من التخلية بين العم جبريل ومبارزته
من أجل العمة آمي . فلم يكن في المسألة كلها شيء عدا غيرة
العم جبريل . » فقالت ايفا ، وقد انبثق الرثاء من عينيها وميضاً
كأنه نصال الخناجر : « أيتها الطغلة المسكينة : أيتها الساذجة :
هل تصدقين هذا ؟ ما عمرك الآن ؟ » فقالت ميراندا : « أتمت

عامي الثامن عشر أخيرا ، ، فقالت ايضا في لهجة النذير : « لم تفهمي ما أقوله لك ، فستفهمينه فيما بعد . ولن تضيرك المعرفة ، ولا ينبغي أن تعيشي في ضباب من الخيال عن وقائع الحياة . وستفهمين ما أعني عندما تتزوجين على كل حال » . فقالت ميراندا وقد شعرت لأول مرة تقريبا أنه قد تكون لذلك مزية : « أنا الآن متزوجة يا بنت العم ايضا ، منذسنة تقريبا . وقد هربت من المدرسة » . وبدأ ذلك لها غير حقيقي حتى وهى تذكره بلسانها ، كما بدا لها أن ليست له صلة على الاطلاق بالمستقبل . ومع هذا فهو مهم ، وينبغي ذكره ، لأنه مركز في الحياة يبدو أن الناس يدققون في صده كثيرًا . وكان الشعور الوحيد الذي استطاعت أن تثيره في نفسها بخصوصه هو الاحساس بالاعياء الشديد ، فكان الزواج علة عسى أن تأمل يوما في الابلال منها ، فصاحت ايضا مروعة حقا : « يا للعار . يا للعار لو أنك ابنتي لأخذتك الى البيت وصفعتك » ! فضحكت ميراندا ، لان ايضا كانت تعتقد فيما يبدو أن الاشياء يمكن أن تسوى على هذا النحو . فكانت جادة صارمة مضحكة مبهوتة . وأجابتها ميراندا مناجزة : « يجب أن تعلمي اننى كنت أبادر الى الهرب ثانية من أقرب نافذة . فما دمت قد هربت فى المرة الاولى . فلماذا لا أهرب ثانية ؟ » فقالت ايضا : « أظن هذا . وأرجو أن تكوني قد تزوجت غنيا » . فقالت ميراندا : « ليس كثيرا جدا ، ولكن بما فيه الكفاية » ، كأنما يمكن أن تتمهل الواحدة لتفكر فى مثل هذا ! وسوت ايضا نظارتها وراحت تقيس بنظرها ثوب ميراندا وحقائبها ، وتفحصت خاتم خطبتها وخاتم زواجها ، وخيشوماها يختلجان كأنما تريد أن تنسم منها ريح الثراء ، ثم قالت : « لا بأس . شئ خير من لا شئ . » واني أحمد الله فى كل يوم من أيام حياتي أن لى دخلا صغيرا . فذلك عماد الشيخوخة ، فماذا كان يحدث لى لو لم يكن عندى مال خاص ؟ واعتقد أنك قادرة الآن أن تصنعى لاسرتك شيئا » . فتذكرت ميراندا ما كانت تسمعه دواما عن آل بارنجتون . فقد كانوا شرهين الى المال ، يحبونه ولا يحبون شيئا سواه . واذا وصلت أيديهم الى شئ منه كنزوه ، وكان الدم فى نظرهم أرق من الماء اذا اتصل الامر بالمال ، فقالت ميراندا معتبرة

نفسها باصرار من أسرة أبيها لامن أسرة زوجها ، وفي عنجهية الفقر : « نحن فقراء فعلا • ولكن ليس الزواج من ثرى مخرجا لنا من الفقر • » وكأنها كانت تعنى أن تقول لها : « لقد جهلت فرعنا فى الأسرة يا بنت العم أن كنت قد ظننت بنا ذلك الظن ! » فأجابتها ايضا على عاداتها المخيفة فى استراق العبارات من ذهن محدثها : « ان فرعكم فى الأسرة لم يرزق من الزكاة العملية نصيبا يزيد على نصيب كثير من الاطفال » • وبان على وجهها الغثيان وهى تستطرد قائلة : « كل شئ عندكم مبذول فى سبيل الحب • كذلك أنتم ، وكان فى وسع جبريل أن يغدو ثريا لو أن جده لم يحرمه من الميراث ، ولكن هل رزقت أمى من العقل ما يحملها على الزواج منه كى يستقر فى رضى عنه جده ؟ كلا • وماذا كان جبريل حريا أن يصنع بغير مال ؟ ليتك رأيت الحياة التى سامها الآتسة هنى ، فيشترى لها يوما ثيابا من باريس ، وفى اليوم التالى يرهن قرطياها ، فكل شئ رهن بأرجل الجياد وقدرتها على السبق ، وكانت قدرتها تزداد فى كل يوم سوءا ، وجبريل يزداد فى الشراب انغماسا • فلم تقل ميراندا أنها رأت بنفسها شيئا من هذا • وانما انصرفت الى تخيل الآتسة هنى فى ثياب من صنع باريس ، ثم قالت : « ولكن العم جبريل كان مجنوننا بعمتى أمى ، فلم يكن عدم زواجها منه فى النهاية موضع بحث ، غنيا كان أو فقيرا » فزمت ايضا شفيتها فوق أسنانها ، ثم كشفت عنها ومالت فوق ميراندا وقد قبضت على ذراعها ، وهمست قائلة : « أن ما أتساءل عنه ، وأتساءل عنه مرارا وتكرارا هو أى علاقة لذلك المدعو رايمون بزواج أمى من جبريل • وماذا اقتربت أمى حتى أقدمت على الانتحار بعد ذلك بزمان وجيز ؟ فان أمى - وألقى بالك الى كلماتى يا بنية - لم تكن مريضة الى هذا الحد • فقد ظلت تسرح وتمرح سنوات بعد أن قال لها الاطباء ان رثيتها ضعيفتان • فأمرى قد قتلت اذن نفسها هربا من عار أو من فضيحة كانت تواجهها • وومضت عينها السوداوان الجزيرتان ، حتى غدا وجهها مروعا فى وضوحه واصراره ، وهمت ميراندا أن تقول : « كفى ، واتركيها ترقد بسلام ، فماذا فعلت بك ؟ »

ولكنها استتحت وتخاذلت ، وشعرت فى أعماقها بلذة بشعة
لما تستثيره ايضا من فظائع وظلمات . فما هو يا ترى ختام
هذه الفصة ؟

واستطردت ايضا قائلة : « لقد كانت فتاة سوء طائشة . ولكنى
كنت مشغوفة بها الى الغاية . وقد تورطت فى مأزق على نحو ما ولم
تجد لها منه مخرجا ، وعندى كل مسوغ للاعتقاد بأنها قتلت نفسها
بذلك العقار الذى أعطوه لها للتسكين ألها بعد النزف . فان
لم يكن ذلك ، فما الذى حدث اذن ؟ » فقالت ميرندا وكأنما فى
ذلك تفسير كل شيء : « لا أدرى ، وكيف عساي أن أدرى ؟ لقد
كانت جميلة جدا . والكل يقولون ذلك ! » فقالت ايضاً حزم ، وهى
تهز رأسها : « ليس الكل ، فأنامثلا لم أعتقد هذا يوما . وانما
كان الكل يلغطون مهممين بها . وكانت مليحة الطلعة ، ولكن
لماذا كانوا يظنونها جميلة ؟ ذلك مالا أدريه . فقد كانت شديدة
النحول وهى صغيرة ، وبعد هذاراتها أكثر بدانة مما ينبغى ،
ثم عادت فى عامها الاخير أشد نحولا من ذى قبل ، وكانت
تتصدى دائما لاسترعاء الانظار ، فكان الناس ينظرون اليها طبعاً .
وكانت تفرط فى الركوب ، وتسرف فى الرقص ، وتتمادى
فى الكلام ، فلا بد أن يكون المرء أعمى وأصم وآخرس كى لا يلتفت
اليها . ولست أعنى أن بهرجتها كانت صارخة أو سوقية ، ولكنها
كانت مسرفة فى حريتها . »

وتمهلت تسترجع أنفاسها وتضع فى فمها قرصاً من النعنع ،
وتخيلتها ميرندا واقفة على المنبر تخطب الناس ، وقد توقفت
لتتعاطى النعنع ، ولكن لماذا تكره العمة آمى هذه الكراهية ، مع
أن العمة آمى ماتت ، وهى على قيد الحياة ؟ أليس فى الحياة
الكفاية ؟

وقالت ايضا : « ولم يكن داؤها جذاباً مستلطفاً ايضاً . مع أنهم
يزعمونها ذوت كما تدوى الزنيقة ، والواقع أنها كانت تسعل
دماً ، ان كان هذا ما يسمونه جذاباً مستلطفاً . ولو أنهم حملوها
على العناية الواجبة بنفسها ومرضوها تمرىضاً معقولا ،
لكانت اليوم على قيد الحياة . ولكن كلا . انهم لم يفعلوا من هذا

شيئا ، وإنما كانت تضطجع متدثرة بأوشحة جميلة فوق أريكة ، وقد حفت بها الازهار ، تأكل على هواها أولا تأكل ، وتنهض في أعقاب النزف فتخرج لركوب الجياد أو للرقص ، وتنام والنوافذ مغلقة ، والخلق الكثيرون يدخلون ويخرجون ضاحكين متحدثين اليها في كل وقت ، وآمى جالسة كى لا يفسد تمويج شعرها . فلماذا لا يقتل هذا النمط شخصا سليما على طول المدى ؟ لقد أشرفت على الموت مرتين في عمرى . وفى كل مرة كنت أوجه الى المستشفى كما يجب ، وأترك هناك الى أن أخرج منه ، فكنت أخرج وأعود الى العمل »

وهمس فى أذن ميراندا صوت الاخلاق متمثلا : « يزول الجمال وتبقى السجية » ! ولكن لم يكن فى هذا الطمح ما يغريها ، فلماذا تشوهت السجية القوية ذلك التشوه ؟ وشعرت ميراندا أنها تريد حقا أن تغدو قوية ، ولكن كيف تواجه القوة ، وهى ترى بعينيها ما فعلته بهذه المائلة أمامها ؟

وقالت ايضا : لقد كانت لها بشرة بديعة ، صافية تامة الشفافية ، وعلى وجنتيها جرتان . ولكن كان هذا سلا . وهل يكون المرض جمالا ؟ وهى قد جلبته على نفسها بشرب الليمون والملح كى توقف حيضها اذا ما أرادت أن تنهب للمرقص ، وكان شائعا بين الفتيات ذلك الاعتقاد ، فكن يتوهمن أن الشبان يستطيعون معرفة ما بهن اذا لمسوا أيديهن ، بل اذا تطلعوا اليهن بأعينهم ، كان لهذا أهمية ؟ ولكنهن كن شديدات التحرج ، مفرطات فى تقدير فطنة الرجال فى تلك الايام ! واعتقادى الخاص أن الرجل لا يستطيع ولكن على كل حال ، المسألة كلها عبث أحرق . « فقالت ميراندا شاعرة بعصريتها وسعة مداركها : « رأى أنهن ينبغى أن يلزمن الدور اذا لم يستطعن الإدارة » . « فقالت ايضا : « لم تكن لديهن الجسارة ، لان تلك الحفلات والمراقص كانت سوقهن . فلم يكن يسع الفتاة أن تتخلف عنها ، لانه كان هناك على الدوام منافسات متربصات لقطع الطريق عليهن »

ورفعت ايضا رأسها وتقوست ، فكأنها جواد الحرب اذ يتشم ريح المعركة ، وقالت : « انك لا يمكن أن تتصورى كيف كانت المنافسة

وقتئذ ! وكيف كانت أولئك الفتيات يعامل بعضهن بعضا !
فكل سلاح مباح ، ولا مبالاة بخسة أو اسفاف ! » • وجعلت
ايضا تعصر يديها وهي تقول فى حق : « وكانت المسألة كلها
قائمة على الجنس • فلم يكن فى اذهانهن شئ سواه ، ولم يكن
يدعينه بذلك الاسم ، وانما يموهنه باطلاق اللفظ الاسماء
عليه ، والواقع أنه ما كان الاللغريزة الجنسية حساب !
ونظرت من النافذة محدقة فى الظلام ، وقد احتقن خدها الغائر
القريب من ميراندا احتقانا شديدا ، ثم التفتت وقالت فى افتخار :
« لقد اتجهت الى الخطابة فى العراء وفوق أعواد المنابر حينما دعانى
داعى الواجب • ودخلت السجن حينما اقتضت الضرورة ذلك ،
ولم تكربنى حالتي ، وكنت أدفع وامنع ويعنف بى كأثنى فى خير
عافية • ولكن كان قوام فلسفتى ألا نجعل لمتاعينا الجسدية
ومشاغلنا البدنية أى أثر فى عملنا • وأنت فاهمة ماذا
أعنى » • • • كأنما الموضوع لا يزال طى الغموض • • •
« والواقع أن أمتى كانت أقدر من الاخريات على المداراة ، ولم يكن
يبدو عليها أنها تكافح وتقاوم • بيد أنها فى الواقع كانت مطية
للجنس شأن سائرهن • وكانت وكأن ليست لها على وجه الارض
منافسة ، وتتصنع أنها لا تدري أى شئ يكون الزواج • ولكننى
لم أخدع فيها • فما من واحدة منهن كان فى ذهنها ، أو كانت
ترضى أن يكون فى ذهنها ، أى شئ سوى الجنس ، ولم تكن
لهن دراية حقيقية بذلك ، ولهذا كن يتقيحن من الباطن » •

وألفت ميراندا نفسها ترقب فى امعان موكبا طويلا من الجثث
الحية لنساء متقيحات يخطرن الى ضريح مشيد ، وقد ستر تعفنهن
تحت المخمرات والزهور ، ووجوههن الميتة مرفوعة باسمه • •
فقال فى نفسها : « لا شك أن الأمر لم يكن على هذا النحو •
وليس فى هذا التصوير من الحقيقة نصيب أكبر مما قيل لى
من قبل ، وانما هى تزاويق الخيال فى الصورتين على
السواء » •

وتحقق لديها أنها سئمت بنت عمها ايضا والحاها ، وباتت تواقه
الى النوم ، تواقه الى البيت ، وتمنت لو طلع الغد فترى أباه

وأختها ، ففيهما حياة دافقة قوية ، وهما قمينان بأن يلاحظا ما بوجهها من غضون ، ثم يسألانها هل تريد شيئا تأكله .

وقالت في طفولة : « أمى لم تكن كذلك . فقد كانت امرأة سوية تحب الطهو . وقد رأيت جانبا من حياتها وقرأت يومياتها » . فقالت ايها بصورة آلية : « لقد كانت أمك قديسة » . فصمتت ميراندا مستنكرة ، وهمت أن تبطش بايها ، وقالت في نفسها : « ما كانت أمى شيئا من هذا القبيل » ! بيد أن ايها كانت تستجمع الحقد الى أن تجمع لها ما فاحت به قائلة ، وهى تضم قبضتيها وتهزهما قليلا : « لقد كانت أمى تقول لى دائما : أبرزى ذقنك يا ايها ، فقد ظلت الاسرة طول عمرى تعيرنى بذقنى . وقد أفسد ذلك طفولتى جميعا » . ثم انشنت تسأل فى شراسة لا يبدو أن هذا العامل وحده كاف لتبريرها : « أيمكنك أن تتصورى أشخاصا يزعمون أنفسهم متحضرين وهم يفسدون حياة فتاة صغيرة بسبب لمحة واحدة من ملامحها منكودة ؟ وكان ذلك طبعيا كما تعلمين مموها بالمرح الشديد ، فكل انسان كان يمزح بهذا الخصوص ، فلا يقصد الايذاء طبعيا . كلا ! كلا ! لا سوء على الاطلاق ! وهذا هو أفظع ما فى الموضوع . هذا هو مالا يمكن أن أغتفره » . وكانت تصيح وتلوى يديها كأنهما خرقتان ، ثم استرجعت أنفاسها ، واضطجعت الى الوراء ، وهدأت أساريرها فى النهاية ، وجعلت ترتعد : « الاسرة . آه ! لو أمكن أن يحى هذا النظام البشع من فوق سطح الارض . فهو أس البلايا الانسانية » . ! فمدت ميراندا يدها وتناولت يد ايها واستبقتهما فيها ، فاختلجت اليه ثم استكانت ، وقالت ايها فى وجوم وهى تتململ فيوسوس صدارها وسوسة شديدة : « انك لا يخطر ببالك أدنى فكرة عما عاناه بعضنا ، ولكنى أردت أن تسمعى الجانب الآخر من القضية ، وأخشى أن أكون قد أسهدتك وأنت بحاجة الى النوم لتصونى جمالك ! » . فاستجمعت ميراندا نفسها وقد شعرت بالحدر ثم وقفت ، فمدت ايها يدها وجذبت ميراندا اليها قائلة : « طاب ليلك أيتها الطفلة العزيزة . من كان يظن أنك كبرت » ! فترددت ميراندا ، ثم

طلعت فجأة على خد ابنة عمها إذا قبلة ، فالتمعت العينان
السوداوان خلل الدمع لحظة ، ثم قالت أيضا بصوتها الدافئ .
الواضح الخطابى : « غدا نبليغ موطننا . وانى لأتطلع الى ذلك ،
أو لست كذلك ؟ طاب ليلك » .

وأدرك ميراندا النعاس وهى تنضو ثيابها . وسرعان ما بزغ
الصبح . . . وكانت مشغولة بإغلاق حقبيتها حين وقف القطار فى
المحطة الصغيرة ، فرأت على الأفريز أباه ، وقد بدا متعبا
قلقا ، وقبعته فوق عينيه ، فنقرت زجاج النافذة لتستترعى
انتباهه ، ثم جرت وألقت بنفسها عليه ، فقال : « حسنا . هذه
فتاتى الكبيرة » كأنما هى لا تزال فى السابعة من عمرها ، بيد
أن يديه اللتين كانتا فوق ذراعيها أوقفتها بعيدا . وكانت لهجته
متكلفة . فلم يكن هناك ترحيب بها ، وكان الامر كذلك منذ
هربت ، فلم تستطع أن تقنع نفسها بما حدث ، وأبى ذهنها
أن يتقبل ما تحقق لديه بين زيارتين لمسقط رأسها . ونظر
والدها من فوق رأسها وقال فى غير دهشة : « أهلا بك يا ايفا .
لقد سرنى أن أرسل اليك بعضهم برقية » ، وجوبت ميراندا بالصد
مرة أخرى ، فارتخت ذراعها ، واستشعرت لذلك فى قلبها وخزة
أليمة ، وقالت ايفا وقد أسدلت فوق وجهها خمارا أسود خفيفا
كانت تدخره ولا شك لما تم الاسرة : « لم يحدث أن أرسل
الى أى فرد من أسرتى برقية فى عمرى . لقد سمعت النبأ من
(كزيه) الصغير الذى عرفه من (جبريل) الصغير . وأظن
(جاب) هنا ؟ » فقال الوالد : « الجميع هنا فيما يظهر ، فقد
غص البيت » . فقالت ايفا : « سأمضى الى الحان أن أحببت »
فقال الوالد : « ويحيى ! كلا ! لم أقصد هذا بل تأتين معنا حيث
ينبغى لك » . . .

وأقبل سكيد ، التابع ، فحمل الحقائق وانطلق فى شارع القرية
الصخرى . وقال الوالد : « لدينا العربية » ، ثم تناول يد ميراندا ،
بيد أنه أطلقها ، ومد يده يلتمس مرفق بنت العم ايفا ، فقالت ايفا
مترجعة : « اننى بخير عافية ، فشكرا لك » . فقال الوالد :
« اذا كنتن بهذا الاستقلال منذ الآن ، فكان الله فى عوننا عندما

تحصلن على حق الانتخاب » ! فرفعت ايها خمارها وابتسمت عن سرور صادق ، فقد كانت تستلطف هارى على الدوام ، فله أن يتحوش بها . ما شاء ، ودست راعها فى ذراعه وقالت : « اذن انتهى جبريل المسكين وقضى الامر ! » فقال الوالد : « أجل . وقضى الامر ! وسيحين حيننا من بعد عما قريب . أليس كذلك يا ايها ؟ » فقالت ايها بغير مبالاة : « لست أدري ! ولست أبالى ! فانى أستطيب العودة بين الحين والحين يا هارى ، وان لم يكن ذلك الا للمآتم . فانى أشعر بفرح آثم » ! فقال الوالد : « ما كان جبريل ليبالى هذا ، وكان يسره أن يراك مسرورة . فقد كان أمرح من رأيته من خلق الله ، وأخفهم للطرب حين كنا أحداثا . فقد كانت الحياة لجبريل رحلة استمتاع متصلة » ! فقالت ايها : « يا للمسكين » فقال الوالد فى وجوم « يا لجبريل المسكين ! وكانت ميراندا سائرة بجوار أبيها ، شاعرة بالغبرة ، بيد أنها لم تكن آسفة لتلك الغربة . انه لم يغفر لها . وكانت تعلم هذا . ومتى سيغفر لها ؟ لم يكن فى وسعها أن تحدى ، ولكنها شعرت أن ذلك سيحدث من تلقاء نفسه ، بغير كلمات وبغير اعتذار أو اقرار من هذا الجانب او ذاك . وحينما يأتى الاوان لن يكون بأحدهما حاجة لتذكر ما وقع بينهما الفرقة ، أو ما الذى أضفى على الموضوع كل تلك الاهمية . وقالت لنفسها فى كبريائها وغرورها : ان المسنين لا يمكن يقينا أن يختزنوا أحقادهم الى الابد ، لان الشباب لابد أن يعيشوا كما عاشوا هم ايضا ! فالمفروض أن أقترف أخطاءى لا أخطاءكم . وما دمت لا يمكننى أن أعتمد عليكم الا الى حد معين ، فلماذا اعتمد عليكم اطلاقا ؟

لقد كان هناك شىء يجب أن يعمل ، ولكن كانت هذه هى الخطوة الاولى . وقد خطتها هى ، سائرة فى صمت بجوار من هم اكبر منها سنا ، وقد أصبحت لابنت عم ولا أبا ، ماداما قد نسيا محضرها بل أصبحت ايها وهارى فحسب اللذين يعرف أحدهما الآخر خير معرفة ، وأنس كل منهما الى صاحبه لانهما تريان ندان ، يحتلان بمقتضى حقهما مكانهما فى العالم الذى وصلا اليه فى

تلك السن من طرق مألوفة لكليهما . فلا حاجة بهما للقيام بدور البنت أو الابن ازاء أشخاص لا يفهمونها . ولا للقيام بدور الاب أو بنت العم العجوز ازاء شباب لا يفهمانه . فهما نفسيهما وكفى . فصفت عيناهما ، واسترخى صوتاهما ، فارتدا الى طبيعتهما الخالصة ، فلا حاجة بهما لوزن الكلمات وتدبر أثر سلوكهما .

فقالت ميراندا في نفسها : أنا التي لا مكان لها . فأين أترابي وأين زمي ؟ « وقد تأثرت مشاعري في بطن وعمق وصمت لحضر هذين الغريبين اللذين وعظاها وقرعاها ، اللذين أحباها حبا مريرا ، وأنكرا عليها حقها في النظر الى العالم بعيني راسها ، وطالبها باعتراف نظرتهما الى الحياة ، مع أنهما لا يحسران على البوح لها بالحقيقة ولو في اهون المسائل . فقال لها أعمق ما في سريرتها في وضوح : اني اكرههما كليهما . وسأتححر من كل صلة بهما ، بل سوف لا أتذكرهما ! » .

وجلس في المقعد الامامي مع سكيند الخادم الزنجي ، فقالت ايضا لها بلهجتها الامرة الحادة : « تعال معنا يا ميراندا ، فها هنا متسع » فقالت ميراندا بصوت فاطر حازم « كلا وشكرا لك ، فاني على راحتى هنا ، فلا تقلقى ولا تضايقنى نفسك » ولم يتنبه أحدهما للهجتها ومسلكتها ، فجلسا على راحتهما وانطلقا يتحدثان في مودة أسرية عن موتاهما ، ومعاشهما ، وأشغالهما ، وآمالهما ، وذكرياتهما المشتركة . فيقاطع كل منهما صاحبه ، أو « يقفش » له في بعض المواقف ، ثم يضحكان في طرب وطلاقة ناضرة ، ما كانت ميراندا تحسبهما قد يرين عليها ، مستعبدتين قصصا قديمة ، يجدان فيها مواطن جديدة للاهتمام . ولم يكن في مقدور ميراندا ان تسمع تلك القصص لضجيج المحرك ، ولكنها أحست أنها تعرفها جميعا جيدا ، أو تعرف ما هو من قبيلها . فما اكثر ما تعرف من ذلك القبيل ، فهي تريد شيئا جديدا خاصا بها . وهذه اللغة التي يتحدثان بها مألوفة لهما ،

ولكنها غير مألوفة لها ، أو هي لم تعد كذلك . لقد قال ابوها ان البيت غاص بمن فيه من أبناء العم ، وكثيرون منهم غرباء ، فهل سيكون من بينهم أبناء عم شبان يسعها أن تتحدث اليهم عن أشياء تعرفها وإياهم ؟ لقد شعرت بشيء من النفور من رؤية أبناء العم ، فهم أكثر مما ينبغي ، ودماها قد ثار ضد روابط الدم . فهي قد سئمت أبناء العم حتى الموت ، ولا تريد أن يكون لها بهذا البيت مزيد من الروابط ، لانها أزمعت أن تغادره ، بل أزمعت ألا تعود الى أسرة زوجها أيضا . انها لا تريد ان يكون لها من بعد صلة تخنقها حبا وكرها . وقد أدركت الآن لماذا هربت لتتزوج ، وأدركت انها هاربة ولا شك من الزواج أيضا ، وأنها سوف لا تقيم في أى مكان مع أى انسان يمكن أن يحول بينها وبين أن تختبر معارك الحياة ، أو أن يقول لها : لا . وتمنت ألا يكون أحد قد استولى على حجرتها القديمة ، فقد أحبت ان تنام فيها مرة أخيرة كى تودع الموضع الذى أحبت الرقاد فيه يوما ، فنامت فيه واستيقظت فى انتظار يوم تشب فيه عن الطوق كى تبدأ الحياة . وتساءلت فى جد بالغ ذلك التساؤل الصبباني الذى لاجواب عنه : « ماهى الحياة ؟ وماذا أصنع بها ؟ انها شيء املكه ، فماذا أصنع به ؟ » وكانت تتساءل فى حمى من الغيرة المتملكة ، ولم تدرك أنها كانت تتساءل على ذلك النحولان تربيتها الاولى كلها اوحت اليها ان الحياة شيء أو مادة تستخدم ، وتشكل وتوجه كما يريد مالئها أن تكون . . . فالعيش هو استمرار للأعمال المتصلة المتباينة الصادرة عن الإرادة والموجهة نحو غاية محدودة . ووقع فى روعها أن من الغايات ما هو خبيث وما هو طيب ، فلا بد للمرء من الاختيار . ولكن ما الطيب وما الخبيث ؟

وقالت فى نفسها : « انى أكره الحب » كأنما ذلك جواب سؤالها : « انى أكره أن أحب وأن أحب . أكره هذا كله ! » وشعر بالها المضطرب المشوش بالراحة تسرى فيه ، حين تداعى على حين فجأة ذلك البنيان المؤلم العتيق الذى لبناته الاوهام والاخليلة المشوهة ، فقالت لنفسها فى وضوح غير مألوف ، وكأنها شخص مسن

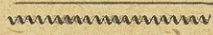
يقزع مخلوقا غرا ضل سواء السبيل : « لاعلم لك بشيء من هذا الامر . وعليك أن تكتشفى كنهه » ولكن لم يدفعها فى اعماقها شيء الى العزم ، فلم تقل : « سأفعل هذا الآن ، وسأكون كذا ، وسأضئ فى هذه الوجهة ، واسلك طريقا معيناً الى غاية معينة ! » فلا بد قبل هذا من أسئلة تسأل ، فمن الذى يجب عنها ؟ لأحد ، والا كانت الاجابات اكثر مما يجب ولم يكن شيء منها صوابا .

وسألت نفسها فى الحاح ، وكأنا السؤال لم يسأله سائل من قبل : « ما الحقيقة ؟ ما الحقيقة ؟ ولو فى أنفه المسائل وأهونها ؟ وأين أبدأ النظر والبحث عنهما ؟ »

واعتصم ذهنها مستنيثسا لا لينسى الماضى ، بل لينسى أسطورة الماضى وذكريات الناس عنه ، تلك الاسطورة التى قضت حياتها متطلعة اليها ، ناظرة فيها فى عجب ، كما ينظر الطفل فى مشاهد القاتوس السحري . وقالت فى نفسها : « أجل ، ولكن أمامى حياتى أنا التى ستكون ، وحياتى الآن وبعد الآن . فلست أريد وعودا ، ولا مأرب لى فى أمان كذاب ، ولأن أموه عن نفسى صور الخيال ، ولا يد لى بالحياة فى عالمهم من بعد » . . .

ذلك ما اندوت به نفسها وهى تصغى للأصوات من وراء ظهرها : فليروكل منهما لصاحبه ماشاء من قصصه ، ويبين كيف وقعت الاحداث . فذلك لا يعينى . فأناعلى الأقل أستطيع أن أعرف حقيقة ما يقع لى . . .

ذلك ما أكدته لنفسها فى صمت ، عهدا عليها مسئولا ، أملئ لها فيه تقارؤلها وغراتها . .



خُحْمَرَةُ الظُّطَيْهِيَّةِ

للكاتبة الأمريكية المعاصرة

كاتراين آن بورنر

نقلت إلى العربية

اللاتبة الكبيرة

السيدة صوفي عبداً

خمرة الظهيرة

انزمان : ما بين عامى ١٨٩٦ و ١٩٠٥
المكان : مزرعة صغيرة فى جنوب ولاية تكساس

كان غلامان صغيران قذران ، ذوا شعر متغير اللون ، يعيشان منقبين بين الحشائش النامية فى فناء الدار الامامى ، فأقعيا معتدلين على عقبيهما ، وقالا « مرحبا » حينما بصرا بذلك الرجل الطويل القامة البارزالعظام ، وقد يمم بوابة دارهما •

ولم يقف ذلك الرجل عند تلك البوابة ، فانها كانت مفتوحة منذ أمد طويل نصف فتح ، اذ انكسر مفصلها فاستقرت على هذا النحو ، ولم يفكر فى اغلاقها انسان • بل ان الرجل لم يعر الغلامين نظرة ، بله أن يقرئهما السلام • وقصارى ما كان منه أنه خب بنعليه الكبيرين المثقلين بالتراب ، النعل حذو النعل ، كمن يسير وراء محراث • وكأننا نعرف الموضع خير معرفة ، ويعرف وجهته وماذا عساه أن يلقي فيها •

ودار عن يمين البيت ، واتجه فى ظل صف من شجر التوت الصينى الى حيث كان مستتر تومسون جالسا عند السدة الجانبية يهز قربة المخيض دفعا وجذبا •

وكان مستتر تومسون رجلا مخشوشنا ، لوحته الشمس ، له لمة سوداء ، وقد نمت فى عارضيه لحية سوداء عمرها أسبوع • وكانت فيه أنفة صارخة ، يرتفع رأسه حتى يبدو وجهه فى مستوى مقدم عنقه ، فيتصل عارضاه بشعر رقبتة الى ما تحت ياقته المفتوحة فى رقعة واحدة سوداء • وكانت قربة المخيض تقررر وتوسوس كأنها بطن جواد راكض • فكان مستتر تومسون ساعته يسوق جوادا بيد واحدة ، فهو يرخى له العنان تارة ويستحنه طورا • وكان يلتفت بين الفينة والفينة

فيقذف من فيه بصقة هائلة من عصير الطباقي فوق درج السلم ،
وانها للامعة بنية اللون بماغشيها من عصير الطباقي الطرى .
فقد غيرت على المستر تومسون ساعة طويلة وهو يخض تلك
القربة حتى أدركه الملل .

وكان يستجمع بصقة ليقذف بها حين ظهر أمامه رجل غريب ،
أزرق العينين زرقة باهتة تكاد تكون بياضا محضاً
... وأطلت عليه عيناه من وجهه الطويل الناحل ، ومن تحت
حاجبيه الابيضين ، وكأنه ينظر اليه ولا يراه . فأدرك مستر
تومسون من استطالة شفته العليا أنه خيال رجل من أبناء
ايرلندا ، فقال له في تأدب ، وهو يهز قربته : « كيف حالك
يا سيدي . » ؟ فقال الرجل بلسان مبين على ما فيه من لكمة
أجنبية : « أنشد عملاً » ... ولم يستطع مستر تومسون تحديد
تلك اللكمة ، فلا هي زنجية ولا هي هندية ولا هي هولندية ...

واستطرد الرجل قائلاً : أبحاجة أنت الى رجل ؟ « دفع
مستر تومسون القربة دفعة شديدة فمضت تهتز وحدها يرمه
طويلة ، ثم جلس على الدرج وقذف ببصقته بين الحشائش ، وقال :
« اجلس . فربما وصلنا الى اتفاق . فقد كنت أتطلع الى
استخدام أحد بعد الزنيجيين اللذين كانا عندي وسطوا في
الاسبوع الماضي على منشر الحشب القائم عند النهر ، فقتل أحدهما
وأودع الآخر سجن بلدة (كولدسبرنجز) وكانا كلاهما لآخر
فيهما والحق يقال ، فلعله ينبغي أن استأجر من يحل محلهما .
وأين كنت تعمل ؟ »

فقال الرجل ، وهو يقتعد الطرف الاقصى من الدرج ، قعود
المستقر الذي لا ينبو به المكان ، لا جلسة مكدود أعنته السير :
« في شمال داكوتا » .

ولم يرفع الى مستر تومسون بصره قط ، ولكن لم تكن في
نظرته شائبة من مهانة ، فانه لم يكن ينظر الى شيء أو يوجه
نظراته غير وجهته ، وانما قرت عيناه في دماغه ، والاشياء من
حوله تمر بهما ، وكانهما لا تتوقعان أن تريا فيما تقعان عليه ما يستحق
النظر .

ولبت مستر تومسون برهة طويلة فى انتظار مزيد يخرج
من بين شفتى الرجل ، فالتفاد قد استسلم للشroud ، فقال مستر
تومسون ، وهو يكد ذهنه لتذكر ذلك الموضع : « شمال داكوتا ؟
انها لمسافة شاسعة فيما يبدو ٠٠٠ » فقال الرجل : « فى
استطاعتى القيام بجميع الاعمال فى المزرعة • وبأجر رخيص • •
لحاجتى الى العمل » • فوطن مستر تومسون نفسه على الجد
وقال : « اسمى تومسون : مستر رويال ايرلى تومسون » • فقال
الرجل : « وأنا مستر هلتون ، مستر أولاف هلتون » • ولم
يتحرك فيه شئ لذلك التعارف • فقال مستر تومسون عندئذ فى
تبرة مرحة : « والآن يا صاح ، لندخل فى الموضوع • • »

وكان المستر تومسون اذا أقدم على التعاقد اشتدت بشاشته
وحماسته • فلا عيب فيه الا أنه كان يكره أداء الاجور كراسته
ابليس ! وكان يمرر ذلك لنفسه قائلا : « انك تقدم لهم المأكلا
والمسكن ، ثم يطالبونك فوق هذا بأداء الاجور أيضا ! ليس هذا
عدلا • • ثم لاتنس ما يصيبون به أدواتك من استهلاك يحيل
كل شئ من بعدهم الى حطام وأتقاضى • »

ولهذا راح تومسون يضحك ويشق طريقه الى التفاهم بالصياح
والقهقهة شقا • • فقال وهو يضرب ركبته بيده : « والآن ،
أريد ان أعلمكم تنوى أن تبتزمنى » • وظل على ذلك الوضع
هنيهة حتى أحس سخافته فاستخزى واقتطع لنفسه مضغة ،
أما مستر هلتون فكان يحدق فى شئ ما بين الحظيرة والبستان •
وهو كالنائم ، وان يكن مفتوح العينين • ثم قال وكأن صوته
ينبعث من جوف قبر : « انى عامل حاذق • وأتقاضى دولارا فى
اليوم • فوقع ذلك من مستر تومسون موقعا أذهله عن القهقهة
بأعلى صوته كما كان ينوى الى أن فات الاوان ، وعندئذ صاح :
« هاو ! هاو ! لعمرى انى أوجر نفسى بدولار فى اليوم لو وجدت
الى ذلك سييلا • • وأى ضرب من العمل ذاك الذى كنت تتقاضى
عنه دولارا فى اليوم ؟ » • فقال مستر هلتون وليس فى وجهه
أثر ابتسام : « فى حقول القمح ، بشمال داكوتا » • فكف مستر
تومسون عن الضحك ، وقال كالمعتذر : « ليس ها هنا من
حقول القمح شئ ، فهذه مزرعة دواجن • ذلك أن زوجتى أصرت

على أن تكون كذلك ، لأنها تحب العمل وسط الابقار والعجول
 فنزلت على رغبتها ، ولكنها كانت غلطة ، فقد وقع على عب القير
 بجميع الاعمال دونها ، اذ هي ليست مكتملة العافية وهي الي
 في واقع الامر مريضة ، وقد اعتلت صحتها في الايام القلا
 الاخيرة . ونحن نزرع هنا شيئا من الطعام والعلف ، ورقع
 صغيرة من الاذرة ، ثم لدينا هذا البستان ، وبضعة خناز
 ودجاجات . بيد أن شاغلنا الاساسى هو الابقار . وأصارح
 مصارحة رجل لرجل أنه لا طائل وراء كل هذا العناء . فلما ودخ
 شحيح ، ولا أستطيع أن أعطيك دولارا في اليوم ، لاننى فعلا
 أصل الى هذا المبلغ من غلة المزرعة كلها ! كلا يا سيدى ، فاد
 محصولنا أقل بكثير من دولار في اليوم اذا نظرنا الى المتوسط على
 مدى العام . والحقيقة أننى كنت أدفع سبعة دولارات فى الشهر
 للزنجيين . ثلاثة ونصف لكل منهما . عدا المأكّل . ولكن
 اعتقادى أن رجلا أبيض واحدا يعدل حفنة كامنة من الزنج
 ولهذا سأعطيك سبعة دولارات وسوف تأكل على المائدة معنا
 وستعامل معاملة البيض كما يقولون . « فقال مستر هلتون : ت
 « هو كذلك . قبلت . « فقفز مستر تومسون واقفا كمن تذكر
 موضوعا مهما ، وقال : « حسنا . أظن أننا اتفقنا . أليس كذلك ؟
 والآن تول أمر هذه الحضاضة ، وهزها الى أن أركب الى المدينة
 لقضاء مسألتين يسيرتين . فانه لم يتح لى أن أغادر مكاني طول
 الاسبوع . وأحسبك تعرف ماذا تصنع بالزبد بعد أن يتكون . أليس
 كذلك ؟ » . فأجابه مستر هلتون دون أن يلتفت الى ناحيته : « أعرف .
 أعرف طريقة صنع الزبد » . وكان يتشدد بمخارج الحروف
 تشدقا غريبا ، فيتزوج صوته تموجا بطيئا فى ارتفاعه وانخفاضه ،
 ولو كان ما يتفوه به كلمتين اثنتين ! وكان يضغط فى غير مواضع
 الضغط الصحيحة . فعجب مستر تومسون : الى أى جنسية ينتمى
 مستر هلتون ، فسأله وكأنه يتوقع أن يناقض نفسه : « والآن
 أين قلت أنك كنت تعمل قبل حضورك الى هنا ؟ » فقال مستر
 هلتون : « فى شمال داكوتا » فقال مستر تومسون : « كل مكان
 يحل فيه المرء يحسن لديه متى ألفه . وأنت أجنبى . أليس كذلك ؟ »
 فقال مستر هلتون : وقد شرع يهز قربة المبيض : « انى سويدي
 فأطلق مستر تومسون ضحكة عريضة كأنه سمع أدهة نكتة فى
 حياته ، وقال بأعلى صوته : « لعمري أيها السويدي أنك

ستوحش في هذا الموضع فيما أخشى . فما رأيت سويديا قط في
الجهة من الغابات . « فأجابه مستر هلتون وهو يخض القرية ،
نه سلع في مكانه هذا سنوات : « لا بأس . » ! فقال مستر
سون مستطردا : « الحقيقة بصراحة أنك أول سويدي
ت عليه عيني فعلا . » ! فكان جواب مستر هلتون في هذه المرة
ما : « لا بأس » !

ودخل مستر تومسون الحجرة الامامية ، حيث كانت مسر
سون مضطجعة وقد أسدلت مصاريع النوافذ الخضراء ، وفوق
الدة الى جوارها وعاء به ماء ، وفوق عينيها خرقة مبللة ، فلما
معت وقع قدمي مستر تومسون رفعت الخرقة عن عينيها وسألته :
ما هذه الضجة ؟ من هذا ؟ فقال مستر تومسون : « جاءني
كسان يقول انه سويدي يا (الي) ويزعم أنه يعرف صناعة الزبد » فقالت
مستر تومسون : « عسى أن يكون صادقا ، ويبدو لي أن دماغي لأمل
ن تحسين حاله . » فقال مستر تومسون : « لا تقلقي ، فاني أراك
كريمة للامر اكثر مما ينبغي . وسأركب أنا الآن الى المدينة كي
أناح شيئا يسيرا من البقل » فقالت مسر تومسون : « لا تتلکأ
من يامستر تومسون . ولا تذهب الى الحان » . وكانت تعني بالحن
لحانة التي يؤجر صاحبها حجرات في الطابق الذي يعلوها لمن شاء
لبيت . فقال مستر تومسون وهو يضحك ضحكا مدويا : « ان
ما الا كأسان خفيفان » ، لا ضير منهما على أحد » فقالت مسر
ومسون : « أما أنا فلم أذق منها في حياتي قطرة ، ولن أذوقها
بدا » ! فقال مستر تومسون : « ما كان حديثي عن النساء ! »

وأسلم صوت الخض المطرد مسر تومسون الى اغفاء لطيف ،
م الى نعاس عميق أفاقته منه فجأة ، مدركة أن الخض قد توقف منذ
مد طويل . فجلست وقد ظللت عينيها الواهنتين لتحميمهما من ذلك
لبصيص الضئيل الذي ينساب من شمس الاصيل الصائفة ،
با بين قاعدة النافذة ومصراعها المسدل . وها هي بحمد الله على
فيد الحياة مطالبة باعداد طعام العشاء ، ولكنها معفاة من خض
لبين . وهذا دماغها لم يكف عن دورانه ، ولكن في رفق .

ورويدها رويدها تبينت أنها كانت تسمع وهي نائمة صوتا جديدا ، هو صوت عزف على المزمار ، لا من قبيل ذلك العزف المضطرب الصاخب ، وانما هونمة حلوة فيها حبور وفيها أسمى ...

واخترقت المطبخ ، ثم تجاوزت السدة ، واتجهت صوب المشرق ، وقد ظلمت عينيها ، فلما اتضح بصرها واستقر رأت رجلا طويلا أشهب الشعر في سروال أزرق ، جالسا عند عتبة الكوخ المعد للأجراء ، مستلقيا الى الورا فوق كرسي من كراسي المطبخ ، وهو ينفخ في مزماره مغمض العينين ، فوجف قلب مسز تومسون وغاص ... يا الهى ! انه يبدو مكسلا غثا في صورته هذه ! وقد بليت من قبل بسود زمارين ، وها هو ذا رجل أبيض لا يركن اليه . ومن شيمة مستر تومسون أن يستخدم هذا القبيل من الرجال . وتمنت لو أنه كان أشد اهتماما ورعاية لعمله ، لانها كانت راغبة في الثقة بزوجها ، وان خذلها تلك الثقة من قبل مرات ومرات ، وكانت تريد أن يفتح أمامها باب العقيدة في أن غدا أو بعد غد سيحمل اليها أملا في تطور معركة الحياة تطورا مواتيا .

ومرت بالكوخ دون أن تتلفت ، في خطو متزن ، وقد انحنت عند خاصرتها للآلم الذى ينتاب جنبها ولا يكاد يفتر عنها ، فمضت الى الينبوع ، وفى نيتها أن تفرغ هذا الاجير الجديد ان لم يكن قد قام بعمله . . وكان معمل اللبن عبارة عن كوخ من ألواح لوحاتها الشمس ، سمر بعضها الى بعض على عجل منذ سنوات ، لان الحاجة كانت ماسة الى قيام معمل ، وكان المقروض أنه بناء مؤقت ، وقد أضحى الآن مختلط الشكل ، مائلا الى هذا الجانب أو ذاك ، معششا فوق نزر متصل من الماء البارد يتساقط من كهف صغير يكاد يغص بما تراكم فيه من طحالب مصفرة . ولم يكن فى الجوار كله من يملك نظيرا لهذا الينبوع ، فحق لمستر ومسز تومسون أن يغتبطا به ، ولكنهما لم يحسنا الاهتداء الى وجه النفع منه حق النفع ! وفى الرحبة المحيطة بتلك البركة الصغيرة التى تقبع فى مائها البارد دلاء اللبن والزبد طازجة غضة ، رفوف انتشرت حيثما اتفق . وهناك وقفت مسز تومسون ، وقد سندت جنبها الموضع الاعرج باحدى يديها ، وظلمت بالآخرى عينيها ، وانثنت

تنظر فى تلك الدلاء : فاذا القشدة وقد مخضت وعزلت ، واذا قدر كبير من الزبد ، وأما القوالب الحشبية والحقاق فكانت مغسولة مجلوة لأول مرة منذ زمن لا يدرى أحد مداه، وكان الدن مملوءا بنفاية المخيض الذى يقدم للخنازير ورضعاء العجول ، وأما الارض التى كانت فوقها طبقة صلدة من القذارة ، فقد أصبحت نظيفة مستوية، فانتصبت مسز تومسون وابتنسنت فى ترفق ، ولئن كانت قد انتوت أن تعنف به وهو الرجل المسكين ذو الحاجة الذى وفد ليومه ، فلا غرابة ان اختلط عليه أمر العمل فلم يحسنه لأول وهلة ، كما كانت لتستكثر شيئا فى سبيل رفع ذلك الغبن عنه ، وما كان لها الا أن تعرب له عن مبلغ تقديرها لعمله الجيد التنظيف ، الذى فرغ منه فى أوجز وقت . فاتجهت صوب باب الكوخ فى خطوات المتزن، ففتح مستر هلتون عينيه وكف عن الزمر ، واعتدل فى جلسته، بيد أنه لم ينظر إليها ولم ينهض واقفا . وكانت هى امرأة ضئيلة فصيرة ذات شعر بنى كثيف يجتمع فى صغيرة واحدة ، عليه القم ، كليله العينين ، قريبة المدمع ، فجمعت أصابعها لتظلل عينيها ، وقد جعلت ابهاميها فوق عارضيتها، وقالت له فى رقة وتأدب : « كيف حالك يا سيدي ؟ انى مسز تومسون ، وقد أحبيت أن أقول لك أنك أحسنت حقا عملك فى معمل اللبن ، فقد كان العمل فيه عسيرا على الدوام ؟ فقال بصوت بطيء دون أن يأتى بحركة : « لا بأس » . فتمهلت مسز تومسون لحظة ثم قالت : « انك تعزف نغمة حلوة ، ومعظم الناس لا يحسنون العزف على مثل هذه الآلة » !

وجلس مستر هلتون مقوس الظهر مبسوط الساقين ، ولولا انسياب ابهامه فوق منافذ المزمار لحسبته نائما ، وكان ذلك المزمار كبيرا جديدا براقا . وقد أخصت مسز تومسون حين أجالت بصرها فى الكوخ خمسة مزامير آخر كلها جدد فاخر ، وقد صفت على رف بجوار مرقده . فقالت فى نفسها وقد لاحظت أن الغرفة خالية من كل قنية خلا هذه المزامير : « ينبغى أن يحملها معه أينما ذهب ، فى جيب قميصه » . ثم قالت له : « أراك شغوقا بالموسيقى ، وكان لدينا فيما مضى معزف عتيق كان مستر تومسون يؤدى عليه ألحانا بدیعة ، ولكن الغلامين أقسدها » . فنهض مستر هلتون وثبا

واهتز المقعد من تحته ، واعتدلت ركبتاه وأن تعتدل كتفاه ، ونظر الى الارض كمن يصغى محتفيا ، فاستطردت مسز تومسون قائلة : « وأنت تعلم أحوال صغار الغلمان وأطوارهم . فمن الخير أن تضع هذه المزامير فوق رف عال خشية أن يصل اليها ، ففيهما ولع بالعبث بكل ما تصل اليه أيديهما . وكم اجتهدت في تهذيبيهما ، ولكن في غير كبير طائل » .

وبوثية واحدة من ذراعيه الطويلين ضم مستر هلتون مزاميره الى صدره ، ثم صفها فوق النتوء الذي تجتمع لديه أخشاب السقف بالجدار ، ثم دفعها الى الداخل حتى اختفت عن النظر أو كادت . فقالت مسز تومسون : « هذا أحسن » . ثم دارت بنظرها وقد أكرهت عند مواجهة الغروب على اغماض عينيها ، وقالت : « واني الآن لا أعجب أين هذان الضفدعان ، فاني لا أقدر على ملاحقتهما » وكانت تتحدث عن وليديها دواما وكأنهما من ذوى القربى المضجرين وقد استتال مقامهما حتى أملها . فقال مستر هلتون بصوته الاجوف : « انهما عند شاطئ النهر » . فأدركت مسز تومسون بعد شيء من الريب أن هذا جواب ما سألته ، وقد وقف في سكون الصابر ، لا وقفة من ينتظر انصرافها حتما ، ولكن وقفة من لا ينتظر سوى ذلك ، وكانت مسز تومسون متعودة أن تلقى في الرجال صنوفامن البدوات والشذوذ . فكان همها أن تتعرف مبلغ اختلاف بدوات مستر هلتون عن بدوات غيره من الرجال ، ثم تروض نفسها عليها كي يطمئن الى مقامه عندها ، وقد كان أبوها من قبل من أهل البدوات وكذلك اخوتها وعمومتها ، وما كان فيهم على كثرتهم أشباه في الأهواء . وكل أجبر أيضا كانت له نزعة اختص بها ، وها هو ذا الآن مستر هلتون ، ذلك السويدي ، لا يميل الى الكلام ، وله بعزف هذه المزامير هوى . فقالت مسز تومسون في شيء من التودد : « سرعان ما سيطلبان طعاما . ولست أدري أى شيء أصنع للعشاء ؟ فماذا تحب أن تأكل يا مستر هلتون ؟ ان لدينا على الدوام كفايتنا من الزبد الجيد واللين والقشدة . وانها لنعمة جزيلة . ويرى مستر تومسون أن نبيعها كلها ، بيد أنني أصر على أن أهل البيت لهم المقام الاول ! وكان وجهها الصغير متقلصا بما ارتسم

فوقه من ابتسام يشوبه الالم ، فقال مستر هلتون بصوته الممتوج : « أكل أيما شيء » ، فقالت مسز تومسون فى نفسها أن الرجل لا يعرف الكلام ، وعيب أن ننساق فى التحدث اليه وهو لا يحسن اللغة . وخطت مبتعدة عن الكوخ خطوة ، ثم انثنت تنظر اليه من فوق كتفها قائلة : « خبزنا من الذرة الا يوم الاحد ، ولا أظن أن موطنك يعرف الجيد من خبز الذرة » ، فلم يجيبها مستر هلتون بشيء ، وراته من جانب عينها وقد جلس مائلا بمقعده الى الوراء ، وراح يحرق فى مزمارة ، فتمنت لو تذكر أن وقت الحلب قد حان ، بيد أنه شرع يعزف نغمته الاولى اذ هى عائدة الى البيت !!



حل وقت الحلب ثم انقضى . وأبصرت مسز تومسون المستر هلتون رائحا وغاديا بين حظيرة الابقار ومعمل اللبن ، يخطر فى مشيته بخطوات واسعة خفيفة ، حانى الكتفين ، مطأطأ الرأس ، والدلوان الكبيران كأنهما فى تآرجحهما وتدليهما من ذراعيه الطويلتين كفتا ميزان .

وعاد مستر تومسون راكبا من المدينة أشد انتصابا وأعدل قامة، ووراء سرجه خرج مزدوج حافل بالمؤن . فلما ألم بالحظيرة دخل المطبخ وقد ملأه البشر ، فطبع على وجنة مسز تومسون قبلة مدوية بعد أن كنسها بشعر عارضه الطويل . فقد كان واضحا أنه مر بالخان . . . ثم هتف بها : « لقد طوفت بأجاء الدار يا « الى » . . وما من شك أن هذا السويدي يطحن العمل طحنا . ولكنه أصمت من رأيته من خلق الله فى حياته فما . وكأني به يخشى أن يتحطم فكه ان هو فتحه » .

وكانت مسز تومسون ترب ما عونا كبيرا من دقيق الذرة فى اللبن الرائب ، فقالت له بكل وقار : « ان رائحة الخمر تفوح منك يا مستر تومسون . وليتك تكلف أحد الغلامين ان يأتيني بمزيد من حطب الوقود ، فقد انتويت ان اخبز غدا خبزة جديدة » . . فنفذت على الفور رائحة انفاس مستر تومسون الى أنفه ، فتسلل خارجا بعد هذا التقرير الحق وأحضر الحطب بنفسه . أما آرثر وهربرت فأقبلا يتصايجان فى طلب العشاء

وقد غمرت هما الاقدار من قمة الرأس الى اخصص القدم ، ومن الدثار الى اديم البدن ، فقالت لهما مسز تومسون قولها المعاد المعتاد : « اذهبا فاغسلا وجهيكما ومشطا شعركما » . . فتقهقر الاثنان الى السدة الخارجية ، ووضع كل منهما يده تحت مضخة الماء ثم بلل مقدمة رأسه ، فمشطها بأصابعه ، وعادا على عجل الى المطبخ الذي تركزت فيه كل مطامع حياتهما . . وازافت مسز تومسون صحيفة الى الصحف الاربع ، ثم امرت آرثر ، أكبر ولديها الذي يناهز الثامنة ، أن يدعو مستر هلتون الى العشاء . فلم يبرح آرثر موضعه ، بل راح يخور خوار الثور : « اسما ا ا ا ع ! ياهلتو و و و ن ! العشاء ا ا ا حاض . . . ر ! » ثم اردف بصوت خفيض : « يا أيها السويدي الطويل » . . فقالت له مسز تومسون : « اصغ الى . ما هكذا ينبغي لك . . فاذهب الآن اليه وسله الحضور في أدب ، والا جعلت أباك يضربك علقة مليحة ! »

ولاح مستر هلتون عند الباب بقامته الطويلة وسحنته الواجبة ، فقال له مستر تومسون مرحبا وهو يشير بذراعه الى مقعد : « اجلس هاهنا » . فقطع مستر هلتون المطبخ بحذاءيه المربعين في خطوتين اثنتين ، ثم حط فوق المقعد واستقر فيه . وكان مستر تومسون يشغل رأس المائدة ، أما الصبيان فقد تشعبطا فوق مقعدين مواجهين لمقعد مستر هلتون ، وجلست مسز تومسون عند الطرف الآخر من المائدة قريبا من الموقد .

وشبكت مسز تومسون راحتيها ثم حنت رأسها وقالت بصوت عال وفي سرعة ظاهرة : « يا الهى تقدم اليك الشكر على هذه النعمة وعلى عطايك الاخرى أيضا باسم يسوع المسيح آمين » وكانت تجتهد ان تفرغ من صلاتها هذه القصيرة قبل ان تتسلل كف هربرت الصغير القدر الى اقرب طبق من أطباق الطعام . ولو أنه تمكن من ذلك قبل ان تفرغ من الصلاة لتعين عليها أن ترحله عن المائدة مطرودا ، والاطفال الصغار النامون بحاجة ماسة الى الغذاء . وكان مستر تومسون وآرثر ينتظران نهاية

الصلاة دائما ، أما هريوت الذي لم يجاوز السادسة فكان أصغر من أن يلتزم الجدود المرعية !

وحاول مستر ومسر تومسون أن يستلججا مستر هلتون الى الحديث ، بيد أنهما باعا بالفشل . وقد جربا أول الامر الكلام عن الجو ، ثم عن الحاصلات ، ثم عن الابقار . ولكن مستر هلتون كان لا يخرج عن صمته في جميع هذه الاحوال . شيئا مستر تومسون عندئذ يروى نادرة شهدها بنفسه في المدينة . وكانت هذه النادرة عبارة عن اقدم نفر من اصدقاءه الزراع في الخان على تجريع عنزة مقدار من الجعة ، وما كان بعد ذلك من امر العنزة ومسلكتها الفكه . وكانما لم يسمع هلتون من تلك القصة شيئا ، فضحكت مسر تومسون قياما بالواجب ، وان ثم تر في القصة طرفا من الفكاهة ذا بال ، فهي قد سمعتها مرارا من قبل ، وان كان مستر تومسون يزعم كلما رواها أنها وقعت ذلك النهار بالذات . فلا بد انها ، ان كانت قد وقعت فذلك منذ سنوات مضت . ثم ان مسر تومسون ما كانت لترى انها مما يليق سرده في مجلس مختلط يجمع بين الجنسين . فلا شك أن المسؤول عن ذلك هو ما يجنح اليه مستر تومسون من تزييد في الشراب بين الحين والحين . . مع أنه يعطى صوته دائما في جانب التحريم كلما أجرى الانتخاب .

وقد تمت مسر تومسون الالوان الى مستر هلتون ، فكان يتناول من سائرها بلا استثناء ، ولكن بمقدار لا يقيم اود مثله على اكمل وجه ، اذا كان ينتوى أن يستمر في العمل على النهج الذي بدأه . !

وفي الختام التقم من فطيرة الذرة قطعة كبيرة فمسح بها طبقه حتى غدا نظيفا كأنما لعقه كلب بلسانه ، ثم حشا بها فمه حتى اكتظ ، وغادر مقعده وهولا يزال يمضغها ، مستقبلا الباب فقالت مسر تومسون « طاب ليلك يامستر هلتون » وتلقف الآخرون تلك الجملة فرددوها تباعا : « طاب ليلك يامستر هلتون » ، فأتاهم صوت مستر هلتون المتموج مزجرا من جوف الظلام : « طاب ليلكم » .

وراح الغلامان يقلدان لهجته الغربية ويتضاحكان ، فصاحت بهما مسز تومسون : « كفا عن هذا . فلاذنب له في لهجته . وينبغي أن تخجلا كلاكما من السخرية برجل غريب مسكين على هذا النحو ، أم هل يحب أحدكما أن يكون غريبا في ديار غريبة » ؟ فقال آرثر : « أحب ذلك ، وأحسبه يكون شيئا مسليا لطيفا » فقال مستر تومسون : « انهما كلاهما زنديقان ياللى . وجاهلان جهولان » ثم حول وجهه نحو صغيره فى غضب أبوى كاشر وقال : « ستذهبان كلاكما الى المدرسة فى العام القادم . وسيردكما ذلك الى شىء من العقل ، » فقال هربرت : « أما أنا فسيدخلوننى الإصلاحية متى بلغت الهسن » فسألته مسز تومسون : « أحقا ؟ ومن قال هذا ؟ »

فقال هربرت متباهيا : « معلم مدرسة الاحد » ، فقال مستر تومسون محملا فى زوجته : « أرايت ؟ ألم أقل لك ؟ » وانقلب الى أعصار من الغضب ، وأخذ يزأر حتى انفضت عروق رقبتة وهو يصيح : « اذهبا كلاكما الى الفراش حالا قبل أن أسلخ جلدكما » فانطلقا ، وسرعان ما صدرت من خزانة نومهما المقتطعة من السقف المنحدر أصوات العراك والدغدغة والضحك والعواء ، فمالت البيت واهتز لها سقف المطبخ ، فقالت مسز تومسون متشجعة ولكن فى صوت تعوزه الثقة : « لا طائل وراء تشديد النكير عليهما فى هذه السن الغضة ، فلا طاقة لى بذلك » . فقال مستر تومسون : « عجبا ياللى ! ينبغي أن نحسن تربيتهما فلا نتركهما يشبان على الفطرة كما تشب الخنازير » ! فطرقت موضوعا آخر قائلة : « يبدو أن مستر هلتون هذا لا بأس به وان لم تفلح الحيلة فى حمله على الكلام . وانى لأعجب ما الذى طوحه على كل هذا البعد من موطنه ؟ » فقال مستر تومسون : « انه ليس من أهل الثثرة كما قلت . ولكن لاشك أنه ذو دراية بالعمل ، وهذا فيما اعتقد هو المهم . فالمنطقة غاصة بالمتسولين الذين ينشدون عملا » .

وكانت مسز تومسون تجمع الصحف ، فتناولت طبق مستر تومسون من تحت ذقنه ، وقالت : « الحق الصراح أقول لك

اننى أفضل كثيرا أن يكون فى الدار رجل يحسن العمل ويحسن
 الصمت ، فان ذلك يعنى أنه سيكون بمنأى عن شئوننا .
 وان لم يكن من شئوننا مانكته ، الا أن هذا أفضل » . فقال
 مستر تومسون وهو يضج بالضحك فجأة : « انه لحق .
 هاء هاء ! ومعنى ذلك أنك ستفردين بالكلام . أليس كذلك؟ »
 فاستطردت مسز تومسون فيما كانت بسبيله قائلة : « والمأخذ
 الوحيد عليه أنه لا يقبل على الاكل اقبالا يرضينى ، فانى أحب
 أن أرى الرجل يجلس الى طعامه جلسة المستطيب . وقد
 كانت جدتى تقول انه لا وجه للاعتماد على رجل لا يأتى على
 عشائه . وعسى رأيها لا يصدق هذه المرة . » فقال مستر
 تومسون ، وقد أخذ ينظف أسنانه بالشوكة ، وهو مائل الى
 الوراء على خير ما يكون من انشراح الصدر : « لك أقول
 الحق يا الى ، لقد كان رأيى فى جدتك دائما انها عجوز خرفة ،
 ينطق لسانها بأول خاطر يطوف برأسها ، ثم تزعمه الهاما الهيا »
 فاجابته مسز تومسون على الفور : « لم تكن جدتى خرفة
 على الاطلاق ، وكانت فى تسعة أعشار الاحوال تفقه ما تقول .
 ثم ان رأيى أن أول ما يتبادر الى ذهنك هو خير ما يمكن أن ينطق
 به لسانك » . فقال مستر تومسون وقد اندمج فى صيحة
 جديدة : « لا بأس .. ومادمت حساسة جدا من جهة قصة
 العنزة .. فهلا جربت الكلام مرة فى مجلس مختلط ؟ فما
 قولك اذن على هذا الاساس اذا كان أول ما يتبادر الى ذهنك ما
 يكون بين الدجاجة والديك ؟ لا أخالك الا مزعجة حياء الواعظ
 الفاضل » . ثم قرص عجيزتها العجفاء قرصة قوية وقال
 بهيام : « أنك لاتحملين من اللحم أكثر مما يحمل الارنب ، وانى
 لأحب الارانب السماء » ، فحملقت مسز تومسون فى وجهه
 واحمر وجهها ، وكانت على الرؤية فى ضوء المصابيح أقدر ،
 وقالت : « عجبا يامستر تومسون .. انى أخالك فى بعض الاحيان
 من أشد خلق الله أسفا فى التفكير . » ثم جمعت يدها
 على قبضة من شعر رأسه وشدتها شدا بطيئا شديدا وهى تقول

فى لطف : « هذا لتذوق طعم القرص الشديد وأنت تتصنع
الدعابة » !!



وعلى ما بلغه مستر تومسون فى الحياة من نجاح ، لم يفارقه
الاعتقاد الجازم أن ادارة مزرعة اللبن وملاحقة الدجاج من عمل
النساء . وكان كلفا بترديد مقدرته على الحرث ، وحصار
الشوفان ، ودرس القمح ، وسوق العربات تجرها الخيل ،
وبناء صوامع القلال ، فلا يزه فى ذلك رجل .. وكذلك البيع
والشراء من أعمال الرجال . فكان يسوق عربة اللبن مرتين
فى الاسبوع الى السوق ، محملة بالزبد الطازج وشئ من البيض ،
والفاكهة فى ابانها ، فيبيع ذلك ويقبض الثمن فيحتجز لنفسه
الكسور لينفقها كيفما يحلو له ، حريصا على ألا يمد يده الى
مخصصات مسز تومسون .. أما البقرات فكان يضيق بها
من بداية الامر ، فلا بد من حلبها مرتين يوميا بانتظام ، فتقف
هناك وعلى معالم وجهها الانثوى مسحة عتاب . وكذلك كان
يضيق بالعجول ، فهى لا تفتأ تقاوم الرسن (حبل الدابة)
فتخلق بذلك نفسها حتى تجحظ عيونها محاولة الوصول الى
الضرع المحلوب . وكان كبج العجول يجور على رجولته كما
يجور عليها اشتغاله بتبديل لفة طفل ولید ، وكذلك أيضا كان
يضيق باللبن ، فهو تارة يذق ، وتارة أخرى يجف ، أو يخثر
كما كان يضيق بالدجاجات التى تصيح قق قق ، وتفقس فراخها
على غير أهبة منه ، ثم تقود صغارها الى الحظيرة حيث تتعرض لوطء
الخيول ، كما انها تموت بمرض الخنثاق أو بتصلب العنق أو
طاعون الدجاج ، وتنتثر بيضها فوق أرض الله بما رحبت ،
فيفسد نصفه قبل أن تعثر به اليد ، متغاضية عن صف من
الاعشاش أعدته مسز تومسون لتبيض فيه الدجاجات فى حجرة
العلف !! ألا ان الدجاج طامة هائلة حقا !! ..

وأما تطيين الخزائير فهو فى رأى مستر تومسون من أعمال
الاجراء . ولئن كان ذبحها من عمل السيد ، الا ان سلخها

وجزرها اربا من عمل الاجير أيضا . وأما عمل المرأة فهو تنصيل اللحم وتدخينه وتخليجه واستخراج الشحم وعمل السجق .

وكان هذا التحديد الدقيق لميادين نشاط مستر تومسون راجعا الى اهتمامه بمظاهر الاشياء ، وبمظهره الخاص في نظر الله والناس . فحجته القصوى في رفض القيام بأي عمل لارغبة له في القيام به « أنه لا يبدولانقا » . فكل اهتمامه بكرامته وسمعته ، ولهذا قلما كان يرى عملا من الاعمال كقوا لرجولته فينجزه بيديه . وهذه مسز تومسون التي كانت أكثر الاعمال مقبولة لديها ، قد أصبحت كلا عليه منذ زمن طويل ، فسرعان ماتبتين مبلغ قصر نظره اذ علق على مسز تومسون الكثير من الآمال .

وكان قد افتتن بخصرها الدقيق وثيابها المحلاة بالمخرمات (الدنتلة) وعينيها الكبيرتين الزرقاوين . ولم تلبث هذه المغاتن أن تلاشت ، فصار يدعوها « الى » بعد أن بعد ما بينها وبين عهد كانت تسمى فيه الآنسة الن بردجن المعلمة المشهورة في مدرسة الاحد التابعة لكنيسة المعمدان بمدينة الجبل . فهي الآن زوجته العزيزة ، (الى) ذات الصحة المعتلة . فهو محروم من العون الاكبر في الحياة الذي يحق للرجل أن يتوقعه من الزواج وقد أذعن على غير وعى منه لذلك الفشل . وان مستر تومسون ليعلم وان كان لا يفصح عن ذلك الذي يعلم ، انه وان كان عالى الرأس ، سباقا الى أداء الضرائب والاكتتاب سنويا في راتب الواعظ ، وان كان من ملاك الاراضي ، ورب أسرة ، ومخدوما ، ونديما بشوشا في مجالس الرجال ، الا أنه ماض على سطح حياته في طريق النزول !

يا الهى ! ما أحوج المكان الى كف رجل تقبض على المعول بين الحين والحين ، فتتنظف المكان من ذلك الحطام الذى تزدهم به الحظيرة ودرجات المطبخ . أما طلة العربية فكانت حافلة بالآلات المحطمة والسروج البالية والعجلات العتيقة ودلاء اللبن المخروقة والاخشاب النخرة ، حتى ضاقت عن دخول العربية وخروجها أو كادت ، وما من أحد يمد الى ذلك كله يده . وأما هو فحسبه عمله العادى . وانه ليجلس أحيانا في موسم الكساد ساعات يعمل فكره في ذلك ، وينثر الطبايق على الاعشاب النامية حول كومة الاخشاب ،

متعجبا متسائلا : ماذا يستطيع المرء ازاء ذلك ، وهو
 المنقل الكاهل . وكان يتطلع الى يوم يشب فيه ولداه عما قريب ،
 فيطحنهما في العمل الشاق كما طحنه والده حين كان غلاما من
 قبل . وليعلمهما كيف يتوليان زمام المكان ويديرانه كما ينبغي .
 أجل انه سوف لا يرعقهما من أمرهما عسرا ، ولكنه سيطلبهما
 بما ينهض بقوتهما أو ليكون له معهما شأن ؟ فانهما لمكسلا
 كبيران ، لاهم لهما الا ازجاء الفراغ ! وكان مستر تومسون يثور أحيانا
 فيعنف بهما حين يتخيل مستقبل أيامهما وقد نما عودهما ، ولاهم
 لهما الا التمسك أو صيد السمك . ويعزم أن يضع لهذا حدا ، وفي
 أقرب وقت مستطاع .

ولما توالى الفصول ، واتسعت دائرة نشاط مستر هلتون شيئا
 فشيئا ، أخذ بال مستر تومسون في الهدوء رويدا رويدا فمما من شيء
 يبدو أن ذلك الفتى يعجز عنه ، فهو يقوم بكل شيء بصورة طبيعية
 كما لو كان من شأن عمله أن يكون كذلك ولا زيادة . فينهض في
 الساعة الخامسة كل صباح ، فيعده قهوته ، ويطهو افطاره ، ثم يمضي
 الى حظيرة الابقار قبل أن يشرع مستر تومسون في الثأوب بوقت
 طويل ، أو يشرع في التمثلي والتأوه والزئير وتلمس سرواله !
 حتى اذا حلب البقرات ونهض بنظافة معمل اللبن وادارته ، وخض
 الزبد ، طاف بالدجاجات وأفلح في اقناعها بصورة خافية أن تبيض
 في الاعشاش المعدة لها ، لاتحت البيت أو وراء أكداس الدريس .
 وكان يطعم الدجاجات بانتظام ، فكثير فقصها حتى لم تدع موضعا
 لقدم . ورويدا رويدا تلاشت أكوام الاقدار التي كانت حول الحظائر
 والدار . وكان يحمل اللبن الرائب والذرة الى الخنازير ، ويستخرج
 القراد من معرفات الجياد . وكانت فيه للعجول رقة وان كانت فيه
 للابقار والدجاج جهامة . ولئن دل مسلكه على شيء ، فعلى أن مستر
 هلتون لم يسمع قط بفرق بين أعمال الرجال وأعمال النساء في
 المزارع .

وفي العام التالي أطلع مستر تومسون على صورة آلة لكبس
 الجبن كانت في مصور تجارى حمله البزيد اليه وقال له : « انها
 شيء طيب ، فاشترها أصنع لك الجبن » . وجاءت الآلة وصنع

مستتر هلتون بها جينا ، وبيع الجن مع الكميات المتزايدة من الزبد وأقفاص البيض .

وكان مستتر تومسون يشعر في بعض الأحيان بالزراية لسلوك مستتر هلتون وأحواله . فقد كان من المشين في نظره لقدر الرجل أن يتسقط بضعة ضئيلة من السنابل أسقطتها العربة في طريقها من الحقل . أو يتسقط الثمار التي أسقطها الشجر معطوبة أو فجة كي يطعمها الخنازير ، أو يخزن المسامير القديمة والأجزاء الفائضة من الآلات العتيقة ، أو ينفق وقتا ثميناً في ختم الزبد برسم ابتكره قبل أن يبعث بها إلى السوق . فكان مستتر تومسون يفكر في ذلك كله وهو متربع في مكانه المرتفع فوق العربة ، التي أثقلتها الزبد المزركشة في وعاء ضخم سعته خمسة جالونات ملفوف بخرق مبللة . وهو في طريقه إلى المدينة يستحث الجوادين ويطلق فوق ظهريهما بالاعنة . ولكنه لم يكن يفصح عن شعوره ذلك بالزراية ، إلا أنه أمرؤ يقدر نعمة الله قدرها ، فالحق أن الخنازير كانت على يديه أكبر حجما وأغلى عند البيع ثمناً . والحق أيضا أن مستتر تومسون لم يعد يشتري لها علقا ، لأن مستتر هلتون كان يحذق تدبير المحصولات ، بل إنه أبان موسم ذبح الثيران والخنازير كان يعرف كيف يدخر البقايا التي يتبذرها مستتر تومسون ، ثم لا يرياً بنفسه عن تنظيف المصارين وحشوها بطريقة خاصة به . فلا سبيل لمستتر تومسون إلى الشكوى من شيء .

وفي العام الثالث رفع أجر مستتر هلتون دون طلبه ، وفي العام الرابع ألقى مستتر تومسون نفسه وقد سدد ديونه . ليس هذا فحسب ، بل صار لديه أيضا رصيد صغير في المصرف ، فرفع أجر مستتر هلتون مرة أخرى ، وكانت الزيادة في كل مرة بمقدار دولارين ونصف دولار في الشهر . وقال مستتر تومسون في معرض تبرير هذا التبذير : « ان الرجل أهل لهذا يا « الى » ، فقد ربح المحل على يديه وأريده أن يعلم أنني مقدر له هذا الصنيع »

ومع الزمن ألف آل تومسون كل الألفة لياذ مستتر هلتون بالصمت ، وبياض حاجبيه وشعره ، واستطالة فكه المتجهم ، وتأبى عينيه أن تريا الأشياء ، حتى ما تحت يديه من العمل ،

وكانت مسز تومسون تشكو شيئا من ذلك في مبدأ الأمر فتقول : « لكأنى أجلس الى المائدة مع روح من الارواح بغير جسد ، وان خطر لك أنه ربما وجد شيئا يقوله عاجلا أو آجلا » فيجيبها مستر تومسون « دعيه وشأنه ، فانه متى رغب فى الكلام تكلم » . .

ومرت السنوات ، ولم تساور مستر هلتون الرغبة فى الكلام ! فانه ما ان يفرغ من عمل يومه حتى يقبل من جهة الحظيرة أو معمل اللبن أو بناء المطبخ ، مطوحا فانوسه فى يده ، وحذاءه الضخم يدق الأرض الصلبة بمثل وقع حوافر الجياد . أما هم فجلوس فى المطبخ اذا كان الوقت شتاء ، أو لدى السدة الخلفية اذا كان الوقت صيفا ، فيسمعونه وهو يجرمقعه الخشبى ثم يسمعونه وهو يميل به الى الخلف فيصر صريرا ، ثم ينطلق فى عزف نغمته الفريدة على مزمار من مزاميره . ومزاميره ذات طبقات فى الصوت شتى ، بعضها أهدأ وأعذب من بعض . وكان يخالف بينها ليلة وراء ليلة ، وربما فى العصر أيضا حينما يجلس لالتقاط أنفاسه .

وكان آل تومسون يستعذبون تلك النغمة فى أول الامر كثيرا ويستحبون سماعها . ثم جاء وقت بلغ بهم الملل منها غاية مداه ، فكانوا يتنادون فيما بينهم أن ليتهم يتعلم نغمة جديدة . ثم انتهى بهم الأمر الى عدم ورودها على سمعهم ، لا لأنه انقطع عن عزفها ، بل لأنها غدت شيئا مألوفا لديهم كصوت الريح اذ تهب عند المساء ، او كخوار البقر ، أو كأصواتهم أنفسهم حين يتكلمون .

واهتمت مسز تومسون بين الفينة والفينة بما يكون من روح مستر هلتون ، فما كان حلف كنائس ، ولا أخا صلاة . فاذا كان يوم الاحد من كل اسبوع مضى على سيرته فى العمل ليلوى على شيء ، كأنما يوم الاحد وسائر أيام الاسبوع سواء ، فقالت لمستر تومسون : « أأألنى ينبغي أن أدعوه لسماع الدكتور مارتن . فليس من شيم النصرانية فى كثير ألا ندعوه الى ذلك . فهوليس من ذلك الضرب المقحام من الرجال وليس بمقدم حتى نسأله » . فقال

لها مستر تومسون : « دعيه وشأنه • فالرأى عندى أن ديانة المرء من خاص أمره ، ثم ان الرجل لا يملك من مليوس يوم الاحد شيئا ، وليس يليق أن يمضى الى الكنيسة فى سرواله وقميصه المعهودين • ولست أدري ماذا يصنع بماله ، ولكنه ولا شك لا ينفقه سفيها »

ومع ذلك فما تسربت تلك الفكرة الى دماغ مسز تومسون حتى استبدت بها ، فلم تدع لها راحة ، الى أن دعت مستر هلتون للذهاب مع الاسرة الى الكنيسة يوم الاحد التالى • وكان هو منهمكا فى تكديس الدريس أكواما مرتبة صغيرة فى الحقل الواقع وراء البستان • فلبست مسز تومسون نظارها الداكن وقبعتها الواقية من الشمس ، وقطعت تلك المسافة بأكملها الى حيث كان واقفا كى تخاطبه فى الامر • فكف عن العمل واتكأ على المدرء وأصغى لمقالتها ، ثم ألم بمسز تومسون شئ من الذعر لمراءه ، فقد حملت عيناه الباهتتان كأنما تخترقان شخصا ، وقطب حاجبيه ، وتصلب فكه الطويل ، وقال فى فظاظة : « لدى عمل » • ثم رفع المدرء واستدبرها وراح يكوم الدريس • فعادت مسز تومسون أدراجها كسيرة الخاطر ، وهى تحدث نفسها انه كان ينبغى بعد تلك المعاشرة الطويلة أن تكون قد ألفت سلوك مستر هلتون • ومع هذا فما من شك أنه يخلق بالرجل ، وان كان أجنبيا ، أن يكون على شئ من التهذيب مع من يدعو به بدعوة المسيح ، ! وقالت فى ذلك الصدد لمستر تومسون « انه ليس من أهل التهذيب ! وذلك هو المأخذ الوحيد الذى آخذه عليه ، وأحسبه يعجز عن سلوك مسالك سائر الناس • وانك لتحسبه يضرر على الدنيا ضغنا ، وكثيرا ما يحيرنى أمره » !!

حدث فى العام الثانى أمر أثار لدى مسز تومسون شيئا من الريب ، ولم يكن ذلك الامر مما تستطيع الحكاية عنه بالكلام ، بل تكاد لا تستطيع الحكاية عنه بصورة من صور الأفكار • ولو أنها أرادت ان تبينه لمستر تومسون لكان بيانها أسوأ من الواقع أو أخف منه وقعا ، فقد كان الذى حدث من ذلك

القبيل الغريب الذي يشبه أن يكون نذيرا ، ولكن يغلب ألا يسفر ذلك النذير عن شيء !!

ففى ذات يوم حارغشاه السكون من أيام الربيع ، خرجت مسز تومسون الى حديقة الحضر لتأتى بشيء من الجزر الغض والبصل الاخضر واللوبيا الخضراء لتعد منها طعام العشاء . وفيما هى تجمع تلك الثمار وقد خفضت قبععة الشمس فوق عينيها ، وتضع كل صنف من الحضر فى كومة مستقلة بسلتها ، راقها ما لفت نظرها من اتقان زراعة مستر هلتون ، ونقاؤها من الاعشاب ، وما أحدثه من غنى وخصوبة فى التربة ، فقد بسط الكثير من السماد الذى يستخرجه من الحطائر ، وجعل ذلك التسميد فى ابانه ، فانبثقت الحضر يانعة مزدهرة . ثم عادت متوخية ظلال أشجار التين الصغيرة التى تكاد أفرعها وقد أعفيت من التقليم أن تمس الثرى ، فكان أوراقها العريضة ستار ظليل رطيب . . وكانت مسز تومسون تنشد الظل دائما حرصا على عينيها ، واذهى تنظر فيما حولها على غير هدى رأت خلال ذلك الستار منظرا وقع منها موقع الغرابة الشديدة . ولو كان ذلك المنظر ناطقا صاحبا لما كان فيه للغرابة موضع ، ولكن الصمت هو الذى راعها : فقد كان مستر هلتون يهز آرثر من كتفيه هزا عنيفا وحشيا ، وقد تصلب وجهه واكفهر الى أقصى حد ، وكان رأس آرثر يتطوح الى الوراء والامام وهو لا يبدى مقاومة بالتصلب كما يبدىها حين تهم مسز تومسون أن تهزه ، وكان يبدو فى عينية فزع ، بيد أن الدهشة ربما كانت أوضح فيهما من الفزع . وأما هربرت فوقف عن كذب يرقب ما يحدث فى استسلام . فأطلق مستر هلتون آرثر وقبض على هربرت فهزه على ذلك المنوال الوحشى ، ووجهه ينطق بما كان ينطق به من كراهية . وتغضن فم هربرت كأنه يهم بالبكاء ، بيد أنه لم ينس بناءة . ثم أطلقه مستر هلتون ودار على عقبه فدخل كوخه ، وجرى الغلامان كمن يطلبان النجاة بحياتيهما ، ولكن بغير كلام ، الى أن اختفيا وراء زاوية البيت عند واجهته .

وقهلت مسز تومسون ريثما وضعت سلتها فوق مائدة المطبخ ثم دفعت قبععتها المظلمة الى الوراء ، بيد انها لم تلبث أن ردتها سيرتها الاولى ، ثم اقتفت أثر ولديها ، فاذا هما

جالسان القرفصاء معا تحت أجمة من شجر التوت الصينى
 فى مواجهة نافذة مخدعها ، وكأن هذا الموضع مأمّن وقعا
 عليه . فسألتهما مسز تومسون : « ماذا تصنعان ؟ » فنظرا
 من تحت جبينهما نظرة المذلة ، وغمغم آرثر قائلا : « لا شئ » ،
 فقالت مسز تومسون محتدة : « تعنى لا شئ الآن ، حسنا ،
 عندى لكما شغل كثير ، فادخلانى هذه اللحظة وساعدانى فى
 اعداد الخضر » . فنهضا وبادرا بالامثال فى أعقابها . واجتهدت
 مسز تومسون أن تتصور ما بدر منهما ، بيد أنها لم تحب
 من مستر هلتون على كل حال أن يأخذ على عاتقه أمر تأديب
 ولديها الصغيرين . ولكنها خشيت أن تسألها بيانا ، فقد
 يكذبانها ، فيتعين عليها عندئذ أن تجلدهما بالسوط جزاء وفاقا ،
 أو تتظاهر بتصديقهما فيشبان على عادة الكذب ، أو لعلهما
 يصدقانها ، وتكون المسألة مما تجب فيه عقوبة الجلد . فكان
 التفكير فى حد ذاته مجلبة للصداع ، فخطر لها أن تسأل مستر هلتون .
 ولكن وجدت أن قيامها بسؤاله لا يليق ، فمن الخير أن تنتظر
 حتى تطلع مستر تومسون على الامر فيستجليه . وفيما كانت
 تقلب المسألة فى ذهنها ، جعلت تشغل الغلامين حتى لم يقر لهما
 قرار : « اقطع شواشى الجزر خيرا من هذا يا هربرت فانك
 مهمل . وانت يا آرثر لا تقطع اللوبيا قطعا صغيرة هكذا ، فانها
 صغيرة بطبيعتها . اذهب يا هربرت فأنت بحمل من
 الخشب . خذ يا آرثر هذه البصلات فاغسلها تحت المضخة .
 قم يا هربرت بعد أن تفرغ مما بيدك فخذ المقشة واكنس هذا المطبخ .
 وأنت يا آرثر هات جاروفا وارفع هذا الرماد . لا تمث فى أنفك
 يا هربرت . كم مرة ينبغى أن أكرر عليك هذا الامر ؟ اذهب
 يا آرثر وافتح الدرج الأعلى من الجهة اليمنى فى صوانى ، وهات
 لى حق الفازلين لأدهن أنف هربرت . اقترب منى يا هربرت . . . »
 فكان الغلامان يسرعان من مهمة الى مهمة ، فنشطت دماؤهما
 وأورثهما ذلك مرحا وحيوية ، فسرعان ما خرجا الى الفناء الامامى
 مرة أخرى واشتبكا فى مباراة مصارعة . فجعللا يتمرغان ،
 ويتضاربان ، ويحبوان ، ويتماسكان وينهضان ليسقطا صباخين بغير
 هدف وفى ضجة متواترة ، كأنهما جروان ، وكانا يقلدان صوفان

الحيوان شتى ، ولكن لم يصدر عنهما صوت أنسى واحد . أما وجههما القدران فكانا يتصببان عرقا ، وجلست مسز تومسون في نافذتها ترقبهما باعتزاز وحنان فانهما كانا على عافية ونضرة ، فكان نموها سريعا ، ولكن تلك المراقبة لم تكن تخلو من مشقة أيضا ، تدل عليها هذه الابتسامة المكدودة وهذه الدموع التي تنساب من أجفانها المتقلصة تحت وطأة ضوء الشمس ، وأهمها أن تراهما على ما بهما من كسل واهمال ، كأنهما لا يستقبلان من دنياهما غدا ولا يرعيان نفسا لهما خالدة ، فأى شيء يا ترى أقدماعليه فحملا مسير هلتون على أن يهزهما هزه ذاك العنيف وفي وجهه للخطر نذير أى نذير ؟

فلما كان المساء ، قبيل العشاء ، لم تقل مسير تومسون شيئا عن المخاوف التي أثارها ذلك المشهد في نفسها ، بيد أنها دبت له ان مسير هلتون قد هز الغلامين اسبب ما ، فتوجه الى الكوخ وتحدث الى مسير هلتون ، ولم يلبث الا خمس دقائق حتى عاد فحملق في صغيريه صائحا : « لقد قال ان هذين الوغدين عاثا بمزاميره فسادا يا « الى » ، فنخافيهما حتى امتلأت بالأساخ والبصاق ففسدت وفسد عزفها ! فقالت مسز تومسون : « هل قال ذلك كله ؟ لا أرى هذا ممكنا ! » فقال مسير تومسون : « هذا ما عناه على كل حال ، وان لم يفصح عنه على هذا النحو المبين ، ولكنه نأثر النفس جدا لهذه الفعلة » . فقالت مسز تومسون : « يا للعار ! وأى عار ! لا بد من عمل شيء يذكركما أنه لا يحل لهما العبث بأشياء مسير هلتون » . فقال مسير تومسون : « سأدبغ جلدهما ، وسأربطهما برسن العجل ، اذا لم يقلعا عن ذلك » . فقالت مسز تومسون : « لعل من الخير أن تترك عملية الجلد ، فان يدك ليست على شيء من الحفة ، وهما طفلان » . فصاح مسير تومسون : « وهذا هوييت الداء وسبب بلائهما ، فقد أفسدهما التدليل ، وهذه طريقتك معهما ! فلا بد من ردعهما ردعا كافيا ، والا انتهى الامر بهما الى الاصلاحية » . لقد كان أبى يطرحنى أرضا بضربات عكازته أو بعضا من خشب الحريق أو بأى شيء اتفق وقوعه تحت يده » ! فقالت مسز تومسون : « ولكن ليس معنى هذا أنه صواب ، فلست أقر هذه الطريقة في تنشئة الاطفال ، فهي تدفعهم الى الفرار من البيت

، وما أكثر ما رأيت من هذا القبيل » . فقال مستر تومسون وقد هدأ شيئا ما : « سأهشم عظامهما عظمة عظمة اذا لم يطيعاك فيحسننا الطاعة ولم يكفأعما لجا فيه من العناد » . فالتفتت مسز تومسون الى الغلامين وأمرتهما على الفور : « أتركا المائدة واغسلا وجهيكما وأيديكما » ، فانفلتا الى المضخة ، ثم عادا يتسللان متضائلين ، فقد علما منذ أمد طويل أن أهمهما تطلب اليهما الاغتسال دواما حينما ينتظرهما سوء العذاب ، وشخصيا الى صحفتيهما ببصرهما ، فانفجر مستر تومسون فيهما قائلا : « والآن ما قولكما فيما فعلتماه اذ دخلتما كوخ مستر هلتون وأفسدتما مزاميره » ؟ فتداعى الغلامان وبدأ على وجهيهما ما يبدو على وجوه الاطفال من حزن ويأس حين يصطدمون بعدالة الكبار الرهيبة العمياء ، وتبادلا بالنظرات برقبات الذعر : « لا مفر من علة مليحة تأكلها ! » وفي قنوط أسقطت أيديهما خبز الذرة المدهون بالزبد في صحفتيهما ، ثم استقرت أيديهما على حرف المائدة ، فقال مستر تومسون : « ينبغي أن أحطم ضلوعكما ، وهذا ما تستحقان » ، فهمس آرثر بصوت ضعيف : « نعم ياسيدي » . وقال هربرت بشفة مرتعدة : « نعم ياسيدي » . فقالت مسز تومسون بلهجة النذير والتحذير : « وبعد حذار أيها الاب ! » ولكن الطفلين لم ينظرا اليها ، فلم تكن لهما ثقة بحسن نيتها ، فهي التي وشت بهما أصلا ، فلا وجه للثقة بها ، فرجا أنقذتهما وربما لم تنقذهما ، فلا خير في الركون اليها ، واستطرد الأب : « انكما تستحقان علة مليحة ، ألسنت تستحقها يا آرثر ؟ » فرفع آرثر رأسه وقال : « بلى ياسيدي ! » ، فقال الأب : « واذا ضبطت أحدكما في المرة القادمة يحوم حول كوخ مستر هلتون ، فسأسلخ جلديكما كليكما ، أسامع أنت يا هربرت ؟ » ، فغمغم هربرت بصوت متحشرج وقد سقط منه رغيفه : « نعم ياسيدي » فقال مستر تومسون وهو يمد يده الى طعامة : « والآن اجلسا وتناولاعشاءكما ، واياكما أن أسامع لكما صوتا ! » فانتعش الغلامان الصغيران شيئا ما ، وشرعا يمتضغان ، ولكن كلما تلفتا وجدا أنظار والديهما شاخصة اليهما ، فلم يدريا متى يشغلان عنهما بشئ آخر ، فصارا

يأكلان استراقا ، وهما يجتهدان أن يتواريا عن السمع والبصر ، فكان خبز الذرة يعترض زوريهما ، واللبن الرائب يقرقر في اللهاة ، وبعد برهة قالت مسز تومسون : « وثمة شيء آخر يا مستر تومسون ، قل لمستر هلتون أن يأتي إلينا فورا اذا ضايقاه ، ولا يكلف نفسه هزما يديه ، وأخبره أننا سنتولى تأديبهما بأنفسنا » . فأجابها مستر تومسون وهو يحملق فيهما : « أنهما غاية في الوضاعة ، واني لآعجب كيف لم يقتلهما فينتهى من أمرهما » ولكن كان في نبرة صوته ما طمأن آرثر وهربرت أن الازمة قد مرت هذه المرة ، فصعدا أنفاسا حرى ، ونشطا في جلستهما ومدايديهما الى أدنى الطعام منهما ، وفجأة قالت مسز تومسون : « اسمعا » ، فكف الصغيران عن الاكل ، واستطردت : « ان مستر هلتون لم يأت لتناول العشاء ، فاذهب يا آرثر وقل له انه تأخر عن موعد العشاء ، وتلطف معه في القول » . . . !

فانفلت آرثر محزونا محسورا ويمم صوب الباب ، دون أن ينطق بكلمة .



أنى لمزرعة ألبان صغيرة أن تجرى فيها معجزة من معجزات الثراء ، لهذا لم يبلغ آل تومسون مبلغ الثراء ، وانما قصاراهم أنهم أفلتوا من الوقوع فى ملاجىء الفقراء - كما يحلو لمستر تومسون أن يكنى عن الفاقة والمسغبة - فقد صار مركزه مستقرا على الرغم من ضعف صحة « الى » ، وعلى الرغم من تقلبات الطقس والهبوط الغريب فى أسعار السوق ، وعلى الرغم أيضا من متاعبه الحفية التى كانت تثقل كاهله .

وقد صار مستر هلتون عمادا لاسرة وموضع رجائها ، وتعلق به آل تومسون أجمعون ، هم على الاقل قد كفوا عن النظر اليه نظرة الاستيحاء والاستغراب ، وانما هم الآن على ما يشعرون بينهم وبينه من فجوة لا سبيل الى اجتيازها ، يرونه رجلا طيبا وصديقا يعول عليه ، فهو ماض فى سبيله ، قائم بعمله ، عازف نغمته المعهودة .

ومرت سنوات تسع ، وكبر الغلامان وتعودا العمل ، ولم يعودا يذكران زمنا لم يكن فيه «العجوز هلتون» هناك ، وقد يدعوانه «الجهم الكاشر» ، أو «أخا العظام» ، أو «مستر هلتون اللبانة» أو «السويدي الطويل» ، ولو أنه سمعهما لساء بعض هذا ، ولكنه لم يسمع ، ثم هما أيضا ، ما كانا يقصدان به الاساءة أو على الأقل لم تكن الاساءة تتجاوز اطلاق هذه التسميات ، فقد كانا يكتيان عن أبيهما بقولهما : «العجوز» و «ذكر الاوز» ، ولكن لا في وجهه طبعاً .

وتجاوز الفتیان مراحل النمو الوعة المتعرجة بفضل قوتهما ، فخرجا سالمين من مزالقها ، ان كانت السلامة من ذلك مما يتاح لبشر ... فرأى فيهما أبواهما فتين قوين ، على طيبة في القلب ، وان كانت في مظهرهما فظاظة . وأثلج صدر مستر تومسون أن يرى نفسه وقد أفلح في تربيتهما على غير الكسل والتبطل ، وان كان لا يدري كيف كتب له ذلك الفلاح ، بل ان صلاحهما أدخل في روع مستر تومسون أنهما هكذا خلقا ، وانه لم يخاشنهما يوما من أيام حياتهما لاعوجاج بدا منهما ، بله أن يكون قد ضربهما فأوجعهما ... فما كان آرثر وهربرت ليعصيا له أمرا أو يناقشان له رأيا .

كان شعر مستر هلتون المندى بالعرق ملتصقا بجبينه المتصبب ، كما التصق بصلوعه قميصه الذي اختلطت فيه الزرقة الفاتحة بالزرقة القاتمة . وهو منهمك في تكسير الخشب للوقود . . بيد انه كان يعمل بفأسه في أناة ، ويرتب الخشب أكواما منسقة . ثم اختفى وراء البيت في داخل كوخه الذي كان يشارك كومة الخشب ظلاظيلا يبسطه صف من الشجر الوارف . أما مستر تومسون فكان يتأرجح في كرسى هزاز عند السدة الامامية ، وهي موضع لم يحببه يوما ، ولكن الكرسي كان جديدا ، فقررت مسز تومسون أن يحتل السدة الامامية ، مع أن السدة الجانبية كانت أولى به وأوفق ، لانهما أرطب وأطرى . ولما كان مستر تومسون راغبا في الجلوس في ذلك الكرسي ، فلم تكن له حيلة الا أن يكون حيث أريد للكرسي أن يكون ... حتى اذا ما خلقت

جدة الكرسي ، وتخلت « الى » عن المباهاة به ، تسنى له أن ينقله
حيث يشاء ، عند السدة الجانبية . . .

وكانت حرارة شهر اغسطس تكاد لا تنطاق ، والهواء من غلظته
يسمك أن تنقبه فينتقب ، وقد غطى التراب كل شيء بطبقة
كثيفة . . . مع أن مستر هلتون كان يرش الفناء كله رشاً
منتظماً في كل ليلة . بل أنه كان يرفع الخرطوم فيغسل بالماء
أعلى الشجر وسقف البيت . وكانوا قد زودوا المطبخ بأنايب
المياه ، وجعلوا في خارجه صنوبراً .

ويظهر أن مستر تومسون كان قد أغفى ، ذلك أنه فتح عينيه
واغلق فمه في آخر لحظة ، قبل أن ينكشف حاله لرجل غريب
كان قد بلغ بمركبته البوابة الامامية . ونهض مستر تومسون
فلبس قبعته ، ورفع ماتهذل من سرواله ، وجعل يرقب ذلك
الغريب وهو يعقل الى المربط جواده المشدودين الى عربة
خفيفة . . وقد عرف فيهما جوادى اسطبل فى بلدة بودا .

وفيما كان الغريب يفتح البوابة ، وهى بوابة متينة انشأها
مستر هلتون وسواها على قواعد ثابتة منذ سنوات خلت ،
هبط مستر تومسون المشى كي يستقبله ، ويستطلع ماذا عسى
أن يكون قد جاء به فى مثل تلك الساعة من النهار ، فى ذلك الجو
المثقل بالعرق والتراب .

ولم يكن الغريب بدينا بمعنى الكلمة . وانما هو برجل هزل
بعد بدانة أشبه ، فجلده متهدل وثيابه فضفاضة . . . فكل ما فيه
يدل على امتلاء أتت عليه علة . ولم يدر مستر تومسون لماذا لم
يرتح الى منظره .

أما الغريب فخلع قبعته وقال بصوت هاش مرتفع : « أأنت
مستر تومسون ، مستر رويال إيرل تومسون ؟ » فأجابه مستر
تومسون فى شبه فتور : « هذا هو اسمى » فقد أخذ بما أبداه
الغريب من رفع للكلفة . فقال الغريب : « اسمى هاتش .
مستر هومرت . هاتش ، وقد جئتكم للمفاوضة فى شراء حصان » .
فقال مستر تومسون : « أحسبك قد غرر بك ، فليس عندى
حصان يباع . ومن عادتى حينما يكون عندى من هذا القبيل

مايبيع ان انبيء جيرانى وأعلق لافتة فوق البوابة » . ففغر الرجل البدين فمه وقهقه مسرورا كاشفا عن أسنان معوجة بنية اللون كأنها جلد حذاء . ولم ير مستر تومسون فى الامر ما يدعو للضحك ، وصاح الغريب : « هذه نكتة لى مأثورة ! ثم تناول باحدى يديه يده الاخرى وصافح نفسه بحرارة وهو يقول : « فانى أقول دائما شيئا من هذا القبيل حينما أقدم على زيارة غريب . ذلك أنى لاحظت ان المرء اذا زعم انه جاء لشراء شيء لم يستثر ريبة . أفهمت ؟ هاو ! هاو ! هاو ! هاو ! » فأتار ذلك الضحك أعصاب مستر تومسون ، لان النظرة التى أطلت من عينيه لم تكن مما يتفق ورنه قهقهته . . ومع ذلك فقد جراه مستر تومسون بشيء من القهقهة على سبيل المجاملة ، وان لم يفهم النكتة ، ثم قال : « لالزوم لشئ من ذلك معى ، لاننى لأرتاب فى انسان حتى يستوجب الريبة بقول أو فعل . أما قبل ذلك ، فالناس جميعا عندى سواسية » فثاب الغريب فورا الى الاتزان والوقار ، ثم قال : « حسنا لم آت اذن لبيع أو شراء . والواقع اننى زرتك فى أمر بهمنا كلينا . أجل ياسيدى ، أود أن أتحدث اليك ، ولن يكلفك ذلك فلسا » ! فقال له مستر تومسون على مضض : « هذا عدل . . فتعال وراء البيت ، فهناك شئ من الظل » . .

وذهبا خلف البيت ، حيث جلسنا فوق جذعين تحت شجرة توت صينى . وعندئذ قال الغريب : « أجل ياسيدى ، هومرت هاتش اسمى ، وأمريكا وطنى ، وأخالك قد عرفت الاسم ؟ فقد كان لى ابن عم اسمه جيمسون هاتش كان يعيش فى هذه الجهة » . فقال مستر تومسون : « لأظننى أعرف هذا الاسم . . وان كان هناك من يحملونه فى منطقة مدينة الجبل » ، فصاح الرجل فى تأثر عميق ، وكأنه يشفق على مستر تومسون من جهله : « كيف هذا ؟ لقد هبطنا من جورجيا منذ خمسين سنة فهل لك هنا زمن طويل ؟ » فأجابه مستر تومسون وقد بدأ يشعر باللدد : « قضيت هنا عمرى كله . وكذلك أبى وجدى من قبل . نعم ياسيدى . لقد سلخنا هنا أعمارنا كلها . وكل من شاء ان ينشد فردا من آل تومسون يعرف أين يلفيه . فقد

هاجر جدى سنة ١٨٣٦ « فقال الغريب : « من ايرلندا فيما اظن ؟ » فقال مستر تومسون : « من بنسلفانيا . وما الذى دعاك الى الظن أننا جئنا من ايرلندا؟ » فقفر الغريب فمه وراح يصيح من فرط السرور ، ثم صافح نفسه كأنه لم يقابل نفسه منذ زمان طويل وقال : « المسألة اننى أعتقد ان الشخص لابد ان يأتى من مكان ما . أليس كذلك »

وفى أثناء الكلام لبث مستر تومسون يرمق الوجه المائل أمامه ، ولاشك انه أذكره شخصا ما ، أو لعله كان قد رأى الرجل نفسه فى مكان ما من قبل . ولكنه لم يستطع التحديد . وأخيرا استقر رأى مستر تومسون على ان ذوى الاسنان المعوجة جميعا أشباه .

وأقره مستر تومسون على رأيه فى شىء من الضيق : « هذا صحيح . ولكن عقيدتى ان آل تومسون سلخوا هناردا طويلا جدا ، فلم يبق موضع للتساؤل من أين جاءوا . والآن . . نحن طبعا فى فصل الركود ، وكلنا لديه شىء من الفراغ يستلقى فيه قليلا . ولكن لدينا جميعا مع هذا ما يشغلنا من الاعمال العادية ولست استعجلك ، ولكن اذا كنت قد أتيتنى لصفقة ، فعله من الخير أن نخوض فيها ؟ » فقال الرجل البدين : « المسألة كما قلت لك صفقة ، وليست صفقة . فانى أنشد رجلا اسمه هلتون ، مستر أولاف اريك هلتون ، من شمال داكوتا . وقد قيل لى فى هذه المنطقة أننى قد أجده هنا . ولا مانع عندى من أن أتحدث اليه ، . . . كلا ياسيدى لا مانع عندى مطلقا ، اذا لم تمنع . . » فقال مستر تومسون : « لم أعرف يوما اسمه الوسيط . ولكن مستر هلتون هنا على كل حال . وله هنا تسع سنوات ، فهو رجل مستقيم ، ولك ان تخبر من شئت ان هذا رأى » فقال مستر هومرت . هاتش : « يسرنى ان أسمع هذا ، لانه يسرنى أن اسمع ان انسانا قد قوم سبله ، واستقر على قرار . أما حين عرفت ان مستر هلتون ، فكان طائشا ! نعم ياسيدى ، هذه كانت صفته ، وكان لا يعنى ما يفعله . وانه ليسرنى أعظم السرور الآن أنلقى هذا الصديق القديم وقد استقر وحسن حاله . . . » فقال مستر تومسون : « كلنا مر بنزق الشباب ، فهو كالحصبة اذ

تصيبك ، فتضيق بنفسك ويضيق الناس بك كافة . ولكنها لا تلبث أن تنجلي ، وقبلما تعقب أثرا مدموما « ! وسره أن يدلى بهذا الرأي ، حتى لقد نسي نفسه فانطلق يقهقه . فقد الغريب ذراعيه فوق بطنه ، واخذته نوبة من الضحك ، فجعل يقهقه الى أن أغرورقت عيناه بالدموع . فكف مستر تومسون عن الضحك ، وراح يرمق الغريب في توجس . فقد كان يحب الضحك كما يحبه أى انسان ، ولكن لكل شىء حدا من الاعتدال لا ينبغي ان يعدوه . أما هذا الشخص ، فيضحك ضحكا جنونيا والحق يقال . وهو ليس بالذى يضحك لانه يجد في الاشياء ما يدعو الى الضحك حقا ، وانما هو يضحك لسبب في نفسه .

وصمت مستر تومسون وقد وجم ، وانتظر حتى ثاب مستر هاتش الى شىء من الهدوء . وأخرج مستر هاتش بعدئذ منديلا على جانب من القنطرة عظيم ، أزرق اللون ، فمسح به عينيه ، وقال كالمعتذر : « كادت هذه النكتة أن ترهق روحي . وليتني يخطر على بالى شىء فكه كهذا لارويه للناس . فتلك موهبة . » فقال مستر تومسون وقد تحرك كمن يهم بالقيام : « ان كنت تريد محادثة مستر هلتون ، فساذهب لابعث به اليك . فقد يكون في معمل اللبن وقد يكون مستلقيا في كوخه في هذه الساعة من النهار ، والكوخ قريب من هنا » . وكانت الساعة قد ناهزت الخامسة . فقال مستر هاتش : « لاداعى للعجلة . فقد مضى على وقت طويل وانامت شوق لمحدثته ، فلا بأس من بضعة دقائق اخرى أنتظرها . » فمعضم همى أن أعرف مكان اقامته فحسب . » فكف مستر تومسون عما كان قد هم به من القيام ، وفك زرا آخر من أزرار قميصه ، ثم قال : « انه هنا ، وهو من ذلك الطراز من الرجال الذى ان كانت لك لديه حاجة أحب منك ان تتمها فورا ، فهو ليس من أهل التلكؤ . وتلك مزية فيه » . فبدأ على مستر هاتش شىء من الاستياء لهذه الكلمات ، ومسح وجهه بمنديله وفتح فمه ليتكلم ، واذا بصوت مزمار مستر هلتون يأتيهما من وراء البيت . فرفع مستر تومسون سبابته وقال : « هذا هو . وهذه فرصتك . » فوجه مستر

هاتش احدى أذنيه الى جهة المشرق من البيت ، وأصغى
بضع ثوان ، فارتسم على وجهه تعبير عجيب ! فقال مستر
تومسون : « انى أعرف هذه النعمة كما أعرف راحة يدي .
ولكنى لم أسمع مستر هلتون يوما يقول عنها شيئا » ! فقال
مستر هاتش : « انها أغنية اسكندنافية وكثيرا ما ينشدونها
فى الموضوع الذى أتيت منه . ينشدونها فى شمال داكوتا .
وهى تدور حول النهوض فى الصباح بصدر منشرح ، فلا
تستطيع أن تطيق انشراحك ، فتقبل على احتساء خمر ككها
قبل الظهر . خمرت ككها ، تلك التى كنت تدخرها لساعة المقبل !
وليس فى الكلمات ذاتها شيء ذوبال . ولكن النعمة حلوة . فهى
أغنية من أغاني الشراب » . وجلس مسترخيا ، فلم يحبب مستر
تومسون سيماه ، فقد كانت تدل على الاغتياب ، بيد انها
كانت أشبه بغبطة القط وهو ينظر الى عصفور الكنار ! فقال
مستر تومسون : « مبلغ علمى أنه لم يمسس قطرة منذ حل
بهذا المكان ، وهو سيتم فى سبتمبر المقبل سنته التاسعة
هنا . أجل ياسيدى ، تسعة أعوام مبلغ علمى أنه لم يرشف
فيها رشفة » ، وأضاف فى شيء من الزهو الجبى : « وذلك شيء
لا أستطيع ان أدعيه لنفسى ! » فقال مستر هاتش : « نعم هذه
أغنية شراب . وكنت وانا فى سن الشباب أعزف لحنا من هذا
القبيل اسمه الابريق الصغير ، أما هلتون فيكتفى بالعزف ويجلس
فى خلوته اليه . » فقال مستر تومسون : « لقد لبث يعزف
هذه النعمة فى هذا المكان تسعة أعوام » فقال مستر هاتش :
« وكان أيضا يغنيها قبل ذلك خمس عشرة سنة فى شمال داكوتا .
فكان من عادته أن يجلس فى قميص الكتان ، حينما كان فى
المارستان . . . » فقال مستر تومسون : « ما هذا الذى تقول ؟
ما هذا ؟ » فقال مستر هاتش وقد أسبل جفنيه فى أسف مموه :
« ويحى لم أكن أقصد أن أخبرك ، ويحى ! لقد أفلتت الكلمة منى ،
مع أننى كنت قد حزمت امرى ألا أبوح بكلمة ، كى لا أثير ضجة .
واعترادى أنه مادام الشخص قد عاش مأمون الجانب هادئا تسع
سنوات ، فلا بأس بكونه مجنونا ، أليس كذلك ؟ مادام يلتزم الهدوء
ولا يؤذى أحدا . . » فقال مستر تومسون فى توجس : « أتعنى

انه كان يلبس قميص الكتان في مارستان المجانين ؟ » فقال مستر هاتش : « يقينا . فقد كان مقره هناك بين الحين والحين » فقال مستر تومسون : « لقد اعتقلوا عمى ايدا في مارستان الولاية ، فهاجت ، فأدخلوها في ذلك القميص الطويل الكمين ، وربطوها الى حلقة من الحديد في الجدار ، فاشتد هياج عمى ايدا حتى انفجر أحد شرايينها ، فلما أدركوها كانت قد ماتت ! » فقال مستر هاتش : « لقد كان من عادة مستر هلتون أن يتروم بأغنية شرابه هذه وهو في قميص الكتان . ولم يكن يشير شيء مطلقا الا حينما تحاول حمله على الكلام ، فعندئذ يثور ويهتاج مثل عمك ايدا . فاذا ثار وهاج وضعوه في قميص الكتان ومضوا عنه ، فيستلقي حيث تركوه ناعم البال مترنما بأغنيته . وذات ليلة اختفى . فر . ولم يعرف أحد عنه خبرا بعد ذلك أو يقع له على أثر . وها آنذا أتى فأجده هنا مستقرا يعزف أغنيته بعينها ! » فقال مستر تومسون : « لم يلد منه ما يدل على الجنون ، بل كان في نظري يسلك دواما مسلك العقلاء . فهو أولا لم يتزوج ، ثم انه يعمل كالحصان . وأراهنا انه مازال يحتفظ بأول فلس نقدته اياه حين حل هنا ، وهو لا يشرب الخمر ولا ينطق بكلمة ، وناهيك بالسباب ، ولا يضيع وقته في اللهو والتسكع في أمسيات الاحاد . فان كان هذا هو الجنون ، فما أشوقني أن أجن ! » فقال مستر هاتش : « هاو هاو هيه ! هذه مليحة ! هاهاها ! لم يخطر الامر بآلى على هذه الصورة . هيا نجن ونخلص من زوجاتنا ونكتنز أموالنا ، اليس كذلك ؟ » وابتسم ابتسامة كالحة كشفت عن أسنانه الصغيرة المعوجة ، فشرع مستر تومسون أنه قد أسىء فهم مراده ، فدار على عقبه وأشار الى النافذة المفتوحة من وراء عريشة الكرم ، وقال : « هيا بنا نتمشى هناك قليلا . وكان ينبغي أن أفكر في هذا من قبل ! »

كان الزائر ثقيل الوقع على نفس مستر تومسون . فقد كانت له طريقة خاصة في تلقف الكلمات من فم مستر تومسون فيحورها ويخلط بينها الى أن يعجز مستر تومسون نفسه عن معرفة ما قاله .

وقال مستر تومسون : « ليست زوجتي على شيء من قوة البنية . فهي تكاد تكون مقعدة منذ نحو أربعة عشر عاما ، ومن الثقل على نفس رجل فقير ان يكون أحد من اهل بيته عليلا » ثم استطرد في مباحاة : « لقد أجريت لها أربع جراحات ، الواحدة بعد الاخرى ، ولكن بغرطائل ، وقد أنفقت كل درهم كسبته على الاطباء ، فهي امرأة هشة دقيقة التكوين » . فقال مستر هومرت ، هاتش : « أما امرأتى فكان لها ظهر بغلة ، نعم يا سيدى كان فى وسع هذه المرأة أن تحرك الحظيرة بيديها المجردتين ، لو أن ذلك خطر لها ، وكنت أقول فى نفسى انه من رحمة الله أنها لا تعرف مدى قوتها ، وقدمات مع ذلك ، فان ذلك الصنف القوى يبلى أسرع مما تبلى الضعيفات ، وليس لامرأة دائمة التشكى منفعة عندي ، فانى خليك أن أتخلص منها بأسرع ما أستطيع ، نعم يا سيدى بأسرع ما أستطيع ، فقد صدقت فى قولك انها لحسارة كبرى أن ينفق الانسان على مريضة من هذا الطراز » . ولم يكن هذا ما سمع مستر تومسون نفسه يقوله ، فهو كان يريد أن يبين أن الزوجة الباهظة التكاليف كزوجته شهادة طبية لزوجها ! فقال مستر تومسون وقد استشعر الحيرة : « انها امرأة جد رزينة ، ولكن لست أدري ماذا عساها تقول أو تصنع اذا اكتشفت أنه كان فى البيت طول هذا الوقت رجل مجنون ؟ » .

وكانا قد ابتعدا عن النافذة ، فقاد مستر تومسون مستر هاتش الى الجهة الامامية ، لان المرور من الجهة الخلفية سيفضى بهما الى كوخ مستر هلتون ، ولسبب ما لم يكن يريد أن يرى ذلك الغريب مستر هلتون أو يكلمه ، وذلك أمر عجيب ، ولكن كذلك كان شعور مستر تومسون .

وعاد مستر تومسون الى الجلوس فوق الجذع المكسور ، ودعا ضيفه الى جذع آخر وقال : « كان من الممكن فيما مضى أن أنزعج لشيء من هذا القبيل . أما الآن فانى أتحدى شيئا أن يقيمنى ويقعدنى » . ثم اقتطع لنفسه مضغعة ضخمة من الطباق بمديته ذات المقبض المصنوع من القرن ، ثم قدم الطباق الى مستر هاتش ، فأخرج مستر هاتش طباقه الخاص ، ثم أخرج مديته الهائلة

المعقوقة ، وبجدها الطويل المشحواقتطع كتلة كبيرة فالتقمها • ثم قارنا بين طباقيهما ، وأظهر كلاهما الدهشة لدى اختلاف آراء الناس فى طباق المضغ الجيدة ، وقال مستر هاتش : « طباقى مثلاً فاتح اللون • وذلك لانهخال من أى نوع من أنواع العسل • فأنا أحبه جافاً ، على طبيعته الاصلية ، متوسط القوة » فقال مستر تومسون : « ان العسل الخفيف ليس منه ضرر فى نظرى ، ولكن بشرط أن يكون خفيفاً جداً • أما أنا فهوإى فى ورقة الطباق القوية ، الحريفة النكهة كما يقولون • وانى أعرف رجلاً من الجيران اسمه وليمز ، مسترجون مورجان وليمز ، يمزج طباقاً ، نعم ياسيدى ، يمزج طباقاً فى مثل سواد قبعتك ، ولكنه ناعم كأنه النظرون الذائب ، فهو يقطر عسلاً ، عسلاً صرفاً ، ويمزج كالعرق سوس • ولكنى لا أسمى هذا طباقاً جيد المضغ » ! فقال مستر هاتش : « طعام أقوام قد يكون سم أقوام سواهم • ان مثل هذه المضغة قيمة أن أغص بها • وليس يسعنى أن أضعها فى فمى • » ! فقال مستر تومسون وفى صوته رنة اعتذار : « الواقع انبى تذوقتها مجردالتذوق بنفسى • فالتقمت قطعة صغيرة منها ثم لفظتها على الفور • فقال مستر هاتش : « أنا موقن تمام اليقين انبى لا أقدر أن أبلغ هذا الحد ، فانبى أحب المضغة الطبيعية الجافة التى لايدخلها أى نوع من أنواع المحسنات أو المشهيات الصناعية » فبدأمستر تومسون يشعر أن مستر هاتش يريد أن يظهر انه صاحبالرأى الاعلى فى الطباق ، وانه قد عزم على اللجاج فى المناقشة الى أن يقيم البرهان على ذلك ، فبدأ ضيقه بالرجل البدين يتخذصورة جدية • فمن هو بعد كل حساب ، ومن أين أتى ؟ من هوحتى يطوف بالناس يعلمهم أى نوع من الطباق يمزغون ؟

واستطرد مستر هاتش فى اصرار : « المشهيات الصناعية انما توضع لاختفاء وتمويه الورق الرخيص ، فيظن المشتري انه حصل على شىء أفضل من الواقع • فالتعسيل الخفيف مهما كان خفيفاً علامة على رخص ورق الطباق ورداءة صنفة • ولك أن تقيد كلماتى هذه • » فقال مستر تومسون بجفاء : « لقد كنت دائماً أدفع ثمناً طيباً فى مضغتى ، ولست ثرياً ، ولا أنا بالذى يتظاهر

بالثراء • ولكننى أزعج بحق أنه متى تعلق الامر بالطباق وما اليه ،
 فانى أشتري أفضل ما فى السوق» ، فقال مستر هاتش وهو يتلمظ
 ويصق عصارة الطباق فوق شجرة ورد يابسة كانت تعانى
 الامرين من قيظ الشمس ومن حفاف الارض التى تضرب فيها
 جذورها : « التعسيل ، مهما قلت كميته ، علامة على أن • • • » فقال
 مستر تومسون فى حزم : « والان ، فيما يتعلق بمستر هلتون ، لست
 أرى داعيا للتمسك ضد رجل بأنه خرج عن طوره مرة فى عمره أو
 مرتين • ولهذا ليس فى نيتى أن أتخذ فى المسألة اجراء أيا كان •
 فليس عندي ضده شيء • وكانت معاملته لى على الدوام مرضية • وان
 من الدنيا ومن الناس من يخرجون أى انسان عن طوره • فان أعجب
 فعجبى ألا يكون فى أقمصه الكتان أكثر ممن فيها ، والناس كما
 نعهد فى هذا الزمان » • فقال مستر هاتش على الفور ، وكأنه
 يقلب مقصود مستر تومسون ويرده عليه : « هذا حق • • • لقد
 انتزعت الكلمات من فمى ، فقد كنت أريد أن أقول ان أقمصه
 الكتان ليس فيها كل من ينبغي أن يكونوا فيها • ها • ها •
 صدقت أيا صدق • لقد أدركت مرادى » • فقرر مستر تومسون
 فى مجلسه صامتا يمزج بامعان ، وقد شخص ببصره الى نقطة فى
 الارض تبعد نحو ستة أقدام عن موضعه ، وقد أحس بنفور بطى •
 يصعد فى دخيلته من أعماق نفسه ، فينتشر فى كيانه كله • الام يرمى
 هذا الشخص ؟ ماذا يريد أن يقول ؟ ليست كلماته أسوأ ما
 فيه ، وانما هى نظراته وطريقة كلامه : ففى عينه نظرة استدراج
 ومخاطلة ، وفى لهجته نبرة تناوش مستر تومسون وتضنيه • ولم
 يكن مستر تومسون يستريح الى ذلك ، وان كان لا يدرى كنهه •
 وساورته الرغبة أن ينهض فيلقى بالرجل عن الجذع الذى يقتعده ،
 ولكن ذلك لم يكن ليبدو أمرا معقولا • ولنفرض أنه وقع لذلك
 المخلوق مكروه وهو يسقط من فوق الجذع ، كأن يقع مثلا على
 الفأس فيجرح ، وعندئذ قد يسأل مستر تومسون لماذا ألقى
 به أو دفعه ، فماذا عساه يقول ؟ لاشك أنه من السخف الشديد
 ومن الغرابة بمكان أن يقول اننى وهو اختلفنا على أنواع طباق
 المضع •

وخطر له أن يدفعه بأى شكل ، ثم يقول للناس انه كان رجلا

بدينا لم يتعود الحرارة الشديدة، ف فيما كان يتكلم أخذته سنة فوقع ، أو يقول شيئاً من هذا القليل . وليس قول من هذه الأقوال بصدق ، فلا الحرارة هي السبب ، ولا الطباقي .

وصمم مستر تومسون على أن يخرج هذا المخلوق من المكان بأسرع وقت ، ودون أن يبدو عليه القلق والتوجس ، ثم يرقبه بامعان حتى يغيب عن النظر . فليس من المأمون أن يرفع الإنسان الكلفة مع غرباء عن الديار ، فمثلهم ينطوون دواما على خبايا غير مستحبة ، والا لبقوا في ديارهم حيث كانوا .

وقال مستر هاتش : « من الناس من يستوي عندهم أن يكون في بيتهم العاقل والمجنون . فلا فرق عندهم بين هذين ! واعتقادي أنه اذا كان هذا رأى انسان فيمن يعاشرهم ، فهذا شأنه وليس من شأنى ، ولا حاجة بى الى التدخل فى الامر . أما فى موطننا بشمال داكوتا ، فالمسألة بخلاف ذلك ، فلست أرى أحدا هناك يستأجر مجنونا ، ولا سيما بعد الذى وقع منه » . فقال مستر تومسون : « لم أفهم منك أن موطنك شمال داكوتا . . وأخالك قلت انه جورجيا » . فقال مستر هاتش : « لى شقيقة متزوجة فى شمال داكوتا ، متزوجة من سويدي ، بيد أنه رجل أبيض ، كاشد مايكون البيض بياضا . فاذا قلت موطننا ، فذلك لاننا مرتبطون بمصالح مشتركة هناك . وتكاد شمال داكوتا أن تكون وطنى حقا » . فسأله مستر تومسون وقد عاوده القلق الشديد : « وماذا وقع منه ؟ » فقال مستر هاتش مبتهجا : « لم يقع منه شئ ذو بال ، كل ما هناك أنه هاج ذات يوم فى الحقل فدفع بالمدراة فاخترق بها جسد أخيه ، وهما يعملان معا . وكاد ينفذ فيه حكم الاعدام ، لولا أنه اتضح أن الفتى أصابه الحبال من شدة الحر ، كما يقولون ، فوضعه فى المارستان . وهذا كل ما وقع منه . فهو ليس مما يؤبه له . . ها ها ها ! » . ثم استل مديته الحادة ، وشرع يقطع مضغة من الطباقي فى عناية فائقة ، كأنه يقطع من كعكة ، فقال مستر تومسون : « لست أنكر خطورة النبأ ، نعم ياسيدى . ولكنى مع هذا أعتقد أن شيئا لا بد قد دفعه الى فعل ما فعل . فمن الناس من يشعر ك بمجرد نظره اليك كأنه يقتلك قتلا ، وربما كان أخوه وغدا دنيئا من ذلك الطراز » .

فقال مستر هاتش : « ان أخاه كان على أهبة الزواج . فكان من عادته أن يذهب في المساء للتودد إلى فتاته . فافترض زممار مستر هلتون ليشنف سمعها به ذات ليلة فأصاعه . وكان زممارا جديدا » . فقال مستر تومسون : « انه شديد الاعتزاز بمزاميره . فلا ينفق شيئا من المال مطلقا في شراء زممار جديد بين الحين والحين . ولا بد أنه يملك في هذا الكوخ أكثر من عشرة منها من جميع الانواع والاحجام » . فقال مستر هاتش : « ورفض الاخ أن يشتري له زممارا جديدا . فهاج مستر هلتون كما قلت واخترق بالمدراء جسد أخيه . ولا أظنك الآن الا قد أدركت أنه كان مخبولا ولا شك اذ هاج وماج بسبب شيء تافه كهذا » . فقال مستر تومسون على مضض من موافقة هذا المخلوق الكريه الفضولي على رأى له أيا كان : « يبدو أن الامر كذلك » ! وقُر في نفسه أنه لم يكره في حياته أحدا لأول نظرة كما كره هذا الرجل . فقال مستر هاتش : « يبدو لي أنه قد أعياك سماع هذه النعمة بعينها عاما في أثر عام » . فقال مستر تومسون : « الواقع أنه يطوف بذهنى أحيانا أن ليته يتعلم نعمة جديدة ، ولكنه لم يفعل ، فلم تكن لي في الامرحيلة ، وانها لنعمة مليحة على كل حال » ! فقال مستر هاتش : « أخبرنى سكتندنافى بمعناها ، وهكذا عرفتة . وأهم ما فيها ذلك الجزء الذى يتحدث عن الطرب وقد تملكك ، فتنتطق تجرع الخمر الذى بين يديك كله قبل أن يحين الظهر ، ويظهر أنه من عادة أهل بلاد السويد أن يحمل الرجل منهم زجاجة الخمر أينما حل وارتحل ، أو هذا على الأقل مبلغ فهمى . فهو لأ الناس يمكن أن يصدر عنهم أى شيء ، ومع ذلك . . . » ثم قطع عبارته وبصق . . .

وكانت فكرة احتساء أى نوع من أنواع الخمر في هذا الحر الشديد كافية لإدارة رأس مستر تومسون ، بل ان فكرة شعور أى شخص بالطرب والانتعاش في يوم كهذا اليوم ، كانت كافية لارهاقه . فقد كان يشعر أن المريض حقا . أما الرجل البدين فكان يبدو وكأنه قد أمسى وجذع الشجرة شيئا واحدا . فهو مستقر فوقها بثيابه القاتمة الرطبة الفضفاضة ، وبطنه المتكور فى سرواله ، وقد أراح قبعته الواسعة السوداء عن جبهته الضيقة الحمراء التى ألهبته الحرارة . وخطر لمستر تومسون

أن زجاجة من البيرة الجيدة الباردة يكون لها أطيّب الاثر في هذا الاوان ، فقد تذكر الزجاجات الاربع المستقرة في قاع البركة ، في معمل اللبن ، فاختلج لسانه الجاف في داخل فمه • ولكنه ما كان ليبتّر هذا الرجل بشيء ، حتى ولو بقطرة ماء ! بل انه لن يمزج معه شيئاً من الطبايق بعد • ثم تقل ما كان في فمه ، ومسح شفّيته بظاهر يده ، وجعل ينفخ رأس محدثه ملياً • انه رجل لاخير فيه ، وليس حضرره هنا لخير ! ولكن ماذا وراءه ؟

وقر رأى مستر تومسون على أن يفسح له في الوقت ليفصح عن مكنونه ، أيا كان ، وعن مراده من مستر هلتون • فاذا لم ينصرف بعد ذلك بالحسنى طرده طرداً !

وكانما استشعر مستر هاتش شيئاً مما طاف بذهن مستر تومسون ، فحول اليه عينيه في خبائة خنزيرية ، وقال كمن قر رأيه على قرار : « الحقيقة أنني قد احتاج الى معونتك في هذه المهمة الملقاة على عاتقي ، ولكنها لن تثقل عليك • فمستر هلتون هذا كما قلت لك مخبول خطر هارب • والواقع انني قمت في الاثنتي عشرة سنة الاخيرة أو نحو ذلك بالقبض على زهاء عشرين مخبولا هارباً ، فضلاً عن اثنين من المجرمين الفارين عثرت عليهما بطريق المصادفة • ولست أتخذ منها حرفة ، ولكن اذا كانت هناك مكافأة فاني أتقاضاها بطبيعة الحال • ويصل المجموع على طول المدى الى مبلغ لا بأس به ، وان لم يكن هذا هو بيت القصيد •

فالحقيقة أنني ظهير القانون والنظام ، ولا يروقني أن أرى العابثين بالقانون والمجانين طلقاء • فليس فضاء الله مكانهم الحق • ولا أخالك الا نازلاً على رأيي في هذا الصدد • أليس كذلك ؟ » فقال مستر تومسون : « كل شيء رهن بظروفه ، كما يقولون • • ومبلغ علمي بمستر هلتون أنه لا خطر منه كما قلت لك • • وبدا لمستر تومسون أن أمراً جدياً يوشك أن يقع ، بيد أنه لم يستطرد في التفكير في ذلك ، ورأى أن يدع ذلك الشخص يخرج مافى جرابه ثم ينظر بعدئذ فيما يرتبه على ذلك • وبغير تفكير أخرج مديته وطباقه وشرع يقطع لنفسه مضغة ، ثم تاب الى نفسه وردد هما الى حبيبه •

وقال مستر هاتش : « ان القانون يؤيدني تأييداً متيناً •

ومستر هلتون هذا كان من أصعب مهمامي ، فهو الحالة الوحيدة التي
 ثلّمت كمال نجاحي . وقد عرفته قبل أن يجن ، وأعترف أسرته ،
 ولهذا آليت أن أساعد في القبض عليه . ولكنه راغ منا واحتفى ،
 حتى حسبناه جميعاً مات منذ زمن طويل . ولعلنا لم تكن لنعثر على
 أثر له مطلقاً ، ولكن أتدرى ماذا كان منه ؟ . أعلم ياسيدي أنه
 منذ أسبوعين وصلت والدته العجوز رسالة منه . وماذا
 تحسبها ألفت في هذه الرسالة ؟ . حوالة على ذلك المصرف الصغير
 في المدينة بمبلغ ثمانمائة وخمسين دولاراً . وليس في الخطاب نفسه
 شيء ذو بال ، عدا أنه يرسل اليها مذكراته اليسيرة ، فقد تكون في
 حاجة إلى شيء . . . ولكن كان الخطاب يحمل الاسم ، وخاتم
 البريد ، والتاريخ ، وكل شيء . فطار عقل العجوز من الفرح . .
 وارتدت إلى طور الطفولة ، وكأنما نسيت أن ابنها الوحيد الباقي
 لها قد قتل أخاه ومسه الجنون . . وذكر مستر هلتون أيضاً أنه قد
 طاب له العيش ، وأوصاها ألا تخبر بأمره أحداً . . ولكنها لم
 تستطع بطبيعة الحال أن تكتم الخبر ، فهناك هذه الحوالة
 المصرفية التي لا بد من قبض قيمتها ، وما إلى ذلك . . وكذلك
 بلغني النيا . . . ثم غلبه شعوره فقال : « فكان مفاجأة كبرى لي » .
 ثم صافح نفسه في حرارة واشتياق ، وجعل يهتز بضحكات
 تصدر عن حلقه .

وشعر مستر تومسون عندئذ أن زاويتي فمه تتوتران وتوترا
 هبوطياً . ان هذا الكلب المنحط يتلصص ويتجسس على أحوال
 الناس بهذه الصورة الوضيعة . ان هذا الا جمع أثمان دماء . . !
 ثم قال مستر تومسون وهو يغالب انفعاله حتى لا يبدو منه
 في صوته أثر : « لا بد أنها كانت مفاجأة حقاً . . » فقال مستر
 هاتش : « والحق أنني كلما أنعمت التفكير في المسألة ، اتضح
 لي أنه ينبغي أن أبحث الموضوع عن كتب ، فتحدثت إلى العجوز ،
 وهي الآن امرأة مقعدة نصف عمياء ، ولكنها كانت مصرّة على
 ركوب أول قطار لتري ولدها . فواجهتها بالواقع بوضوح تام ،
 وكيف أنها لا تحتمل الرحلة لضعفها ، وما إلى ذلك . . وانني
 أكرما لها لن أقتاضها إلا المصروفات الضرورية للحضور
 بنفسى لمقابلة مستر هلتون ، ثم آتيها بجميع أخباره . فأعطتني

قميصا جديدا صنعته بيدها ، وكعكة سويدية كبيرة ، كى
أحملهما اليه . ولكن يظهر أننى أضعتهما فى الطريق ! ولكن
ليس من هذا بأس ، فما أحسبه خلى البال لمثل هذه الطرائف .
فاتعدل مستر تومسون فى جلسته فوق جذع الشجرة ،
والتفت الى مستر هاتش فسأله بأهدأ لهجة استطاعها : « والآن
مالذى تهدف اليه ؟ هذه هى المسألة » . فنهض مستر هاتش
قائما على قدميه ناشطا ثم قال : « لقد حضرت على أهبة للمخاشنة ،
وأيتت بالاصفاد ، ولكنى راغب عن العنف ما استطعت . ولهذا
لم أذع الامر فى الجوار حتى لاتقوم القائمة ، وتوقع أن فى
كلينا كفاءة للتغلب عليه » . ثم دس يده فى جيبه الداخلى وأخرج
الاصفاد . فحمى غضب مستر تومسون ، فهذا شخص يبرز
فجأة ذات عصر وادع لاقلاق الرجل ، واثارة المتاعب ، وهاهو
يستخرج من جيبه أصفادا فى حمى أسرة فاضلة ، وكأنه يقوم
بالعادي المؤلف من أمور الحياة .

ونهض مستر تومسون على قاميه أيضا وقد طنت رأسه وقال
له فى غير موارد : « اسمع . . . أود أن أقول لك بنس العمل ما
نهضت له . ولا بد أنك فى حاجة ماسة الى ما تقوم به . والآن اليك
نصيحة خالصة : اطرح من ذهنك أنك مستطيع أن تشغب هنا على
مستر هلتون . وكلما أسرعت بصرف عربتك المكتراة هذه عن
بابى كان ذلك أدعى لارتياحى » . فوضع مستر هاتش أحد
الصفدين فى جيبه الخارجى ، وترك الصفد الآخر مدلى يتأرجح ،
ثم جذب قبعته فوق عينيه ، فأذكر مستر تومسون عمدة رآه فى
مكان ما . ولم يبد عليه شئ من ثورة الاعصاب ، ولم تؤثر فيه
كلمات مستر تومسون ، بل قال : « والآن اصغ لما سأقوله لك
دقيقة واحدة : ليس من الحكمة أن يقف رجل مثلك حائلا دون القبض
على مجنون هارب لاعادته الى المارستان حيث ينبغى أن يقيم .
وانى مقدر أنه مما يثيرك طبعاً أن أفاجئك على هذا النحو ، ولكنى
قدرت أيضا أنك رجل محترم قمين أن تساعدنى فى انفاذ
العدالة . أما اذا أبيت مساعدتى ، فأنى سأتشدد بطبيعة الحال
العون من مصادر أخرى . ولن يروق لجيرانك كثيرا أنك كنت

تؤوى مجنونا هاربا قتل شقيقه، ثم رفضت بعد ذلك أن تسلمه . .
وستكون أضحوكة الناس !

وكان مستر تومسون يعلم قبل أن يسمع ماسمع أنها ستكون
أضحوكة لاريب فيها ، وسيلحقه من ذلك حرج شديد . . فقال :
« ولكنى ما برحت أعيد عليك القول ان الرجل لم يعد مجنونا
الآن . وانه سلخ تسع سنين لم يبد منه فيها ما يضير . انه . .
انه . . » ولم يدر مستر تومسون كيف يصف مستر هلتون . .
فقال : « واعجبا ! لقد أضحي كأنه فرد من أفراد الاسرة .
وهو أوفى معين يظفر به الانسان »

وراح مستر تومسون يتلمس لنفسه مخرجا ، فالحقيقة أن مستر
هلتون قد ينقلب مجنونا في أى لحظة ، ثم اذا انطلق هذا الشخص
يذيع النبأ في الجوار ، نال مستر تومسون من ذلك حرج . فالموقف
عسير لا يجد منه مخرجا .

وهدر مستر تومسون فجأة : « أنت مخبول ! أنت المخبول هنا ،
بل لانت أشد خبالا مما كان هوفى أى وقت مضى ! أخرج من هذا
المكان ، والا قيـدتك أنت بالاصفاد وسلمتك لسلطان
القانون ، فقد تعديت على حرمة مسكنى . » وجعل يصيح بأعلى
صوته : « أخرج من هنا والاصرعتك . »

وخطا نحر الرجل البدين خطوة فراجع وقال له :

« حاول . حاول . أقدم ! » ثم حدث شيء اجتهد مستر تومسون
بعد ذلك أيما اجتهد أن يجمع شتاته في ذهنه ، فلم يجد الى ذلك
سبيلا : لقد بصر بالرجل البدين وقد شهر فى يده مديته المعقوفة ،
وبصر بمستر هلتون يجرى مقبلا من وراء البيت وقد سقط فكه
المستطيل وذراعه يطـيحان فى الهواء ، وتوهجت عيناه ، ثم وقف
بينهما وقد جمع قبضتيه ، ثم جمده فى وقفته وحمل فى الرجل البدين
وكانما تهاوى هيكله الكبير ، فأخذ يردد كجواد مجفل ، وعندئذ هجم
البدين عليه ، والمدية فى احدى يديه ، والاصفاد فى الاخرى .
وبصر مستر تومسون بالمحذور : بصر بالنصل يغوص فى بطن مستر
هلتون . ودري بالفأس فى متناول يديه ، ثم ارتفعت ذراعه فوق

رأسه وهبطنا بالفأس على أم رأس مستر هاتش كأنه يقصم جزورا من
البقر ...

ولبثت مسز تومسون مدة تصغى فى قلق من موضعها بالبيت لاصوات
الحديث ، وكان أحد الصوتين غريبا عليها . بيد أنها كانت متعبة
جدا فلم تستطع النهوض أول الامر لتستجلى الخبر . فلما نأر ذلك
الصياح فجأة اندفعت واقفة وخرجت من السدة الامامية بغير
خفيها ، وقد تشعث شعرا . فلما ظلمت عينيها بيدها ، رأت أولا
مستر هلتون يجرى ملهوا فى البستان ، وكان فى أعقابها كلاب
الصيد تطارده . ثم رأت مستر تومسون متكئا على مقبض الفأس ،
وقد انحنى فوق رجل لم تره مسز تومسون من قبل ، وأخذ يهز
منكبىه . . والرجل مكوم فوق الارض مشجوج الرأس ، والدم
يتدفق منه بغزارة . وقال مستر تومسون بصوت غليظ دون أن
يرفع يده عن عاتق الرجل :

« لقد قتل مستر هلتون . قتله ! رأيته يقتله ، فلم أجد بدا من
صرعه . »

فصرخت مسز تومسون صرخة خافتة وقالت :

« وى ! ها مستر هلتون يجرى هناك » . وأشارت بيدها ،
فانتصب مستر تومسون واقفا ونظر حيث أشارت . أما مسز
تومسون فهوت جالسة مستندة الى جدار البيت ، وجعلت تدلك
وجهها بيديها ، فقد شعرت كأنها مشفية على الفرق ، ولا تستطيع
الطفو الى السطح . وكل ما خطر لها هو حمد الله على أن الغلامين
غير حاضرين ، لانهما ذهبا للصيد فى هالي فاكس . أجل الحمد لله
انهما غير موجودين !

وصل مستر ومسز تومسون الى حظيرتهما بالعربة قرب غروب
الشمس ، فأعطى مستر تومسون الاعنة لزوجته ، ثم ترجل ليفتح
الباب الكبير ، وقادت مسز تومسون جيم العجوز الى الداخل . وكان
الجواد قد اغبر من التراب والسن . كذلك كان وجه مسز تومسون
مغبرا من التراب والاعياء . وأيضا كان وجه مستر تومسون ، وهو
واقف عند رأس الجواد يهم بخلع اللجام عنه ، مغبرا كله فيما عدا

ندفة داكنة تعلو فكه الحليق حديثا وذقنه • لقد كان وجهه مغبرا
وأزرق وضامرا في تجلد كأنه وجه رجل ميت •

وهبطت مسر تومسون إلى أرض الحظيرة التي تعلوها طبقة صلبة
من السماء، ونفضت ثوبها الخفيف المشجر وكانت تحمل نظارتها
القائمة وقبعتها العريضة المظللة المزركشة بالأحمر والأزرق، فكانت
تجذب جبينها الذي ارتسم عليه القنوط •

ورفع الحصان رأسه ثم صعد آهة عميقة وثني قوائمه المتصلية •
وصدرت من مستر تومسون كلمات في صوت أجش أجوف ، فقال
وهو يتنحى : « ياللمسكين جيم العجوز • لقد برزت ضلوعه
وأخاله قد شقى كثيرا بهذا الأسبوع » ثم رفع السرج دفعة
واحدة وألقاه بعيدا ، فتحرك جيم متحررا، واستطرد مستر تومسون
متحدثا إلى جيم : « ولكن هذه آخر مرة • ولك الآن أن تستمتع
بالراحة » •

وأغمضت مسر تومسون عينيها وراء منظارها القائم • انها المرة
الآخرة ، وأن لها أن تكون كذلك • بل ما كان لهما أن يذهبا أصلا •
لم تعد بها حاجة إلى النظارة القائمة بعد أن هبط الظلام مرة أخرى •
بيد أن الدمع يفيض من عينيها فيضا متصلا مع انها لم تكن باكية،
فالنظارة أعون على راحتها ، ثم انها تحمى عينيها وتخفيهما •

وأخرجت منديلها بيديها المرتعشتين ، تلك الرعشة التي
لم تفارقهما منذ « ذلك اليوم » وتخطت ثم قالت : « أرى الغلامين
قد أوقدا المصابيح • وأرجو أن يكونا قد أشعلا الفرن أيضا » •
ومشت فوق الممر الوعر رافعة فضل ثوبها الرقيق ووشاحها ،
متلمسة طريقها بين الأحجار الصغيرة الحادة ، تاركة وراءها
الحظيرة لانها لا تكاد تحتل قرب مستر تومسون ، متجهة نحو
البيت في ببطء لانها تكره الذهاب إليه ، فالحياة كلها كريهة ، ووجوه
جيرانها وولديها وزوجها ، ووجوه الناس أجمعين ، وسحنة بيتها في
الظلام ، بل رائحة العشب والأشجار • • كلها كانت فظيعة الوقع لديها،
فما من مكان تستريح إليه ، وليس أمامها الا شيء واحد ، أن تحتل
بأى كيفية - ولكن كيف ؟

طالما سألت نفسها ذلك السؤال . كيف تراها مستطبعة أن
تمضى فى الحياة الآن؟ ولماذا عاشت على الإطلاق ؟ لكم تمت الآن
لو أنها ماتت ذات مرة من تلك المرات التى انتابتها فيها العلة
المضنية ولم تعش حتى ترى ما رأت ..

كان الغلامان فى المطبخ ، فهربرت يتفرج على الصور الفكاهية
فى عدد يوم الأحد الفائت من صحيفة ، وقد جعل ذقنه فى
يديه ومرفقيه على المائدة . وكان يقرأ وينظر فى التصوير حقا ،
بيد أن وجهه كان فياضا بالشقاء . أما آرثر فكان يشعل النار فى
الفرن ، فيضيف الحطب عودا عودا ، ويرقبه والنار تدب فيه
فيشتعل . وكان وجهه أشد من وجه هربرت كآبة وانقباضا ،
ولكنه كان بطبيعته من أهل الوجوم ، فهو فى اعتقاد مسز
تومسون يأخذ كل شيء مأخذ الجلد والغم .

وقال آرثر : « مرحى يا أماء » ثم انصرف الى ما كان فيه من
عمل ، أما هربرت فنحنى الصحف عنه وتملأ فى مقعده . وكان
الغلامان قد كبرا ، فصار عمراهما خمس عشرة وسبع عشرة
سنة . وصار آرثر فى مثل طول أبيه .

وجلس مسز تومسون الى جوار هربرت ، فخلعت قبعتها ثم
قالت : « أظنكما جائعين . وقد تأخرنا اليوم ، فقد سلكنا طريق
لوج هولو وهو أوعر مما عهدناه » . ثم أطبقت فمها اطباقا أحدثت
أخدودين محزونين على جانبيه . فقال هربرت : « أظنكما زرتما
آل ماننج » ، فأجابت : « نعم وآل فيرجيسون وآل البرايت ،
وتلك الاسرة الجديدة ، أسرة ماك كليلان » فقال هربرت : « وهل
قال أحد شيئا ؟ » فقالت : « لا شيء يستحق الذكر . فانت
تعلم كيف كان الموقف على طول الخط ، ففريق منهم ظل يقول
نعم ، فهم يعلمون أن القضية واضحة ، وأن المحاكمة كانت
عادلة ، ثم يقولون انه قد سرهم كثيرا أن يخرج أبوكما برىء
الساحة وما الى ذلك . هذا قول فريق منهم . ولكن من هؤلاء من
لا يبدو عليه أنه فى صفه حقا ، وقد كدت أقضى اعياء » وجعلت
الدموع تنساب من تحت نظارتها القاتمة وهى تقول : « ولست

أدري ماجدوى ذلك • ولكن بأكمالا يستريح فيما يظهر إلا اذا قال كيف وقع الحادث • أما أنا فلا أدري ما الفائدة • ! فقال آرثر وهو يبتعد عن الفرن : « لا أظن هناك فائدة على الإطلاق • بل ان ذلك من شأنه أن يثير الموضوع باستمرار في أذهان الناس • فكل واحد منهم سيطوف بالناس مرددا ما سمعه ، فيزداد الامر في الاذهان اختلاطا فوق اختلاط ، وذلك من شأنه أن يزيد الامر سوءا • وليتك تفلحين في حمل أبى على الكف عن الطواف بالجوار خائضا في هذا الحديث على هذا النحو » ! فقالت مسز تومسون : « أبوكما أعلم بما ينبغي • وليس لكما أن تنتقداه • فحسبه ما يلقاه من دون هذا » • ولم يقل آرثر شيئا ولكن فكه تقلص ، ودخل مستر تومسون وقد غارت عيناه فباتتا كعيني الموتى ، أما يدها الغليظتان فكانت عليهما غبرة الشحوب ، وطرا عليهما بياض من كثرة ما كان يغسلهما كل يوم قبل الركوب لزيارة جيرانه كى يخبرهم حديث قصته من وجهة نظره • وكان مرتديا ملابس الأحد ، وهى عبارة عن حلة سميكة فى لون الملح والفلفل ، وربطة عنق سوداء • ونهضت مسز تومسون واقفة ورأسها يدور ، فقالت : « أخرجوا من المطبخ جميعا ، فالحرارة شديدة هنا ، وأنا بحاجة الى متسع من المكان • وسوف أعد لقمة للعشاء اذا خرجتم وأنحتم لى الفرصة » •

فخرج الثلاثة ، وكأنهم فرحوا بالانطلاق • فذهب الغلامان الى الخارج ، وذهب مستر تومسون الى مخدعه ، وسمعته يتأوه وهو يخلع حذاءيه ، ثم سمعت فراشه يصر حين استلقى فوقه • ففتحت مسز تومسون الثلجة وشعرت بالبرودة المستعذبة تشع منها • ولم تكن تأمل يوما أن تكون لديها ثلاجة ، ومن باب أولى لم تكن تأمل أن تقدر على تزويدها بالثلج باستمرار • ولكن هاهو ذا الطعام باردا نظيفا لا ينقصه الا التسخين • وما كانت لتقتنى هذه الثلاجة لو لم يهبط عليهم مستر هلتون ذات يوم بقدر من مقادير الحظ العجيبة • • • وانشغل ذهنها بتصور هلتون فى اقتصاده وتديره وطيبته ، فحقق قلبها خفقانا شديدا ، حتى لقد خشيت أن يعاودها الاغماء وهى واقفة أمام الثلاجة معتمدة برأسها فوق بابها المفتوح • فهى

لم تكن لتطبيق تذكر مستر هلتون بوجهه الطويل الحزين ، وصمته وهذوئه وبعده عن الايذاء ، وهو الذى كان يعمل بجهد ويقدم لمستر تومسون أعظم العون ، وقد أخذ يجرى فى الحقول والغابات فى حمارة القيط ، مطاردا كأنه كلب مسعور ، وقد انطلق وراءه كل الناس وفى أيديهم الحبال والبنادق والعصى كى يدركوه ويوثقوه !! وتنهدت مسز تومسون فى أنة طويلة حارقة ، واستعادت بالله وهى تركع أمام الثلاجة وتلمس فى داخلها الاطباق . ومع أنهم فرشوا أرض الزنانة بالحشايا ، وبسطوا حشيات أخرى حول جدرانها ، وجعلوا معه خمسة رجال ليحولوا بينه وبين المضى فى ايذاء نفسه ، الا أنه كان قد أودى من قبل أشد الايذاء ، فما كان ليعيش بعدها وقد حدثها مستر باربى العمدة بكل ما كان ، فقال لها انهم ما كانوا يرمون الى ايذائه ، ولكن كان عليهم أن يقبضوا عليه ، فقد كان هائجا هياج المجانين ، فكان يمسك الحجارة الكبيرة ويحاول أن يحطم دماغ كل من دنا منه . وكان فى جيب قميصه مزامران سقطا منه عند الالتحام ، فانحنى ليستردهما فكانت هذه فرصة مطارديه فى التغلب عليه : « ولم يكن مناص من العنف يامسز تومسون ، فقد كان يقاتل قتال القطط الوحشية » . وفى مرارة اعترفت مسز تومسون بينها وبين نفسها أنه لم يكن مناص من العنف طبعاً ، فالعنف دأبهم على الدوام . فهذا مستر تومسون لا يستطيع أن يجادل رجلا ويخرجه من بيته بوسيلة سلمية .

وأغلقت الثلاجة وهى تردد بينها وبين نفسها ناهضة على قدميها : « كلا . لم يكن مناص من أن يقتل . ولم يكن مناص من أن يغدو قاتلا فيقضى على حياة ولديه ويتسبب فى قتل مستر هلتون كما يقتل الكلب المسعور !! »

وتوقف تيار أفكارها وقد تفجر انفعالها تفجرا صامتا ، ثم اتضح واسترسل ، أن ما بقى من مزامير مستر هلتون ما يزال فى كوخه ، وما زالت نغمته تطن فى رأس مسز تومسون فى أويقات من النهار . وكم افتقدتها فى ساعات المساء . وعجبت أنها لم تعرف يوما اسم تلك الاغنية أو معناها الا بعد ما قضى مستر هلتون .

وشعرت برعدة فى ركبتيها فشربت جرعة من الماء ، ثم صبت اللوبيا الحمراء فى ماعون الطبخ، وشرعت تقلب قطع الدجاج فى الدقيق كى تقلبها . وقالت لنفسها . مضى وقت كنت أعتقد فيه أن لى جيرانا وأصدقاء ! ومضى وقت كنا نستطيع فيه أن نرفع رؤوسنا ! ومضى وقت لم يكن زوجى فيه قاتلا ! وكنت أنا امرأة كلاهما الصديق لكل انسان وفى كل موضوع .

استقر مستر تومسون وهو يتقلب فى فراشه على أنه قد بذل غاية جهده ، وليس أمامه من بعد إلا أن يترك الموضوع نافضا يده منه . وقد قال له محاميه مستر بيرلى منذ البداية : « عليك الآن أن تلزم الهدوء والاستجمام . فالقضية ناجحة مع أنه ليس لديك شهود . وستمثل زوجتك أمام المحكمة ، وسيكون لذلك وقع على المحلفين . وعليك أن تقول انى غير مذنب ، وسأقوم أنا بالباقي . وسوف لا تكون المحاكمة الامسألة شكلية ، ولا داعى للقلق مطلقا ، فانك سوف تخرج منها برىء الساحة قبل أن تدري . »

ثم عزز مستر بيرلى أقواله بما رواه عن كل من يعرف من الرجال فى هذه المنطقة ممن حملتهم الظروف لهذا السبب أو ذاك على أن يقتلوا دفاعا عن النفس فى جميع الاحوال ، فلم يلحق بهم من جراء ذلك فى . . بل انه حدثه عن والده وكيف أطلق الرصاص فى الزمن الحالى فقتل رجلا لا لشيء الا لانه وضع قدمه داخل بوابته بعد أن نهأ عن ذلك ، ثم قال والد مستر بيرلى بعد ذلك للمحكمة : « يقينا اننى قتلت هذا الوغد دفاعا عن النفس . فقد قلت له اننى سأقتله بالرصاص ان هو وضع قدمه فى فنائى . وقد فعل ، ففعلت ! » وأكد له مستر بيرلى أنه كانت بين الرجلين ملاحاة قديمة . فجعل والده يتربص زمنا طويلا الى أن تحين فرصة خطأ عدوه ، فاستغلها الى أقصى حدود الاستغلال . وعندئذ قال مستر تومسون : « ولكن مستر هاتش كما قلت لك هجم على مستر هلتون بمديته المعقوفة ، ولهذا تدخلت . » فقال مستر بيرلى : « وهذا أفضل . فلم

يكن لذلك الغريب أدنى حق في الحضور الى بيتك في هذه المهمة .
فليس ما اقترفت جريمة قتل . فانصرف الى أعمالك ولا تفقه بكلمة
واحدة حتى آذن لك . »

لم يكن ما اقترفت جريمة قتل ، ، لقد كان على مستر تومسون أن
يغطي مستر هاتش بقطعة من غطاء العربة ، ثم ركب الى المدينة
ليخبر العمدة . وكان وقع الحادث على « الى » هائلا . فعندما عاد
ومعه العمدة والنائبان والمحقق الجنائي ، وجدوها جالسة بجانب
الطريق فوق قنطرة منخفضة على بعد قرابة نصف ميل من المكان ،
فأردفها وراءه وأعادها الى البيت . وكان قد أخبر العمدة قبل ذلك
أن زوجته شهدت الحادثة بأكملها ، فانفسح أمامه الوقت وهو يدخلها
حجرتها ويرقد لها في فراشها أن يخبرها ماذا تقول اذا سألوها
عن أى شيء . وقد أخفى الجزء الخاص بخبال مستر هلتون . كل الاخفاء ،
ولكن الحقيقة افترضت أثناء المحاكمة ! وبمقتضى نصيحة مستر
بيرلى ادعى مستر تومسون أنه كان يجهل هذه المسألة تمام الجهل ،
وان مستر هاتش لم يذكر له حرفا منها . وزعم مستر تومسون
انه انما اعتقد أن مستر هاتش لم يحضر للبحث عن مستر هلتون إلا
لتسوية حازات قديمة . وكذلك لم يظفر قريبا مستر هاتش للذان
حضرا لمحاولة ادانة مستر تومسون بظائل . وبفضل جهود مستر
بيرلى لم تستغرق المحاكمة طويلا ، وقد طلب مقابل ذلك أتعابا معقولة
أداها له مستر تومسون شاكرًا .

ولكن ما ان انتهت القضية حتى بدا على مستر بيرلى عدم الارتياح
لرؤيته حينما خطر له أن يلتم بالمكتب للافضاء بما في صدره من
أمور بدت عن ذاكرته في البداية ، وليبين له مبلغ ما انطوى عليه
مستر هاتش من سفالة وانحطاط . . والظاهر أن مستر بيرلى كان
قد فقد كل اهتمام بالموضوع ، فانه كان يقطب ويتجههم حين يرى
مستر تومسون واقفا بالباب .

وظل مستر تومسون يقول لنفسه انه قد أفلت فعلا كما توقع مستر
بيرلى ، بيد أن عقله لم يستطع التخلص من تلك العقدة التي
استولت عليه : فهو قد قتل مستر هاتش ، فهو اذن قاتل . فهذه

هي حقيقته التي لم يستطع هضمها أو ادراكها ، حتى وهو ينبئ بها
 نفسه . عجبا ! انه لم يفكر مرة واحدة من قبل في قتل أى انسان ،
 فضلا عن ان يكون هذا الانسان مستر هاتش . ولو أن مستر
 هلتون لم يقبل فى تلك اللحظة على غير انتظار عندما سمع الشجار ،
 اذن - اذن ، ولكن مستر هلتون أقبل . يرى لنجدته . أما ما لم
 يستطع فهمه فهو ما وقع بعد ذلك ، فقد أبصر مستر هاتش يهجم على
 مستر هلتون بالسكين ، وأبصر سنها ونصلها يدخلان
 معدة مستر هلتون فتشقق كما يشق الخنزير . ولكن عندما
 قبضوا آخر الامر على مستر هلتون لم يجدوا فيه أثرا لخدش سكين ،
 ودرى مستر تومسون أن الفأس كان فى يديه ، وشعر بنفسه وهو
 يرفعه . ولكنه لا يذكر انه ضرب به مستر هاتش . انه لا يذكر
 ذلك . ولا قبل له بتذكره ، فكل ما يذكره أنه كان مصمما على
 الحيلولة بين مستر هاتش وطعن مستر هلتون ، ولو أتاحت له
 الفرصة لاستطاع أن يجلو المسألة كلها ، ولكنهم فى المحاكمة لم
 يتركوا له حرية الكلام ، فقد كانوا يسألونه ، وكان يجيب بنعم أو لا ،
 فلم يكونوا ليصلوا الى بواطن الامور . ومنذ انتهت المحاكمة حتى
 الآن قضى أسبوعا كاملا يغتسل فيه كل يوم ، ويحلق ذقنه ،
 ويلبس خير ملابس ويصطحب « الى » ، كى يخبر كل جار من
 جيرانه أنه لم يقتل مستر هاتش عن عمد ، ولكن ماذا جنى من وراء
 ذلك ؟ لم يصدقه أحد ، وحينما كان يلتفت الى « الى » قائلا : « لقد
 كنت حاضرة ورأيت كل شيء ، أليس كذلك : » كانت تقول :
 « بلى . هذه هي الحقيقة . لقد كان مستر تومسون يحاول انقاذ
 حياة مستر هلتون . » وعندئذ يقول هو : « وان لم تصدقونى ،
 فاسألوا زوجتى ، فانها لا تعرف الكذب . » فكان يرى عندئذ فى
 وجوههم جميعا شيئا يخيب أمله ويشعره بالفراغ والاعياء . فما
 كانوا ليصدقوا أنه ليس قاتلا .

وهذه « الى » لم تقل مطلقا شيئا تسرى به عنه . وكان يأمل
 أن تقول أخيرا : « لقد تذكرت الآن يا مستر تومسون . فقد

برزت من وراء زاوية البيت فى اللحظة المناسبة ، ورأيت كل شيء • انك لم تكذب يامستر تومسون ، فهون عليك • ولكن كانا يركبان معاً فى صمت ، والنهار لا يزال قائظاً جافاً قبل الأصيل • وتوالت الايام على هذا المتوال ، والحصان يخب بهما بين الاحجار ، دون أن تقول شيئاً من هذا القبيل • فصارا يستعبدان من رؤية أى بيت أورؤية ساكنيه ، اذ أصبحت البيوت كلها الآن سواء • وجميع الناس من جيران قدماء ومحدثين ترتسم على وجوههم مسحة واحدة حينما يذكر لهم مستر تومسون سبب حضوره ثم يشرع فى سرد قصته •

لقد كانت عيونهم وكان أحدا قرص حداثتها من الخلف ، فهى زائغة خابية الضوء • ومنهم فريق كان يجلس وعلى شفثيه ابتسامة معتصبة ، فيحاول أن يظهر المودة قائلاً : « أجل يامستر تومسون • نحن نعلم حقيقة شعورك ، فلا شك أن الامر هائل لديك » انى أكاد أصل شخصياً الى الاعتقاد بوجود شيء يسمونه القتل دفاعاً عن النفس • ونحن طبعاً نصدقك يامستر تومسون ، ولم لا ؟ ألم تقدم لمحاكمة عادلة علنية ؟ فنحن طبعاً يا مستر تومسون نعتقد أنك كنت على حق • وكان مستر تومسون مقتنعاً بأنهم لا يعتقدون ذلك • وكان الهواء فيما حوله يزدحم فى بعض الاحيان بلومهم ، فكان يكافح ويدفع بقبضته ، ويتصبب العرق من جسمه كله ، وهو يروى قصته صائحاً بصوت أفسده ما غشى حلقه من التراب الى أن يصيح فى النهاية : « هذه زوجتى ، وأنتم تعرفونها ، وقد كانت حاضرة ورأت وسمعت كل شيء • فان كنتم لا تصدقوننى فاسألوها • فما كانت لتكذب ! » فتشبك مسز تومسون يديها المكدودتين ، ولا تخطئ أن تقول وذقنها ترتعد : « نعم هذا صحيح ، هذه هى الحقيقة ! »

ولكن القشة التى قصمت ظهر البعير كانت فى ذلك اليوم ، فان نوم البرايث ، وهو معجب قديم بالى ، بل انه ظل يلاحقها فيما مضى صيفاً كاملاً ، خرج اليوم للقائهما حين وصلوا بالعربة ، ووقف

أمامهما عارى الرأس ، فمنعهما بذلك من النزول ، وكان ينظر الى ما وراءهما وعلى وجهه قطوب الضيق ، قائلا لهما ان شقيقة زوجته فى الدار ومعها حفنة من أولادها ، فانتظ بهم البيت واضطرب نظام كل شئ فيه ، ولولا ذلك لدعاهما للدخول ، وأردف : « لقد كنا نفكر فى الذهاب اليكما يوما ما » ، ثم أخذ يتحرك كمن يريد أن يظهر الانشغال ، واستطرد : « ولكننا كنا مرهقين بالعمل فى المدة الاخيرة » . فقال مستر تومسون « لقد كنا مارين من هنا ففكرنا فى التحية » . ثم انطلقا . وقالت مسز تومسون « ان آل البرايت كانوا دائما من اخوان الصفاء » ، فأجابها مستر تومسون : « انهم لا يقبلون الا على من أقبلت عليه الدنيا » ، ولكن كان هذا عزاء فاترا لكليهما !

واخيرا قالت مسز تومسون : « فلنرجع الى البيت » . فقد تعب جيم العجوز وعطس . وقد ابتعدنا كثيرا » . فقال مستر تومسون : « ما دمتنا فى هذه الناحية فلننتهز الفرصة للمرور ببيت آل ماك كليان » وتوجهوا اليه ، ثم سألا غلاما صغيرا قطنى الشعر : هل أمه وأبوه فى البيت ، فان مستر تومسون يريد مقابلتهما ، فوقف الغلام الصغير يحملق فيهما وقد غرغمه ، ثم انطلق يعدو الى داخل البيت وهو يصيح : « أمى . أبى . تعاليا . فان الرجل الذى قتل مسـسـتر هاتش قد جاء لزيارتكما ! » فخرج الرجل لابسا جوربه ، واحدى فردتى حذائه الطويل ، أما الفردة الأخرى فلم يتم لبسها . وقال : « انزل يامستر تومسون وادخل » . ان امرأتى تغتسل ، ولكنها ستحضر حالا » . فتلمست مسز تومسون طريقها ، ونزلت فجلست فى مقعد مكسور من النوع الهزاز فوق السدة التى كانت تهتز تحت قدميها . أما ربة البيت فخرجت حافية وجلست على طرف السدة وقد نضح وجهها البدين بالفضول . وبدأ مستر تومسون الكلام فقال : « اخالكما تعلمان أنه وقعت لى منذ مدة وجيزة طائفة من المتاعب الغريبة ، من نوع لا يحدث للانسان كما يقولون فى كل يوم من أيام السنة . وهناك جملة

أشياء لا أحب أن يساء فهمها في أذهان جيرانى ، ولهذا ٠٠ » ثم وقف وتعتز ، وبدت على المستمعين أمارات الازدراء والطمع والحسة ، وكأنها تنطق بلسان واضح وضوح النهار : « عجبا ، لابدأئك انسان مسكين حقا ، حتى تجشم نفسك عناء الاهتمام بما عسى أن نظن نحن ، ونحن نعلم أنك ما كنت لتأتى الى هنا لو أنك وجدت أحدا تتجه اليه سوانا ٠ فانى شخصا ما كنت لاهبط بنفسى الى هذا الدرك » ، فحجل مستر تومسون من نفسه ، واستولى عليه الغضب ، وتمنى لودق راسيهما القدرين بعضهما ببعض ، فانهما لدنيثان قدران ٠ بيد أنه كبح جماح نفسه ومضى فى قصته حتى نهايتها ٠ ثم قال « وستخبركما زوجتى » ، فكان ذلك أصعب ما فى الموضوع ٠ لأن « الى » كانت تتصلب من غير أن تتحرك فيها عضلة واحدة ، كأن أحدا يتهددها بالضرب ٠ فلما قال : « اسألا زوجتى ٠ فما كانت لتكذب » ، قالت : « هى الحقيقة ٠ فقد رأيتهما » ! فقال الرجل فى جفاء وهو يهرش ضلوعه من داخل قميصه : « هذا يقينا مؤسف جدا ٠ ولكنى لأرى مع ذلك أى شأن لنا هنا بهذا الموضوع ٠ ولا أرى أى داع للتدخل فى مسائل القتل ٠ وأيا كانت وجهة نظرك ، فانها ليست من شأنى ٠ وان كان لطيفا منك ما جدا أن تأتيا لاطلاعنا على جلية الخبر ، لاننا فى الواقع سمعنا روايات غريبة عن الموضوع ٠ روايات من الغرابة بحيث لا نعرف لها رأسا من ذنب » ! فقالت المرأة : « ان كل انسان أصبح الآن يقتل أخاه ، أما نحن فلا نقر القتل » فالتوراة تقول ٠٠ » فقال الرجل : « أغلقى فمك والا أقفلته لك ١٠ ان المسألة تبدو فى نظرى ٠٠ »

وعندئذ باعدت مسر تومسون بين كفيها وقالت : « لانستطيع أن نتأخر أكثر مما تأخرنا حتى الآن ، فقد تقدمت الساعة ، والمسافة طويلة » ، فأدرك مستر تومسون مرادها من هذا التلميح ، وتبعها فى النهوض ، ووقف الرجل والمرأة مستندين الى أعمدة سدتهما المتداعية ، يرقبان انصرافهما ٠

والآن وقد استلقى في فراشه، أدرك مستر تومسون أن النهاية قد حانت . فالآن ، في هذه الدقيقة ، وهو مستلق في الفراش الذى طالما اضطلع فيه مع «الى» طيلة ثمانى عشرة سنة ، وتحت هذا السقف الذى وضع عروقه بنفسه وهو يستعد لاتمام زواجه، وقد أخذ في رقده هذه وتحسس بأصابعه ذقنه البارزة العظام ، وعارضيه وقد أخذ شعرهما ينبت بعد أن حلقة صباح هذا اليوم ، شعر مستر تومسون أنه رجل ميت . فهو ميت بالنسبة لحياته تلك التى انقضت . فهو . . بلغ نهاية شيء ما دون أن يدري لماذا ؟ وعليه أن يبدأ من بعد بداية جديدة ، وإن كان لا يدري كيف ؟ . . أن شيئاً جديداً سوف يتبدى ، ولكنه لا يدري ماهو ، بيد أنه شعر أن ذلك ليس من شأنه على نحو ما، لأنه سوف لا يكون له فيه دخل يذكر .

ونفض من رقده مكدوداً خائراً ، فتوجه الى المطبخ حيث كانت مسز تومسون تعد العشاء فوق المائدة فقالت له : « ناد الغلامين » وكانا قد ذهبا الى الحظيرة ، فأطفأ آرثر الفانوس قبل أن يغلقه على المسمار بالقرب من الباب . ولم يسترح مستر تومسون الى صمتهما . فأنهما لم يكادا يقولان له كلمة عن أى شيء منذ ذلك اليوم . وكان ظاهراً أنهما يتحاشيان . وكانا يتولييان كل شيء معاً كأنه غير موجود ، ويقومان بكل عمل لا يسألانه نصحا ولا رأياً . فقال لهما مصطفى البش : « ما ذا كنتما تصنعان يا ولدى ؟ هل كنتما تتمان أعمالكما ؟ » فقال آرثر : « كلا ياسيدى . لم يكن هناك عمل ذو بال ، فقد كنا نقوم بتشجيع محاور العجالات » . . أما هربرت فلم يقل شيئاً .

وحنت مسز تومسون رأسها وهمست بصوت ضعيف : « نشكرك على هذه النعم وعلى أنعمك الاخرى . . آمين » ، وجلس آل تومسون هناك ، غاضبة أبصارهم ، محزونة وجوههم ، كأنهم جلوس في ماتم . . !

كلما أغمض مستر تومسون عينيه لعله يغفى ، تنبه ذهنه

ونشط للجري كأنما هو أرنب ، قافزا من موضوع الى موضوع ،
 باحثا عن أثر يعينه على توضيح سياق ما حدث ذلك اليوم الذى
 قتل فيه مستر هاتش ، وجاهدا ما اجتهد فى ذلك السبيل عقل
 مستر تومسون ، فما كان ليصل الى شىء لم يكن قد وصل اليه
 من قبل ، أو ليرى شيئا لم يره من قبل . . ومع هذا فقد كان
 واثقا أن هذا ليس هو الصواب . فما لم يصدق نظره فى المرة
 الاولى ، فكل شىء اذن يتصل بقتله مستر هاتش كان خطأ من
 اوله الى آخره ، ولا حيلة له فيه ، وخير له أن ينفذ يده منه . ولكن
 ما زال يبدو له أنه ان لم يكن قد أصاب فيما فعل ، فهو قد فعل
 كل ما استطاع فى ذلك اليوم . . ولكن ، أهذا صحيح ؟ ألم يكن
 مناص من قتل مستر هاتش ؟ أنه لم ير فى حياته رجلا وكرهه
 أشد مما كرهه منذ وقت عليه عيناه ، فقد علم فى قرارة نفسه
 أنه اتى لمكروه . . والذى يبدو له الآن غاية فى السخف هو هذا :
 لماذا لم يأمر مستر هاتش بالانصراف قبل أن يدخل أصلا ؟
 وكانت مسز تومسون راقدة بجواره ، وقد عقدت ذراعيها فوق
 صدرها ، وقد سكنت أوصالها تماما ، بيد أنها كانت يقظى فيما
 يبدو . . فهمس قائلا :

— « أنائمة أنت يا الى ؟ » . . .

لقد كان ممكنا على كل حال أن يتخلص منه بوسيلة سلمية ، أو
 ربما اضطر الى التغلب عليه ووضع هذه الاصفاذ فى يديه ثم يسلمه
 الى العمدة بتهمة تكدير الامن . . وكان أقصى ما يصل اليه الامر أن
 يجسوا مستر هاتش حتى يهدأ بضعة أيام ، أو يغرمونه غرامة
 يسيرة . . وراح يفكر فيما كان من الممكن أن يقوله لمستر هاتش . .
 لنر . . ؟ كان يمكننى أن أقول له : « الآن اسمع يا مستر هاتش ،
 فانى أريد أن أخاطبك خطأ . رجل لرجل » . . . ثم يخونه ذهنه .
 وماذا كان يمكن أن يقول أو يصنع ؟ ولكن لو أنه استطاع أن يصنع
 أى شىء عدا قتل مستر هاتش ، اذن لما وقع شىء لمستر هلتون .
 ولم يكن يفكر فى مستر هلتون على الإطلاق تقريبا : لان عقله كان

يثب متجاوزا اياه لينطلق في أفكاره ، فلو انه استأنى كي يفكر في مستر هلتون ، اذن لما استطاع وايم الله أن يصل الى شيء . وحاول أن يتصور كيف كان الحال ممكنان يكون هذه الليلة عينها ، لو أن مستر هلتون لم يزل ناجيا معافى في كوخه يعزف نغمته عن الانتعاش في الصباح ، واحتساء جميع الحمر كي يزيد الانتعاش . ولكن مستر هاتش ناجيا في زنزانه بمكان ما ، ولعله أن يجن جنونه لذلك ، ولكنه يكف عن الشر على كل حال ، ويتاح له الاصغاء لصوت العقل ، والتكفير عن سفالته ، هذا الكلب القذر الصفراوي الذي يتعقب رجلا بريئا ، ويهدم صرح أسرة كاملة لم تتعرض له بسوء !

وأحسن مستر تومسون أن عروق جبينه قد نفرت ، وان قبضتيه قد تقلصتا كأنه قابض على يد فأس ! وتفصد جسمه عرقا ، ثم قفز من الفراش وفي حلقه غصة معترضة ، فنهضت على أثره « الى » صائحة : « أوه كلا ! لا تفعل ! » فكأنها في كابوس .. فوقف يرتجف وعظامه تصطك . وهو يصيح بصوت أجش : « أشعل المصباح ، أشعل المصباح يا الى » فأطلقت صرخة واهنة متحشجة ، كتلك الصرخة التي سمعها منها حين أقبلت من وراء البيت وهو واقف هناك والفأس في يده . ولم يستطع رؤيتها في الظلام ، ولكنها كانت راقدة في الفراش تنقلب تقلبا عنيفا ، فتحسسها مدعورا الى أن عثر بذراعيها ، فاذا بهما مرفوعتان الى أعلى ، واذا يداها تجذبان شعر رأسها ، وقد تصلب عنقها الى الوراء ، والصرخات المكتومة تكاد تخنقها ، فصاح ينادي آرثر وهيرت ، صارخا بصوت مضطرب : « أمكما » . فأقبل الغلامان يتخبطان وهو ممسك بذراعي مسز تومسون ، وقد رفع آرثر المصباح فوق رأسه ، فأبصر مستر تومسون على ضوءه عيني مسز تومسون المفتوحتين وهما تحدقان فيه بكَراهية ، والدمع ينهمر منهما . فلما أبصرت الغلامين جلست ومدت نحوهما احدي ذراعيها ، وقد تشنجت كفها في حركة تنبيه .

عن ثورة الاعصاب ، ثم ارتمت على ظهرها في تراخ وتفكك مفاجئين ، فوضع آرثر المصباح فوق المنضدة ، والتفت الى مستر تومسون فقال له : «انها مذعورة . مذعورة ذعر الموت . » وكان وجهه عابسا عبوس الغضب ، وقد تقبضت يداه وهو يواجه اباه كأنما يهم أن يضربه ، فسقط فك مستر تومسون وتراجع مبتعدا عن الفراش من فرط الدهشة ! أما هربرت فاتجه الى الجانب الآخر من الفراش ، ووقف الولدان على جانبي مسز تومسون يرقبان مستر تومسون وكأنه وحش مفترس شديد الخطر . ثم صاح آرثر في صوت الرجل المكتمل : « ماذا صنعت بها ؟ اياك أن تمسها بعد الآن أو أنتزع قلبك من صدرك ! . » وكان هربرت شديد الشحوب ، وخدها ينبضان ، بيد أنه كان في صف آرثر ، ولا يحجم عن شيء في سبيل تأييده . .

ونضبت طاقة مستر تومسون في الكفاح ، وتخاذلت ركبتاه وهو واقف ، وتهاوى صدره ، وقال بأنفاس متعثرة وأنفاس متقطعة : « يا آرثر . لقد عادت الى الاغماء . فهات النشادر » فلم يتحرك آرثر ، وأحضر هربرت القارورة وقدمها الى أبيه في نفور ، فوضعها مستر تومسون تحت أنف مسز تومسون ، ثم صب قليلا منها في راحة يده وذلك جبينها . وأخذ هربرت ينتحب وينشج وهو يقول ويردد يائسا : « أماه . لا تموتى » فقالت مسز تومسون : « انى بخير فلا تقلقا . وأنت ياهربرت لا تفعل هذا ، فانى بخير . » ثم أغمضت عينيها . وشرع مستر تومسون يرتدى خيرة سراويله ، ثم لبس جوربه وحذاءه . وجلس الغلامان على جانبي الفراش يرقبان وجه مسز تومسون . ثم لبس مستر تومسون قميصه وسترته وقال : « سوف أركب لاحتضار الطبيب . فليس يبدو لى ذلك الاغماء المتكرر علامة خير ، فاسهرا عليها حتى أعود . » وأصغيا لكلامه ولكنهما لم يجيباه بشيء ، فقال : « اياكما وأفكار

السوء . فانى لم أمسس أمكما طوال حياتى بسوء عمدا . »
وابتعد منصرفا ، ثم نظر وراءه فرأى هربرت شاخصا نحوه
ببصره من تحت حاجبيه كأنه ينظر الى رجل غريب عنه ،
فقال مستر تومسون : « أحسنا رعايتها . »

واخترق مسير تومسون المطبخ . وهناك أشعل الفانوس ،
ثم أخذ من فوق الرف الذى يضع عليه الولدان كتبهما المدرسية
كراسة هزيلة من أوراق المسودات وعقب قلم رصاص . ثم
رفع الفانوس ومد يده داخل الدولاب الذى يحفظ فيه بنادقه ،
فوجد بندقيّة محشوة على أتم أهبة ، فانه لا يدرى
الانسان متى تمسه الحاجة الى بندقيّة ، ثم خرج من البيت
دون أن يلتفت وراءه أو ينظر فيما حوله ، فاخترق الحظيرة
دون أن يراها ، ثم اتجه الى أقصى أطراف حقوله التى تمتد
نصف ميل الى جهة الشرق .

لقد كثرت الضربات على مستر تومسون ، ومن كل جهة ،
فليس فى وسعه أن يترث ليستبين موضع أصابته . وانطلق
يمشى فى الارض المحروثة وفى المرعى المعشوشب ، واخترق
فى حذر أسوار الاسلاك الشائكة ، فمر منها مقدما ببندقية أمامه ،
وقد تكشف لعينيه الاشياء فى الظلام قليلا بعد أن ألفه . وبلغ
فى نهاية مسيره الحد الاخير من حدوده ، وهناك جلس وظهره
الى عمود من الاعمدة ، والفانوس الى جانبه ، والكراسة فوق
ركبته ، ثم بلل القلم بريقه وشرع يكتب :

« أمام الله العلى القدير ، قاضى الكل الذى أمامه سأمثل
بعد قليل ، أحلف هنا يمينا مغلظة اننى لم أقضى على حياة
مستر هومرت . هاتش عمدا . بل دفعا عن مستر هلتون .
ولم أرم الى أصابته بالفأس وانما رميت فقط الى الحيلولة
بينه وبين مستر هلتون ، لانه كان قد صوب طعنة الى مستر
هلتون الذى لم يكن قد فطن اليها . واعتقدت فى ذلك الوقت

أن مستر هاتش سيقضى على حياة مستر هلتون ان لم أتدخل .
وقد قلت ذلك كله للقاضي والمحلفين ، فأطلقوا سراحي .
بيد أن أحدا لا يصدق هذه الحقيقة . وهذه وسيلة الوحيدة
للتدليل على أنني لم أقتل عامدا متعمدا كما يعتقد كل
انسان فيما يلوح لى . ولو أنني كنت فى مكان مستر هلتون لفعل
من أجلى ما فعلته من أجله . وما زلت أعتقد أنني قد فعلت
الشيء الوحيد الذى كان أمامى أن أفعله . وزوجتى . . »

وهنا تمهل مستر تومسون وفكر برهة ، ثم بلل سن القلم
بطرف لسانه وشطب به هذه الكلمة الأخيرة ، وجعل يسود
الموضع الى أن جعل منه بقعة بيضاوية ، ثم بدأ من جديد :
« ان مستر هومرت . هاتش هو الذى حضر لىسئ الى
رجل لا أذى منه . فهو الذى تسبب فى كل هذه المتاعب ،
فاستوجب الموت . ولكنى آسف أنني أنا الذى كان عليه أن
يقتله » !.

وبلّل سن قلمه مرة أخرى ثم وقع باسمه الكامل فى عناية،
وطوى الورقة ثم وضعها فى جيبه الخارجى . وخلع بعد
ذلك حذاءه الايمن وجوربه ، ثم وضع قاعدة البندقية فوق
الارض مصوبا فوهتها المزدوجة نحو رأسه، وكانت غير مستقرة،
ففكر فى ذلك قليلا ، وهو يميل فيعتمد برأسه فوق فوهة البندقية
كان يرتعد ، وكان رأسه يدق كدقات الطبل حتى صار وكأنه
قد ضرب بالصمم والعمى ، وهو يستلقى فوق الارض على
جنبه ، ثم جعل الفوهة تحت ذقنه ، ثم تلمس الزناد بأبهام
قدمه .

أجبل ، هكذا يستطيع أن يطلقها . .

انتهى

لا تشغلي باللاس ... !



فإذا فقد منك
شيءٌ تمين يمكنك
الحصول عليه في
ساعات .. إتصلي
بـ

أخبار الإعلانات



نتائج ربيّة - أعمار زهيدة

طبعتم بمطابع دار اخبار اليوم

فوق جواد أغبر

قصة اليوم

أبناء الفناء - حمزة الظهير

يضم هذا العدد من « قصة اليوم » هذه القصص الرائعة الثلاث ، للكاتبة الأمريكية المعاصرة « كاتراين آن بورتير » . وقد تكون هذه المؤلفة جديدة على قراء العربية ، ولكنها في نظر النقاد الادبيين من خيرة كتاب القصة الطويلة والقصيرة والمقالة على السواء . وقد طبع انتاجها الادبي بطابعين متميزين : البطاء الذي هو سمة الرغبة في التجويد ، والغزارة مع التنوع . والكتلة ليست حرفتها فحسب ، بل هي أيضا هوايتها . وقد عرف عنها قولها أنها لا ترى في الحياة شيئا يستحق الذكر سوى الكتابة . ولها هواية ثانية هي الفروسية ، ومن هنا نالت قصتها « فوق جواد أغبر » جائزة تكساس الادبية سنة ١٩٥٠ - واذا كانت مؤلفة القصص أديبة أمريكية كبيرة ، فان مترجمتها « السيدة صوفى عبد الله » أديبة مصرية بارعة ، طالما طالع القراء نفحات قلمها في التأليف والترجمة .

وان دار « أخبار اليوم » بالاشتراك مع « مؤسسة فرانكلين » ليسرها أن تقدم الى قرائها هذا اللون الجديد من القصص العالمي .



893.785
P83

BOUND

JAN 3 1956

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU07842546

893.785-P83